

مَنِيْبُ الطَّحَّانِ

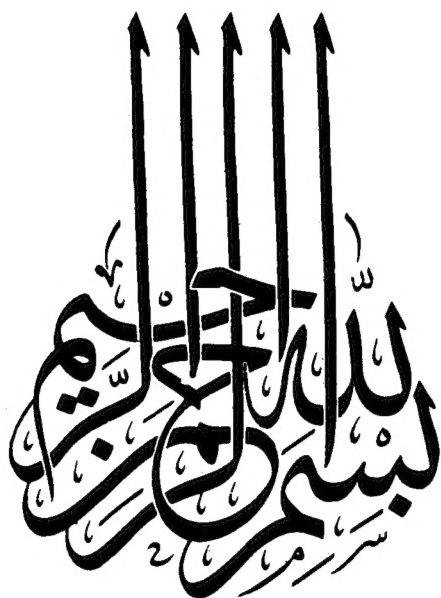
نِدَاءُ الْقُرْآنِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

دَارُ



لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



نَدَاءُ الْقُرْآنِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

رسم - عين الدرس - جادة كريمة حدار
ص ب ٣١٤٣ تليفاكس: ٢٣١٩٦٩٤



تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » - الإسراء / ٩ .
« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » - الأنفال / ٢ و ٣ .

إلى هؤلاء الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أوجه كتابي هذا ممهداً بخمس نقاط :

١ - في كتابي (الإعجاز في القرآن طريق إلى الإيمان) دعوت القارئ إلى قراءة القرآن قراءة واعية ، وملاحظة ما فيه من إعجاز متعدد الوجوه . بعد بيان وجوه الإعجاز الذي أدهش المعاصرين ببلاغته وتنوع أغراضه ، كما أدهش المتأخرين بتطابق آياته مع كثير من المكتشفات العلمية ، وفي عرضه للأحداث التاريخية ، وفي إشاراته إلى الكون ومكوناته ، كانت النتيجة أن مثل هذا الإعجاز ما كان ليصدر عن بشر ، وإنما عن خالق البشر .

بعد ذلك عرضنا صوراً من مخاطبة خالق الخلق إلى بني آدم كلهم ، من مثل قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » - الأعراف / ٣٥ .

ثمَّ عرضنا صوراً من دعوة الخالق إلى الناس على اختلاف أوطانهم وأزمانهم ، في عدد من الآيات الكريمة ليتعارفوا ، ويتعاونوا ، ويذكروا نعمة الله عليهم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحُجُرَات / ١٣ _ .

ثم جاء الخطاب إلى الذين آمنوا ، وهم الناس الذين سمعوا النداء الإلهي وفهموا معناه ، واستجابوا . إلى الذين آمنوا بالله رباً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن الكريم منهجاً . خاطبهم بالصفة التي تميزهم عن بقية الناس الذين لم يؤمنوا ، بالصفة التي تربطهم بالله وبرسوله ، والتي تحرك مشاعرهم للاستجابة والتلبية ، لطلما اعتمد إيمانهم على الإدراك الحسي إضافة للفترة التي فطر الله الناس عليها ، وعلى قناعة فكرية تشكلت بدلائل عقلية .

أجل ، تكرر الخطاب المباشر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً . ليدكرهم بما آمنوا به وصدقوا فليترزموا ، وليتنبهوا إلى مكملات الإيمان من تقوى ، وتوكل على الله ، وعزة نفس . . . وليعلموا أن الإسلام ليس بالأقوال والشعارات ، وإنما هو شعور بالقلب ونظام متكامل ؛ من تربية ضمائر الناس وإصلاح نفوسهم وسلوكهم مع الأسرة والمجتمع ، إلى تقرير حق كل فرد في الحياة وفي الوسائل الضرورية لحفظ الحياة ضمن الأسس التي رسمها لهم ، إلى أن يشمل تطبيقه جميع جوانب الحياة من أخلاقية ، وثقافية ، واقتصادية ، وسياسية ، وغيرها من الأسس التي تساعد على بناء المجتمع القادر على حمل مشعل الهداية ورسالة الحضارة إلى الإنسانية جمعاء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ _ الأنبياء / ١٠٧ _ .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها ؛ قول لا إله إلا الله ، وأدناها ؛ إمطة الأذى عن الطريق ، والحياة

شعبة من الإيمان" (١).

٢- هذه النداءات الإلهية اخترتها من كتاب الله عز وجل لتذكير القارئ بما تتضمنه من العلاجات لكل داء من الأدواء التي تعاني منها البشرية عامة ومجتمعاتنا خاصة، وبهدف ربط المسلم بكتاب الله تعالى ربطاً وثيقاً عملياً. وبقصد لفت النظر إلى أشياء خفيت على البعض، ولا ريب أن من يتدبر أي نداء من القرآن ويقبل عليه بالقلب والعمل سيرى فيه من غزارة المعاني ما يحذر من الوقوع في انحراف، أو ما يهدي للخلاص من انحراف قد وقع فيه خطأ أو عمداً، إلى جانب ما فيه من ترغيب بسلوك السبيل القويم، أو ترهيب مما يمكن أن يلحق المؤمن من عذاب في الدنيا قبل الآخرة. وقد روى ابن عمرو في ذم تلاوة الغافلين عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرأه" (٢).

((فالقرآن يراد للعمل به، أما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى، وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ.)) (٣).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مسعر، حدثني معن وعوف أو أحدهما؛ أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد لي، فقال: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإنه خيرٌ يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه (٤).

(١) صحيح مسلم، ج ١، كتاب الإيمان، باب ١٢، حديث ٣٧/٣٥.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي، مجلد ٢، رقم ٦٣٣٣، وقال: أي اقرأ القرآن ما نهاك عن المعصية وأمرك بالطاعة.

(٣) موعظة المؤمنين: ص ١٣٤.

(٤) ذكره القرطبي: ٩٤/٨.

وقال محي الدين بن عربي : ((إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الناس ، أو يا أيها الذين آمنوا ، فكن أنت المخاطب ، وافتح له أذن فهمك لما يقول لك في هذا التنبيه ، فكن في قبول ذلك بحسب ما يقول ، إن نهاك الله ، وإن أمرك فافعل منه ما استطعت ﴿ فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا ﴾ وقد جاء في الأثر : (يا عبدي إذا تعذر عليك فعل شيء مما أمرتك به فقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .))^(١) .

٣- هذه النداءات الإلهية بعضها اختص المسلمين الأوائل الذين رافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ۖ ۞ ﴾ المجادلة / ١٢ .

وبعضها جاء لمناسبة من المناسبات ، إلا أن فيها من التوجيه العام ما هو مطلوب في كل زمان ، مثل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ۖ ۞ ﴾ الحجرات / ١ . فإذا نظرنا إلى النبي من وجهة أنه كان قائداً للمسلمين ورئيس دولتهم الناشئة وجدنا أن هذا الأدب يجب أن يستمر ويطبق أمام القادة وولاة الأمور ومن في حكمهم . وهذا ما دعاني إلى ذكر أسباب النزول كلما وجدت أن في ذكرها ما يوضح غاية الحكم ويبين سبب التشريع ومراميه ، حتى وإن كانت العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

والقسم الأكبر من النداءات ما كان عاماً ومؤكداً أن القرآن ليس كتاباً لعصر بعينه ، وإنما له صفة الديمومة من حيث الزمان والمكان ، ومثاله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ الأحزاب / ٤١ و٤٢ .

٤- مما لا شك فيه أن الإسلام دين يسر وسماحة ، وأن أركان الإيمان والإسلام يمكن استيعابها والالتزام بها دون مشقة أو كبير وقت . إنما الذي يجب أن يدركه كل مسلم أن لكل أسس متممات . فمن اليسر التيمم في حالة المرض وفقدان الماء ، ولكن ليس من اليسر

(١) الوصايا : ص ١٥٥ ، الوصية ٧٢ .

إهمال الفروض والواجبات ، كإهمال الصلاة أو تأخير صلاة العصر إلى وقت الغروب . ولقد عرفنا كيف قام الإسلام على أسس تعبر عما في قلوب الناس من الإيمان بمختلف أركانه وأقسامه ، وتمرّنهم على طاعة الله والتوجه إليه في جميع الأوقات وسائر الأحوال ، فكانت هذه الأسس هي أركان الإسلام التي تقوم عليها دعامة الشريعة الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله الهادي محمد صلى الله عليه وسلّم .

وتلخص هذه الأركان في أمر واجب هو الإيمان الثابت في القلب بوحدانية الله جلّ وعلا المؤيد ذلك بشهادة اللسان وخضوع الجوارح . وقد جعل الله تعالى هذه الأركان محكاً لا اختبار مدى إيمان عباده ، فمن أنقص ركناً منها أو أهمله فكأنما عمل على هدم الإسلام وسعى لتقويض بنائه . لذلك يعدّ رفض الخضوع لله خروجاً على الإسلام وهدماً للإيمان مهما زعم الرافض من معرفة ويقين .

((لقد كان إبليس يعلم أن الله واحد لا شريك له ، وكان يعلم أن مصيره إليه يوم يبعثون . بيد أنه لما صدر إليه الأمر أن يسجد ، قال مستكبراً جاحداً : لا . . . عُدّ كافراً ، ولم تشفع له معرفته بوحدانية الله ، لأن المعرفة المجردة عن مبدأ الخضوع المطلق لرب العالمين لا وزن لها .))^(١)

إذن أركان الإسلام أشبه ما تكون بصفة يقصد منها علاج النفوس وترويضها على الطاعة ، ومراقبة الله والخضوع لأحكامه . فإذا نقص عنصر أو أكثر من تركيب العلاج قد يؤدي إلى سلب منفعته بالمرّة .

وهناك آيات يدور محورها حول ضرورة تدبر آيات القرآن المشيرة إلى سنن الكائنات والاتعاظ بما فيها والعمل بمقتضاها ، والتحذير من إهمالها واتخاذها لمجرد التلاوة والبركة بدلاً من الاستفادة بهديها واستنباط الأحكام والعبر منها . وما أجدر الإنسان المؤمن أن يتحلّى بما جاء فيها وهو يعلم أن الله عز وجلّ لم يأمرنا إلاّ بما فيه الخير لنا ، ولم ينهنا إلاّ عما

(١) عقيدة المسلم ، محمد الغزالي ، ص ١٥٦ .

فيه الفساد والشر في الدنيا والآخرة . فمن اتجه من أداء الفرائض نحو كمال العبادة فاز بالدرجات العلى من جنات النعيم . أما من لم يُخضع نفسه لأوامر الله فأولئك الذين قضى الله في دستوره أنهم لا يؤمنون ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ _ الأنعام/ ٢٠ _ خسروا أنفسهم بعدم التحكم فيها وإخضاعها لأوامر الله والاهتداء بهديه . وهذا إعلان عن عدل الله ، فهو لم يفرض الإيمان فرضاً على عباده ، ولم يحكم بحرمان أحد منه رغبة في إضلالهم ، بل إنه تعالى مهّد للناس طريق الخير والشر ، ونههم إلى ذلك ، وقضى بعدم إيمان كل من حكمته نفسه وزينت له شهواتها وأوردته موارد الخسران .

إذن من متممات الإيمان الاستجابة لنداءات الله الموجهة في كتابه الكريم للذين آمنوا ، وفيها ما يوضح معالم الطريق لأن خالق البشر أعلم بما فيه صلاح البشر وفلاحهم . وحين أنزل القرآن علم أن شريعته متعاصرة مع كل زمن ، متفاعلة مع الواقع ، تصف العلاج الحاسم لكل داء من أمراض المجتمع .

وليس صحيحاً ما يشيعه بعض الغفلة أن استجابة المؤمن لنداءات الخالق في الزمن الحاضر تعترض طريق النضال ضد أعداء الأمة في الداخل والخارج ، بل العكس هو الصحيح ، فانتصار المسلمين في غزوة بدر كان في رمضان ، ولم يقف الصيام حاجزاً دون القتال والنصر . ففي استجابة المؤمن للمنهج القرآني خدمة لدينه ودنياه ، فيه خلاص من كثير من الهموم والاستغلال والخوف ، وفيه خدمة لشخصه ، ولأسرته ، ولمجتمعه ، لأن الدين لمثل هذه التوجهات يدعو . وما كان المؤمنون في العهد الأول من رسالة الإسلام إلاّ ساعين للذود عن كرامتهم وكرامة أمتهم ووطنهم من تأمر المشركين ، ومن تأمر الأعداء واليهود خاصة _ على وحدتهم ورسالتهم الإنسانية . وما منعهم ممارستهم للشعائر الدينية عن الاستجابة لنداء (وامعتصماه) ، ولا حجزت السلطان صلاح الدين وأمثاله عن الاستجابة لنداء (وا إسلاماه) . وإنما الانغماس في الملذات ومجالس اللهو والسمر أكثر إعاقة عن الاستجابة لنداء الواجب الوطني والقومي . بل هي أكثر استجابة لنداء الشيطان وجنوده من الطواغيت المتأمرين على وحدة الأمة العربية والإسلامية .

٥- وأخيراً ألحقت بكل نداء توضيحاً اعتمدت فيه على ما يجمع بين المأثور والمعقول ، مستمداً من تفاسير موثوقة ، قديمة وحديثة ، محاولاً عدم التأثير بأي مذهب ، مشيراً إلى أماكن الخلافات الفقهية أحياناً تسهيلاً للقارئ الراغب بالرجوع إلى التوضيحات المرادة في كتب الفقه الميسرة .

وتعرضت إلى أسباب النزول عند الضرورة محاولاً اختيار أقرب الروايات التي اتفق عليها عدد من المفسرين والعلماء . وفي مقدمة ما استفدت منه في البيان : التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ، وتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السائس ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبي ، سائلاً المولى أن يوفقنا إلى سماع نداء الله والعمل بموجبه في كل مناحي الحياة ، لأن الله عز وجل لا ينادينا إلا بما يحقق سعادتنا .

دمشق ١٦ / ذو القعدة / ١٤٢٠ هـ

٢٠ / شباط / ٢٠٠٠ م

منيب الطحان

النداء الأول: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ، وَقُولُوا انْظُرْنَا ، وَاسْمَعُوا
وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

البقرة/ ١٠٤ و ١٠٥ _

إنَّه النداء العلوي للذين آمنوا ، نداء ينههم إلى نوعين من سيئات الإسرائيليين
ومطاعنهم الكثيرة الموجهة ضد العرب والمسلمين :

- النوع الأول : ما كان موجهاً إلى الإسلام في شخص الرسول صَلَّى الله عليه وسلَّم .
وذلك أنهم كانوا يقولون له : (راعنا) . « والأصل في كلمة (راعنا) من المراجعة ، وهي
الإنكار والإمهال ، أو الرعاية ، وهي النظر في مصالح الإنسان . وقد حَرَّفَهَا اليهود ،
فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحمقُ ، ولذلك نهى عنها المؤمنون . »^(١) .
وقيل هي كلمة عدوانية ، أصلها (راعينو) أي شرير ويقصدون بها الخط من قدر
النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم ، دون أن يشعر الصحابة بذلك .

« قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء : وذلك أن العرب كانوا يتكلمون
بها ، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبي صَلَّى الله عليه وسلَّم أعجبهم ذلك . وكان (راعنا)
في كلام اليهود سباً قبيحاً ، فقالوا : إِنَّا كُنَّا نَسُبُ مُحَمَّدًا سِرًّا ، فَالآن أَعْلَنُوا السَّبَّ لِمُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ
مِنْ كَلَامِهِ . فَكَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ رَاعِنَا ، وَيَضْحَكُونَ
فَفُطِنَ بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَكَانَ عَارِفًا بِلُغَةِ الْيَهُودِ ، وَقَالَ : يَا أَعْدَاءُ

(١) صفوة التفاسير: ٨٥/١ .

الله عليكم لعنة الله ، والذي نفس محمد بيده ، لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه ، فقالوا : أليست تقولونها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا . ﴾ الآية^(١) .

﴿ وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ أي قولوا بدلاً عنها المعنى المقصود حقيقة منها وهو : انظرنا يا رسول الله ﴿ واسمّعوا ﴾ ما أمرتم به ﴿ وللكافرين ﴾ الذين يقصدون النيل من مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ عذاب أليم ﴾ إذا لم ينتهوا عن ذلك سرّاً أو علناً .

- النوع الثاني من سيئات بني إسرائيل ومطاعنهم ؛ ما كان موجّهاً إلى الإسلام في شخص أتباعه ، وذلك أنهم كانوا يتظاهرون لهم بالودّ ، ويقولون : وددنا لو كان دينكم خيراً مما نحن فيه لتبّع . فحذرهم الله منهم بقوله : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . ويجمع القرآن الكريم بين أهل الكتاب والمشرّكين في الكفر ، وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة ، وكلاهما يضمّر للمؤمنين الحقد ، ولا يودّ لهم الخير ، وأعظم ما يكرهونه لهم هذا الدين . والأمثلة والبراهين على هذا الكره أكثر من أن تُحصى . ومنها هذه الإشارات السريعة التي تذكّر القارئ بأفعالهم وتؤكد أن الله عزّ وجلّ نبّه عباده لما فيه خيرهم . فهم الذين واجهوا الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى لقيام الدولة العربية الإسلامية . والذي ألّب الأحزاب على المسلمين ، وجمع بين يهود قريظة وغيرهم ، وبين قريش في مكة وبين القبائل الأخرى في الجزيرة يهودي . والذي ألّب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق الشائعات في فتنة عثمان رضي الله عنه وما تلاها من النكبات يهودي . . والذي كان وراء إثارة النعرات القومية لتفكيك الدولة العثمانية ، ووراء الانقلاب على يدي أتاتورك يهودي . وهكذا سائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على العرب والمسلمين في الأرض المحتلة من فلسطين ، وفي جنوب لبنان ، وفي الجولان . حتى الطائرات الأمريكية والبريطانية التي دمّرت العراق ، ولا تزال تواصل اعتداءاتها على

(١) التفسير المنير، ج ١، ص ٢٥٥ .

شمال العراق وجنوبه ، إنّما دافعها الأوّل وقاية العدو الصهيوني وتأمين مصالح حلفائه وحماته .

يقول (ألفريد كانتول سميث) من مؤرخي الغرب ، مؤلف كتاب الإسلام في التاريخ : « إنّ الغرب كان ولا يزال يخاف القوة المعنوية الكامنة في عالم الإسلام الذي تجمعه وحدة التوحيد الخالص ، يخاف هذه القوة ويخشأها ، ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها وتمزيقها ، وبعث الخلاف والفرقة والصراع والخصومة والتناحر بين أجزائها»^(١) .

من أجل هذا كانت حملة الإبادة من الصرب ضد مسلمي البوسنة والهرسك . ووقفت الدول الكبرى متفرجة على حملة التطهير العرقي . وحين طلبت البوسنة من الأمم المتحدة المساعدة في فرض سيطرتها على أراضيها «أعاد وزير الخارجية الأمريكي _ جيمس بيكر _ تأكيد سياسة حكومته قائلاً : لن يتم استخدام قوات الولايات المتحدة بصورة منفردة ، وكما قلنا من قبل : إنّنا لسنا رجل شرطة العالم ولا يمكن أداء هذا الدور . . .»^(٢) . فلماذا تدخلت الولايات المتحدة بعد ثلاث سنوات ، بعد قتل عشرات الألوف من المسلمين وتشريد السكان ؟ فقد اختفى من على وجه الأرض الآلاف « وفي زفونيك كان يعيش (٤٩) ألف مسلم ولم يتبقّ منهم شخص . وهكذا محوا خمسة قرون من الحياة الإسلامية والثقافة والتقاليد الإسلامية هناك . . . ألم يكن بإمكان الولايات المتحدة وحلفائها المساعدة قبل القتل والتدمير والإبادة ؟ . . كان ذلك وصفاً يلائم أهواء قادة الصرب من المتعصبين في البوسنة . . .»^(٣) .

نفس الأعمال الوحشية تكرّرت حين هبّ مسلمو كوسوفا للتحرك من ظلم الصرب وتعصبهم القومي والديني .

(١) المسلمون في يوغوسلافيا ، محمد قاروط ، ص ٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٣) انظر : نزاعات البلقان والتطهير العرقي ، محمد قاروط ، ص ٢١٣-٢٢٣ .

وهكذا نرى التعاطف والتكامل بين اليهود في إسرائيل وحلفائهم في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها لضرب العرب والمسلمين . فإذا سمعنا الله تعالى يقول : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ فإننا ندرك طرفاً من حكمة الله تعالى في تقديم اليهود على الذين أشركوا .

ثم يقول عزّ من قائل : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختص بها محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالته ، فقد علم سبحانه أنهم أهل لهذا الاختصاص .

﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة . وفي هذا التلميح ما يحرك في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل . وهذا الشعور ضروري للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها _ ويقودها _ اليهود لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين .

أخيراً ومما دل عليه النداء المذكور : « ١ - تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغضب من قدر النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ - التمسك بسد الذرائع وحمايتها . وقد دلّ على هذا الأصل الكتاب والسنة . والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في الممنوع . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ سَبَّ آلهَتِهِمْ مِنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ خِيفَةً يُقَابِلُهُمْ بِمَثَلِ ذَلِكَ .

ومن أمثلة سد الذرائع قوله صلى الله عليه وسلم : "إنَّ من الكبائر شتم الرجل والديه" قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : " نعم ، يسبُّ أبا الرجل ، فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمّه ، فيسبُّ أمّه " ^(١) .

(١) انظر تفسير القرطبي للآية ١٠٤ / البقرة . والحديث متفق عليه ، أنظر : صحيح مسلم (٩٠) .

و مما يدل عليه النداء ؛ تجنب استخدام الكلمات أو المصطلحات التي يردها أعداء الأمة قبل التأكد من معانيها المقصودة وأهدافها ، كما نهانا عن استخدام كلمة (راعنا) . فنحن نسمع أحياناً كلمات تستخدمها وسائل الإعلام المعادية للعرب والمسلمين ، فتردها وسائل الإعلام العربية حتى تصبح كلمات متعارف عليها ، مثل نعت المجاهدين بالمخربين ، والمقاومة بالإرهاب . . وأخيراً تعبير (العولمة) الذي أخذ عدد من الباحثين العرب يردده وكأنه التعبير الذي لا يراد به القضاء على ما تبقى لدينا من إيمان وإسلام ، أو عروبة وتراث فبعضهم يرى في العولمة عملاً إنسانياً مشتركاً ، وإذا كان الأمر كذلك فهي ليست بشيء جديد ، فمنذ خلق الله الإنسان وهناك حاجات تربط المجتمعات الإنسانية بعضها ببعض من خلال علاقات إنسانية متبادلة بأنماطها الإيجابية مثل التعاون والتكامل ، والسلبية مثل الحروب . ولكن الآن ظهرت (العولمة) بصور جديدة ، ففي الواجهة عولمة اقتصادية تنطلق من حرية التجارة وحرية نقل السلع وإلغاء الرسوم الجمركية ، وهذه إجراءات كلها ذات أثر سلبي على الدول النامية ، لتمتع الدول الصناعية المتقدمة بتطور علمي وتقني ، أتاح لها أن تنتج سلعاً عالية الجودة لن تستطيع الدول العربية ومثيلاتها من الدول النامية أن تضاهيها إنتاجياً ، ومن هنا سيحدث ركود في الإنتاج المحلي العربي ، يقابله رواج للإنتاج العالمي .

ولكن هل نقف من الدعوة المذكورة موقفاً سلبياً ؟ أم علينا أن نوضح أن الإسلام أول من دعا إلى الانفتاح على العالم أجمع ، فالله سبحانه وتعالى لم يرسل محمداً إلى العرب فحسب بل إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، وفي هذا محاولة لإعطاء الإنسانية فرصة للتقارب والتكامل .

« لا يمكن لمتتبع منصف إنكار الدور الهام الذي لعبه العرب في ميدان العلاقات الدولية بدءاً من ظهور الإسلام في الجزيرة العربية على صورة رسالة سماوية حملها إلى الإنسانية جمعاء النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، وتولى حملها وحمايتها من بعده خلفاؤه من العرب والمسلمين . وللإسلام نظرة للعلاقات الدولية تختلف في أساسها

عن تلك التي يأخذ بها القانون الدولي الوضعي . فالإسلام أصلاً يهدف إلى توحيد بني البشر في ظل نظام قانوني واحد هو الشريعة الإسلامية . فالشريعة الإسلامية موجهة للناس كافة ، دون تمييز على أساس الأصل أو العرق أو اللغة . والشريعة الإسلامية خلافاً لكل شريعة سابقة لها لم تكن ديناً فحسب بالمعنى الذي يفهم به الدين ، بل أنها أيضاً نظام قانوني وبعبارة أخرى هي لا تنظم علاقة المخلوق بالخالق فحسب ، بل تنظم في الوقت نفسه علاقة المخلوقات فيما بينهم وعلى مختلف المستويات الاجتماعية التي يوجدون فيها فهي إذن شريعة تحكم مظاهر النشاط الإنساني ، ومستمدة في أصولها الرئيسية من عند الله . فهي كما يقرر فقهاؤها أعدل الأنظمة القانونية وأفضلها ، وهي (نظام خالد يحكم البشر إلى يوم يبعثون) .^(١)

هذه عالمية الإسلام ، أما العولة الجديدة فتتحرك باتجاه خلق قوى مسيطرة في مواجهة قوى أخرى وتصفية فئات مجتمعية معينة ، وخلق فجوة أكبر بين الطبقات المحرومة والطبقات شديدة الثراء ، وبالتالي بين الدول المتقدمة وتلك التي لا تتمكن من مواكبة الركب فتزداد ضعفاً وتبعية . فالمطلوب اليقظة إلى كل تصرفات الغرب (وأقصد بذلك الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاء الصهيونية المعادية للعرب والمسلمين) التي لا تريد أن ينزل علينا من خير ، كما وصفها النداء أعلاه . إنها اليقظة التي تنقلنا من دور المراقب والمتفرج أو التابع إلى دور التغيير نحو الأفضل ، وهو دور كان حاسماً في الماضي ، ولا بد أن يكون كذلك في المستقبل إن شاء الله و تمَّ تدبُّر نداء القرآن الكريم .

(١) المدخل إلى القانون الدولي العام وقت السلم ، د . محمد عزيز شكري ، ص ١٨ .

النداء الثاني : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . ﴾
- البقرة / ١٥٣ -

بعد أن أوجب الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين ذكره وشكره بتوحيد الربوبية وعدم الشرك به ، كان أول توجيه لهم هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم ، والاستعداد لما قد يلاقيه المؤمن من نقص في الأموال والأنفس والثمرات والخوف والجوع لإقرار منهج الله وربط قلوب هذه الأمة بالله تعالى ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا ﴾ على قضاء مصالحكم وبلوغ أمانيتكم بأمرين أساسيين هما : الصبر ، والصلاة .

أولاً - الصبر : الصبر على تحمل كل ألم نفسي وجسمي باعتباره من سنن الله تعالى وقد قال بعض الحكماء : (الصبر يكون على أشياء كثيرة ، من أبرزها :
- الصبر على شهوات النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ، وعجلتها وملالها من قريب .

- الصبر على شهوات الناس ونقصهم ، وانحراف طباعهم وأثرتهم ، وغرورهم والتوائهم) . « فإن بعض (المؤمنين) قد لا يجد حرجاً في أن يهمل عمله ، ويكذب ، وينافق ، ويظلم الآخرين ، ويأكل أموال الناس بالباطل ، ويدمر ثروات المجتمع ، ويمارس أعمالاً منكراً أخرى مما لا تتفق مع قيم الدين الذي يؤمن به ، إنه قد لا يجد في ذلك أي حرج ، بالرغم من أنه يمارس الشعائر الدينية ، بل إنه قد يفلسف الآثام التي يرتكبها ، ويلوي أعناق النصوص الدينية لكي يبرر آثامه دينياً . وليس لذلك كله من تفسير سوى أن الموازين لدى ذلك البعض من (المؤمنين) قد اختلّت ذلك الخلل الذي يؤدي بدوره إلى

تدهور المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وبيئياً. «^(١). وهذا ينقلنا إلى نوع آخر من الصبر يرتبط بهذه الصور :

- الصبر على أقوال وأعمال المنافقين : « الذين يحاربون الإسلام باسمه ، ويكيدون له بسلاحه ، ويتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح والمرونة والتمسك بروح التشريع ، ويستخرجون من الفتاوى الملفة المصطنعة تحقيقاً لأمانهم وتقرباً إلى أسيادهم وأولياء نعمتهم »^(٢).

وربما تفتحت في عصرنا ، عصر انتشار وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة ، والتي اقتحمت كل بيت تقريباً ، أبواب جديدة من المفسد والمكارة . فلم تعد تتحدى مشاعر المرء الأحداث المحلية فقط ، بل اقتحمت الأحداث العالمية بخيرها القليل وشرها الكثير . فأصبح يرى الطغيان في العالم من الدول الكبيرة على الدول الصغيرة ، واعتداءات القوى الباغية على الشعوب المستضعفة . ويروجّ لمثل هذه الأعمال أعداء من أصحاب الشر والباطل . يرى الإنسان ويسمع كيف تروجّ بعض وسائل الإعلام للباطل والشرور ، وتفسد مفاهيم الخير والحق والجمال . فيتألم المؤمن لما يصيب أخاه في الإنسانية ، ويعتصره الألم حين يرى الشرّ يتجّج ويمنع الخير أن ينمو خوفاً من أن يحمل نموّ الحق خطراً عليه ، فيحاول قتل الحق وخنقه بالقوة . ومن ثم لا بدّ للنفس الأبية ولصاحب الحق من الجهاد دفاعاً عن حقه ، ولا بدّ له من الصبر على تحمل هذه المصاعب حتى لا ينهار . وأمام هذه الانفعالات الكثيرة التي تنتاب المؤمن ألماً وحسرة على ما يحدث ، ويرى أن المدافع عن عقيدته وأرضه يوصم بالإرهاب ، ويلاحق من عدوّه في الداخل والخارج ، وينهض لحربه الطغاة المستكبرون والمستهترون المنحلّون . وأحياناً ينقلب عليه القريب والصدّيق إذا لم يخضع للغاصب والمراوغ ، رغم ما يحاوله صاحب الحق من سلوك طريق العقل والسلم . وإذا كان المستمع

(١) مدخل إلى نظرية الأمن والإيمان ، م . عبد الوهاب المصري ، ص ٢٣٠ .

(٢) فقه السيرة ، د . محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ٤٨٤ .

أو المشاهد يرجو من الله أن يلهمه الصبر على ما يسمع ويرى ، فكيف بالذي يحمل مرارة الجهاد لهذا كله بنفسه وبكل ما يملك حتى لا ينهار . وعزاؤه الوحيد قوله تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ النساء / ١٠٤ _ وهذا هو مفرق الطريق .

وما تكرر ذكر الصبر في القرآن إلا لأن الله تعالى يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع .

« واعلم أن جميع ما يلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين :

- الأول ما يوافق الهوى ، وهو الصحة والسلامة ، والمال والجاه ، وملاذ الدنيا .

وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور . . وهذا الصبر متصل بالشكر .

- الثاني ؛ ما لا يوافق الهوى والطبع ، وذلك على أقسام :

القسم الأول ؛ إما أن يرتبط باختيار العبد ، وهو ضربان :

١ - الطاعة ؛ والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، لأن فيها ما تنفر عنه النفس بسبب

الكسل كالصلاة ، أو بسبب البخل كالزكاة ، أو بسببهما جميعاً كالحج والجهاد ، وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

٢ - المعاصي ؛ وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله : ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ الْبَغْيِ ﴾ النحل / ٩٠ _ .

القسم الثاني : ما لا يرتبط باختيار العبد ، وله اختيار في دفعه ، كما لو أؤذي بفعل أو

قول . فالصبر عليه فضيلة . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ النحل / ١٢٦ _

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار ؛ كالمصائب ، مثل موت الأعزة ،

وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وسائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من

أعلى مقامات الصبر .

وإنّما تنال درجة الصبر في المصائب بترك الجزع والمبالغة في الشكوى . . ولا يُخرجه عن حدّ الصابرين توجّع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، لأنّ ذلك مقتضى البشرية . . .»^(١) .

ولكن حين يطول الأمد ، ويشقّ الجهد ، قد يضعف الصبر ، فيأتي المعين الثاني الذي لا ينضب :

ثانياً) - الصلاة ؛ باعتبارها هي التي تصل الإنسان الضعيف بالقوة الكبرى ، يستمد منها العون حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة ، ويثقل عليه الاستقامة في الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع . وقد فتح الله تعالى لعباده باب الدعاء على مصراعيه ، ووعدهم بإجابة الدعاء ليكون وسيلة إلى دوام ذكره والرجوع إليه . ورد في الصحيح : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يدعوله بدخول الجنة ، فقال له : "أعني على ذلك بكثرة السجود"^(٢) .

«ولدوام الصلة بين الله وعباده عن طريق الدعاء فرض الله عليهم الصلاة في اليوم واللييلة خمس مرات ، بيّنها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وجعل الزيادة من سنّة قربة إليه تعالى ، لما في ذلك من الذكر الذي دعا إليه سبحانه بقوله : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ _ البقرة / ١٥٢ _ . وتدل الصلاة على منتهى الخضوع والطاعة ، وتعبّر عن الإحساس بالحاجة إلى المعبود ، لأنها ليست مجرد أقوال وأعمال ظاهرة فحسب بل لابدّ أن تكون منبعثة من القلب ، معبرة عما يخالج النفس من إيمان بالله ، وخوف منه ، ورجاء لما عنده من التأييد»^(٣) .

(١) موعظة المؤمنين ، ص ٤١٦ و ٤١٧ .

(٢) فيض القدير ، ٧٨٧٧ ، والنسائي ، كتاب الافتتاح ، فضل السجود .

(٣) أسمى الرسائل ، عبد الحميد الخطيب ، ص ٣٥٨ .

هنا تبدو قيمة الصلاة ، إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والمولى الرحيم الباقي وليكن في علمنا أن الصلاة تنشئ أيضاً صلة بين الفرد والمجتمع بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ _ العنكبوت / ٤٥ _ ، أي تُطَهِّرُ نفسية الفرد من البواعث إلى إيقاع مثل هذه الأمور في المجتمع .

كما أشار القرآن الكريم إلى ثمرة أخرى للصلاة ، هي القضاء على نوازع الأثرة التي فطر الإنسان عليها . من هنا كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم إذا حزبه أمر (أغمّه) فزع إلى الصلاة ، وكان يقول : "أرحنا بها يا بلال" ^(١) ، ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله . وقد قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم : " جُعِلَتْ قَرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " ^(٢) .

بعد أن بيّن الله تعالى أهمية الاستعانة بالصبر والصلاة للقيام بالدور الذي خلق الإنسان من أجله قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وهم الذين جُبِلَتْ نفوسهم على تحمل الآلام والمصاعب ، باعتبارها ليست كلها صادرة عن سوء تصرفاتهم . ومع ذلك فإن العبد حين يدعو الخالق لكشف ضرر أصابه ، أو يدعوهُ للشفاء من مرض مع الأخذ بأسباب التداوي منه عن طريق ما أودعه الله في العلاجات من خواص ، فإن الله ييسره بقوله : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ بشرط أن يأتي بحقيقة الصلاة لابصورتها ، وليقل : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(١) زيادة الجامع الصغير ، حرف الياء ، ٤١٣٦ . وأبو داود : ٤٩٨٥ .

(٢) انظر : الجامع الصغير للسيوطي : ٣٥٩٣ و٣٦٦٩ .

النداء الثالث: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
البقرة/ ١٧٢ و ١٧٣

إنه النداء العلوي للذين آمنوا ، نداؤهم بالصفة التي توحى إليهم أن يتلقوا الشرائع من الله وحده ، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام . ويذكرهم بما رزقهم ، فهو وحده الرازق ، ويسبح لهم الطيبات مما رزقهم ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي اطعموا من حلال الرزق الذي أحللناه لكم في هذه الحياة ، ولا تحرموا شيئاً مما أحللناه لكم كما حرمت بنو إسرائيل البحائر والسوائب وما إليها ، إلا إذا جاء نص على التحريم في القرآن وما أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك يشعرهم الخالق الكريم بأنه لم يمنع عنهم طيباً من الطيبات مادام عن طريق الكسب الحلال . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ _المؤمنون/ ٥١_ فأمر بالأكل من الطيبات قبل العم . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ _البقرة/ ١٨٨_ . والآيات الواردة في الحلال والحرام كثيرة ، ومجالها كتب الفقه . إنما أشير هنا إلى أن المال إنما يحرم لصفة في عينه كالخمر والخنزير ، وإما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه ، كأن يؤخذ من غير مالكة أو قهراً . فالأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء . فقد روى أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ثم ذكر

الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وقد عُذِّي بالحرام، فأنتى يُستجاب له ^(١) .

﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على النعم التي رزقكم إياها وأحلها لكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي تخصونه بالعبادة، ولا تعترفون بأحقية غيره في التحليل والتحريم.

ولما امتنَّ الله تعالى على الناس بالرزق، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا ما يلي :

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ والقصد أكل الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها، سواء كانت منخقة، أو موقوذة، أو متردية، أو نطيحة، أو عدا عليها السبع، (وسياتي تفصيلها في الآية الثالثة من سورة المائدة).

«وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر، لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾_المائدة/ ٩٦_، وما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "هو الطَّهْرُ ماؤه، الحلُّ ميتته" ^(٢). وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر مرفوعاً عن أبي عثمان الهندي رضي الله عنه، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمْن والجبن والفراء، فقال: "الحلال ما أحلَّ الله في كتابه، والحرام ما حرَّم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفي عنه" ^(٣). وما حرَّم الله الميتة إلا لما يخشى من ضررها. وهي بحد ذاتها ممَّا تعافه النفس السليمة.

﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح لأنه قذر وضار كالميتة، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ﴾_الأنعام/ ١٤٥_.

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم ٦٥/١٠١٥، والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق.

(٢) مسند ابن ماجه/ ٣٢٤٦.

(٣) انظر تفسير ابن كثير، ج ٢، البقرة ١٧٣. والحديث في ابن ماجه: ٣٣٦٧. والترمذي ١٧٨٠.

﴿وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ سواء ذكي أو مات حتف أنفه ، لأنه ضار في كلتا الحالتين ، ولا سيما في البلاد الحارة^(١) . ولئن جادل بعض المستكبرين بأن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت بحيث لم تعد الديدان الشريطية وبويضاتها مصدر خطر ، فقد نسوا أن علمهم قد احتاج إلى أكثر من ألف عام ليكشف آفة واحدة ، فمن الذي يجزم بعدم وجود آفات أخرى لم يكشف بعد عنها .

﴿وما أَهْلٌ لغيرِ الله به﴾ أي سمي عليه عند الذبح لغير الله . وهذا حرم لعل روحية تنافي سلامة القلب وطهارة الروح . فقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده لا شريك له . ومع هذا فالإسلام يحسب حساب الضرورات ، فيبيح فيها المحظورات ، ويحل المحرمات بقدر ما تنتفي هذه الضرورات ، فقال : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ في الأكل وإنما لم يجد ما يسد به رمقه إلا عن طريق ما حرّمه الله ، فإذا تناول منه غير قاصد به العصيان ، وأخذ منه بحسب الضرورة التي ألجأته ﴿فَلَا إثمَ عليه﴾ في الأكل لأن التعرّض للموت بالجوع أكثر تحقّقاً من الموت بأكل الميتة ، ولأن الأكل في حال الاضطراب لا يدلّ على تعمّد المعصية . ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن خارت قواه وأشرف على الهلاك من الجوع ، فأكل لدفع ضرر أشدّ . وهذا من رحمة الله على عباده لينفي عنهم الحرج .

«دلت الآية على : ١- إفادة الحصر ، فظاهرها إثبات التحريم ، ونفيه عما عداه . ويؤكد ذلك ما جاء في الآية (١٤٥/ الأنعام) المذكورة أعلاه . وهذا الظاهر يعارضه أحاديث كثيرة وردت في تحريم السباع والطيور والحمير الإنسية والبغال . فقد ورد عن أبي ثعلبة الخشني أنه قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع)^(٢) . ولما كان هذا التعارض خلاف بين الفقهاء ، وخلاف حول كل نوع من الحيوان ؛

(١) أوضحنا في كتابنا (الإعجاز في القرآن) كيف كشف العلم الحديث أضرار لحم الخنزير على سلامة الإنسان ص ٥٧-٦٠ .

(٢) رواه البخاري برقم ٥٢٠٧ .

المائي ، والبري ، والبرمائي ، (يمكن الرجوع إلى ذلك في كتب الفقه).

٢- الحكمة في تحريم ما ذكر: فالميتة لاستقذارها، ولما فيها من ضرر، لأنها إما أن تكون قد ماتت لمرض أفسد تركيبها، وإما لسبب طارئ، فأما الأولى فقد خبث لحمها وتلوث بجراثيم المرض، فيخاف من عدواها ونقل مرضها إلى أكلها. وأما الثانية فلأن الموت الفجائي يقتضي بقاء المواد الضارة في جسمها. وأما الدم المسفوح فلقدارته وضرره أيضاً. وأما لحم الخنزير فلأن غذاءه من القاذورات والنجاسات فتقدر لذلك، ولأنه يحمل جراثيم شديدة الفتك، وظهر أيضاً أن المتغذي من لحم الخنزير قد يكتسب من طباع ما يأكله . . . وأما ما أهل به لغير الله فتحريمه لحكمة مرجعها إلى صيانة الدين والتوحيد^(١).

(١) تفسير آيات الأحكام: ١/ ٤٣ و ٤٧.

النداء الرابع: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ؛ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ
وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ
بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَدِّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ
اعْتَدَى بِكَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴾

البقرة/ ١٧٨ و ١٧٩ _

إن أحكام الشريعة الإسلامية بعدلها القويم ومبادئها الشاملة تدور حول صيانة
الضرورات الأساسية التي لا يستطيع أن يعيش الناس بدونها . وقد حصرها أئمة الاجتهاد
وعلماء أصول الفقه بخمسة مقاصد أساسية وسموها : الضروريات الخمس ، أو الكليات
الخمس اللازمة لتأمين مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة ، وهي حسب الترتيب التنازلي في
الأهمية ؛ الدين ، فالنفس ، فالعقل ، فالنسل ، فالمال . وقد وضعت الشريعة في سبيل
الحفاظ على هذه الكليات عقوبات زاجرة لكل من يتعدى عليها ، أو ينتهك حرمتها .
ولحماية حق الحياة جاء هذا النداء الإلهي معلناً مبدأ المساواة في الدماء وفي العقوبة ، فكان
بمثابة إعلان حقيقي لميلاد الإنسان (أو حقوق الإنسان) ، إذ لم تسبقه شريعة تعترف بهذه
المساواة بين النفوس . بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا أقررنا أن الشريعة الإسلامية هي
الشريعة التي تهدف قبل كل شيء إلى حماية حقوق الإنسان في الدارين . فالخالق الأعظم
كرم ابن آدم وفضله على العالمين ، والناس سواسية كأسنان المشط (لا فضل لعربي على

أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى^(١) ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، وحقوق المرء في الحياة والكرامة والسعادة مصونة لا يجوز التعدي عليها .

« ولعل التاريخ خير مصداق لهذا ، إذ ما يزال يردد صيحة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمير مصر حين أهان إنسانا (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) . كذلك بدأ اهتمام التشريع الوضعي بحقوق الإنسان منذ الثورتين الكبيرتين في أمريكا وفرنسا وانتقلت الدعوة إلى حماية حقوق الإنسان من السنة الأنبياء والفلاسفة والحكام إلى نصوص مكتوبة تنفذها سلطة الدولة أو الدول الملتزمة بها . غير أن الالتزام بحماية هذه الحقوق لم يصبح دولياً بالمعنى الصحيح إلا بنصوص ميثاق الأمم المتحدة . فللمرة الأولى أصبح للإنسان حقوقاً أساسية يصونها القانون الدولي . . . وفي أواخر عام ١٩٤٨ تم وضع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، ويتضمن نوعين رئيسيين من الحقوق المعترف بها للفرد ؛ أولها الحقوق السياسية والمدنية ، وثانيهما الحقوق الاقتصادية والاجتماعية »^(٢) .

إلا أن إعلان الله تعالى الذي طبقه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم منذ ألف وأربعمائة عام ، ومن سار على نهجه ؛ إعلان يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة في التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد ، وفي المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة ، فلا يعتدي ظالم على مظلوم ، ولا يستبد قوي بضعيف ، ولا يتحكم غني بفقر ، وإنما الكل أمام الحق سواء فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله رباً عادلاً وحكيماً ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فُرضَ عليكم ، ولزم عند مطالبة صاحب الحق به ﴿ الْقصاص ﴾ المماثلة في القتلَى وصفاً وفعلاً . وهو من اقتص أثر فلان ، إذا فعل مثله . ﴿ فِي الْقَتْلَى ﴾ أي بسبب القتلَى فَيُقْتَلُ ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ ﴾ أي يُقْتَلُ القاتل إذا كان مساوياً للمقتول في الحرية التي يجب أن تُراعى بادئ ذي بدء

(١) من خطبة الوداع التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . (انظر مسند الإمام أحمد / ٥) .

(٢) المدخل إلى القانون الدولي العام ، ص ١٧٦ .

أما المادة والعلم والحسب والنسب فلا تحول دون المساواة في هذا الباب . ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾
لأنه مساو له في المنزلة ، ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ لأنها مساوية لها في الأنوثة . ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ
مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي فمن عفا له أخوه في الدين من أولياء الدم وتجاوزوا عن شيء من حقهم
_ ولو واحداً منهم إن تعددوا _ سقط القصاص . ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فلتكن مطالبته
بالفدية بالمعروف دون عنف أو تعسف ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي وتأدية من جهة الجاني
للمجني عليه من غير محاطلة ولا بخس حق . ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي الحكم المذكور
من العفو والدية هو تسهيل لكم ﴿وَرَحْمَةٌ بِكُمْ﴾ حيث وسع ولم يحتم واحداً منهما كما
حتم القصاص على اليهود والدية على النصارى .

بناء على ما ذكر يكون المطلوب تطبيق هذا النظام . ويكون موجب القتل العمد أحد
أمرين : إما القصاص ، وإما العفو إلى الدية ، فأيهما اختار الولي أجبر الجاني عليه . وهذا
ما عليه الإمام الشافعي . ومنهم من قال بأن من معاني العفو هنا الإسقاط أو العطاء .
وذهب آخرون إلى أن العفو : العطاء . وفي التفصيل (خلاف فقهي) . إنما المهم في ذلك أن
الله تعالى فتح للقاتل باب النجاة عن طريق العفو ، ورحمة بآل القتل حيث كتب لهم ثواب
العفو ، وجعل لهم من الدية بعض العزاء . وحرّم ما كان يجري بين القبائل من ظلم ، إذ
كان بعضهم يأبى أن يقتلوا في امرأتهم إلا رجلاً ، على ما جاء في حديث الشعبي .

وقد بينت السنة الشريفة أن الذكر يُقتل بالأنثى ، والحرُّ بالعبد إذا لم يكن سيّده . فقد
ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلّم قوله : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى
بذمتهم أديانهم ، وهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ"^(١) . فقال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ولم
يفرق بين عبد وحرّ في ذلك .

﴿فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ من أهل القتل بعد العفو والرضاء بالدية ، بأن انتقم من
القاتل ، أو حقد عليه ﴿فَلَهُ﴾ في الآخرة من الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفوق العذاب الذي يتوعده

(١) سنن أبي داود : ٢٧٥١ .

به في الآخرة، يتعين قتله، ولا تقبل منه الدية. لأن الاعتداء بعد ذلك التراضي والقبول نكث للعهد، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي ولكم يا أصحاب العقول فيما شرعته من القصاص حياة وبقاء «لأن الناس إذا علموا أن من قتل يُقتل كف بعضهم عن بعض. فإذا هم أحد يقتل أخيه أو جس خيفة من القصاص فكف عن القتل. فكان في ذلك حياة له وحياة لمن أراد قتله، وحياة لغيرهما من الناس. وربما وقعت الفتنة بالقتل فيقتل فيها خلق كثير، وشرع القصاص حاجز لذلك كله. وهذا على أن المراد بالقصاص شرع القصاص. ويمكن أن يراد منه القصاص نفسه. ويكون المعنى بأن في القصاص نفسه حياة، لأن القاتل إذا اقتص منه كان عبرة لغيره، فيرتدع من يهمون بالقتل فلا يقتلون ولا يقتلون، فكان القصاص سبباً للحياة...

وقد نقل الله تعالى العقوبات بهذه الآية إلى معنى سام جليل، فجعل الغرض منها الاستصلاح ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ولم يقل انتقام. ولقد رقت قلوب قوم من رجال التشريع الوضعي، فاستعظموا قتل القاتل ورحموا من القتل. ولقد كان المقتول ظلماً أولى برحمتهم وعطفهم. وإذا رحموا القاتل فمن يرحم المجتمع الذي يكثرفيه المجرمون الفساد؟^(١). هذا العقاب الرادع الذي يجعل من يتجه إلى الاعتداء على النفس بالقتل يعلم أنه مأخوذ بالقتل إن قتل دون نظر إلى نسبه أو مركزه أو جنسه، فلا يقدم على الاعتداء على الآخرين. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ _المائدة/ ٥٠_، أي يصدقون بأن خالق الناس أعلم بالناس ونفوسهم، وأعرف بمصالحهم، وأرحم بهم من عباده.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تتخذون من هذا النظام الاجتماعي وسيلة إلى التقوى، وهي الحذر من ناحيتين: الأولى: الاعتداء على الحياة كلها وصفائها، فإذا كف القصاص

(١) تفسير آيات الأحكام: ٥٤/١.

الجانبي عن حياة واحدة فلم يزهقها ، كان في هذا الكف حياة مطلقة ، لاحياة فرد ، ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة .

الثانية : الحذر من نقم الله وعذابه ، وفي هذا استجاشة شعور التدبّر لحكمة الله تعالى وتقواه . فالآية صرخة مدوية في وجه الظلم والرضا به ، وليس لأحد حجة عليها . «والآية جمعت بسبب جريمة القتل بين تشريع القصاص الذي كان في بني إسرائيل ، وبين تشريع الدية الذي كان في النصارى . وأصبح الخيار مقررأ بين القصاص والدية والعفو مطلقاً عن أي شيء . بل إن الإسلام حضّ على العفو في آيات كثيرة ، منها : ﴿وَأَنْ تَعْفُو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ البقرة / ٢٣٧ . أما إن أراد في الدم القصاص فعلى القاتل الاستسلام لأمر الله والانقياد لقصاصه المشروع ، وهذا فرض عليه . كما أنه فرض على الولي الوقوف عند قتل القاتل ، وترك التعدي على غيره ، كما كانت العرب تتعدّى فتقتل غير القاتل . »^(١) وهكذا رأينا أن الإسلام في نظام العقوبات لا يهدف أبداً إلى الانتقام من المذنب بقدر ما ينظر إلى العبرة والموعظة والترغيب بالتوبة . ثم إن مهمة تطبيقه موكولة إلى صاحب السلطة التنفيذية .

(١) التفسير المنير ج ٢ ، ص ١٧٨ .

النداء الخامس : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

-البقرة/ ١٨٢ و ١٨٣-

لقد استهدف الإسلام في كل تشريعاته بناء الإنسان المتكامل الذي يعرف خالقه معرفة يقينية تقوم على الحجة واليقين الكامل . وهذا ما يهدف إليه هذا النداء . الذي فرض الله تعالى به ركناً من أركان العبادات على عباده الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبأن القرآن والسنة هما مصدر التشريع الإسلامي ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ أي فُرضَ عليكم الصيام . والصيام من الناحية الشرعية في إجماع العلماء هو الإمساك عن المفطرات يوماً كاملاً بنية مخصوصة ، من الفجر الصادق إلى الغروب ، من مسلم بالغ عاقل ، ومسلمة طاهرة عن حيض ونفاس .

﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من حيث الفرضية ، دون النظر إلى الصفة ولا عدة الأيام . إذ لم تخل شريعة من الشرائع من فرض الصوم ، وإنما اختلف الصوم في ماهيته وكيفيته ومقداره .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فالغاية المرجوة من الصوم أخبرنا الله بها وهي تقوى الله . وهل من تقوى أعظم من أن يراقب العبد ربه ويردع عن الشهوات نفسه ، ويحفظها ، ويخضعها لامثال أمر مولاه بترك طعامه وشرابه حباً في رضاه . وفي هذا أعظم معاني الجهاد للنفس

بإذلالها وإشعارها بمبلغ ضعفها وشدة حاجتها إلى الطعام والشراب لتسكن إلى ربها وتخضع لعظمته فلا تتكبر عن عبادته، وتتصور مقدار فضله عليها فتبالغ في شكره، وتذكر حالة الفقير فيزيد خوفها ويعظم عطفها على عباده .

«إن من يتأمل في قصة خلق آدم وحواء، وخروجهما من الجنة، يجد أن شهوة البطن قد كانت هي أولى الشهوات التي سببت لهما كل ما حاق بهما، حيث نهاهما ربهما عن الأكل من الشجرة، فغلبتهما شهوة الأكل من الطعام الممنوع، فأكلا منه، فبدت لهما سوءاتهما، وتبع ذلك شهوة الجسم، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وهكذا أصبحت شهوة البطن مصدر الشهوات ، ومبعث الأدواء والآفات، ويتبعها شهوة النكاح، ثم الرغبة في المال والجاه، ومن هنا تتولد أنواع المفاسد والمنافسات، وينشأ الحسد والكبرياء، والعداوة والبغضاء، إلى غير ذلك من السيئات التي يحركها إبليس في نفس الإنسان ولا سبيل إلى مقاومته إلا عن طريق الجوع . . .»^(١).

﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ قلائل، هي أيام شهر رمضان، كما أوضحته الآية التي بعدها:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ . . . ﴾ .

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي إذا كان مريضاً فعلاً أو مسافراً غير مرتحل فعلاً أثناء النهار، فإنه يعدل عن الصوم إلى الإفطار في أيام المرض أو السفر . على أن يقضي تلك الأيام بمثلها من أيام آخر غير أيام شهر رمضان، عند القدرة . وهذه رخصة من الله الرحيم بالإفطار، (وهناك خلاف فقهي حول المرض المبيح للفطر، وكذا بالنسبة للسفر).

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ أي الذين يقدرُونَ عليه مع الشدة والمشقة، من غير المريض والمسافر، كالشيخ الهرم، والمرأة الحامل، والمرضع، أو من تكون أعمالهم شاقة كتكسير الأحجار والعمال في المناجم، لا لمجرد الوهم، إذا أفطروا ﴿فِدْيَةٌ﴾ تتعين عليهم في حالة

(١) أسمى الرسائل، ص ٣٦٤.

إفطارهم مقابل رفع المشقة عنهم .

«سئل الحسن البصري^(١) عن الحامل والمرضع إن خافتا على نفسيهما أو ولدهما ، فقال : أي مرض أشد من الحمل ! تظفر وتقضي . ثم إن العلماء أجمعوا على أن الواجب على الشيخ الهرم ؛ الفدية . أما الحامل والمرضع ؛ فقال الشافعي رضي الله عنه : عليهما الفدية مع القضاء . وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : ليس عليهما إلا القضاء . وحجة الشافعية ؛ أنهما داخلان في منطوق الآية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ لأنهما لا يطيقان فتجب عليهما الفدية . أما أبو حنيفة فجعلهما في حكم المريض ، انظر إلى قول الحسن البصري : (أي مرض أشد من الحمل) يفطران ويقضيان . ثم قال أبو حنيفة : فرق بينهما وبين الشيخ الفاني ، لأنه لا يمكن إيجاب القضاء عليه ، لأنه إنما سقط عنه الصوم إلى الفدية لشيخوخته وزمانته ، فلن يأتي عليه يوم يكون أقدر على الصوم من أيام رمضان التي أفطر فيها . أما الحامل والمرضع فهما من أصحاب الأعذار الطارئة المنتظرة الزوال ، فإن زال عذرهما فعليهما عدة من أيام آخر ، وإن لم يزل كانا كالمريض الذي لم تزل علته . على أنه لا يمكن إيجاب الفدية عليهما مع إيجاب القضاء ، لأن الفدية بدل الصوم »^(٢) . هذه الفدية مقابل رفع المشقة قدرها ﴿طَعَامٌ مِسْكِينٍ﴾ علاوة على الإعادة عند القدرة . فإذا لم يقدرُوا على الإعادة مطلقاً ، كما في الشيخ الهرم ، وعلم الله منهم ذلك ، فأمرهم مفوض إلى الله الذي يعلم ماتكته النفوس . (وهناك خلاف فقهي حول هذه المسألة أيضاً) . وجمهور العلماء على أن هذا الصوم واجب على التخيير ، إن شاء صام ، وإن شاء أفطر ودفع الفدية ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ قال بعض العلماء من تطوَّع بالزيادة على مسكين

(١) الحسن بن يسار البصري (٢١-١١٠هـ) تابعي جليل ، إمام أهل البصرة ، شب في كنف علي بن أبي طالب ، كانت له هبة عظيمة في قلوب الولاة والحكام ، يأمرهم وينهاهم . وصفه الغزالي بأنه أقرب الناس هدياً من الصحابة .

(٢) تفسير آيات الأحكام : ١ / ص ٦٨ .

واحد فهو خير له . وقال آخرون : من تطوَّع بالزيادة في مقدار الفدية على المسكين الذي أعطاه . وقال الزهري : من تطوَّع بالصيام مع الفدية فهو خير له . ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي أن الصوم أفضل من الإفطار والإعادة مع الفدية ، وإن كانت زائدة عن طعام مسكين . وهذه الزيادة تحذير للناس من الإفطار لأبسط عذر أو أقل مشقة . والله كفيل بعون من أثر الصوم من أجله . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما في الصيام من الحكم الإلهية وطاعة وامثال لأمر الله ، وتهذيب للأخلاق ، وتعويد على النظام وقوة الإرادة ، والصبر على الاسترسال وزراء الملذات .

وهكذا دلَّت الآية على : ١- أن شريعة الصيام لم تكن بدعاً من الشرع ، بل كانت مكتوبة على من قبلنا من الأمم .

٢- وجه الحكمة في إيجاب الصوم ؛ وهو أنه سبب قوي في حصول التقوى .

٣- رحمة الله بعباده ، إذ لم يكلفهم بما يشق ، بل كلفهم أياماً معدودات ، وهي إن قلَّت فتواها عظيم .

٤- بين أن هذا التكليف خاص بمن قدر عليه ، إذ أباح تأخيره لمن يشق عليه من المرضى والمسافرين إلى وقت يقدرون عليه فيه .

فالناس على ثلاثة أحوال : - الأصحّاء المقيمون ؛ ويلزمهم الصوم عينا في رمضان .

- والمرضى والمسافرون ؛ ولهم الفطر إن أرادوا ، وعليهم إن أفطروا أيام آخر .

- وقوم لا يقدرون على الصوم وفيه ضرر لهم ، فهؤلاء يفدون .^(١)

وقد تناولت كتب العبادات كثيراً من فوائد الصوم والحكمة منه ، وما يحققه من تربية

فردية وجماعية تستهدف الاعتياد على النظام ، وتهذيب الأخلاق ، وكف الجوارح عن المكاره ، حتى يصل الإنسان إلى درجة الإحسان .^(٢)

(١) المصدر السابق : ١/ ص ٦٣ و ٦٧ .

(٢) أنظر الإعجاز في القرآن ، ص ٢٠٦ - ٢٠٩ .

النداء السادس : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلِّهِ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ _البقرة/ ٢٠٨_

نداء الله تعالى للذين آمنوا به أن يأخذوا بعروة أساسية من عرى الإسلام فيستسلموا بكليّاتهم لله ، في ذوات أنفسهم ، استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية . فإذا استجاب المؤمنون لهذا النداء الإلهي دخلوا في عالم كله سلم وسلام ، سلام مع النفس والعقل ، وسلام يظلّل الحياة والمجتمع .

ورد في تفسير ابن كثير ، وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما حول قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلِّهِ﴾ : «يعني في دين الإسلام . وقال الضحاك عن ابن عباس وأبي العالية والربيع بن أنس : ﴿ادخلوا في السَّلَامِ﴾ يعني الطاعة . والصحيح أنهم أمروا بأن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ، وهي كثيرة جداً ، ما استطاعوا منها .» ^(١)

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف يعرّب القلب في النفوس غير المؤمنة ، في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام ، أو التي عرفت الإسلام ثم تنكّرت له تحت شعارات متباينة .

ولما دعا الله تعالى الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم جميعاً ، حذّرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان ، فقال : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي اعملوا بالطاعات لأنّ نقيضها المعاصي وهي طريق الشيطان . إذ ليس هناك إلا اتجاهاان اثنان ؛ إمّا الدخول في

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، سورة ٢ ، آية ٢٠٨ .

السلم، وإما اتباع خطوات الشيطان . إما طريق الله عز وجلّ، وإما طريق الغواية والضلالة وهنا يستثير الله _ سبحانه _ مخاوف عباده بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم ، تلك العداوة التي لا ينساها إلا غافل ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ _ البقرة / ١٦٩ _ فهو يزين للإنسان سوء عمله حتى يراه حسناً، ويعدّه الكسب والسعادة في طريق المعصية ، يمتيه النجاة من عاقبة ما يعمل ، وبالنصر في محاربة أخيه المؤمن ، ويمضي في طريقه إلى المهلكة ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ ، وما يعدُّهم الشيطان إلا غروراً ﴾ _ النساء / ١٢٠ _

ثم يخوف الله عباده من عاقبة الزلل بعد أن أرشدهم إلى ضرورة اتباع طريق السلم والابتعاد عن طريق الشيطان ، فيقول في الآية التالية : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . أجل عزيزٌ حكيمٌ . اختاره لعباده هو الخير ، وما نهى عنه هو الشر . اختار لهم طريق الإسلام والتأخي ، وحذّرهم مما بيّنه الشيطان من أحقاد وعصبيّات تقف في طريق تأخيمهم ووحدتهم . وهو القائل : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةٌ واحدةٌ ، وأنا ربُّكُمْ فاعبدون ﴾ _ الأنبياء / ٩٢ _ .

وقد نجح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بناء الوحدة الإسلامية المتكاملة عقيدة ، ولغة ، وثقافة ، وحضّ على التأخي والتضامن والمساواة ، والعمل للسمو والعزة والكرامة . فما الذي فرّق هذه الأمة بعد اتحاد ؟ وما الذي جعل بعض الأقطار تحمل السلاح في وجه جيرانها من الذين آمنوا ؟ أو ترفع راية الاستسلام في وجه الذين كفروا ؟ أمثلة كثيرة تزداد يوماً بعد يوم تدل على ضرب عوامل التوحيد التي اعتمدها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في إقامة الدولة العربية الإسلامية ، بعد أن كان العرب شعوباً وقبائل متفرقة ، لا تجمعهم رابطة ، ولا يظلمهم نظام . إنّما ذلكم الشيطان الذي اتّبعه البعض ناسين قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ فاتّبعوا خطوات الشيطان بالانسياق وراء دعايات الأنظمة المعادية للعروبة والإسلام . فالقرآن الكريم ذكر شياطين

الإنس والجن في سورة الناس ، وقال : ﴿ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ _ الأنعام / ١١٢ _

« ولا شك أن شياطين الإنس أشد فتكاً وخطراً من شياطين الجن ، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة ، وشيطان الإنس يزيّن له الفواحش ويغريه بالمنكرات ، ولا يثنيه عن عزمه شيء . والمعصوم من عصمه الله » ^(١) . فالذين اتّبعوا خطوات الشيطان زوّدهم بالذخيرة والعتاد لتحارب كل فئة جارتها المؤمنة ، وتستجيب لدعوات مغرضة بإقامة سلام مع من اغتصب الأرض والمقدسات ، وانتهك الحرمات على طريقة الاستسلام ، بدلاً من أن تستجيب إلى دعوة الخالق بالسلام بين المسلمين . ولن نستغرق في التفصيلات ، فالقارئ إذا استعرض كيف كان المسلمون وكيف أصبحوا في دولهم ، وكيف كان العرب وكيف أصبحوا في أقطارهم ، يعرف كم دولة إسلامية أثّرت فيها الفتن والاضطرابات ولم تنجح الدعوة في الدخول إلى السّلم ، لأن الفئات المتصارعة غالباً ما تحتكم إلى دول لا ترعى حرمة للإسلام ولا للعروبة ، بدلاً من الاحتكام إلى منهج الله تعالى القائل : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ، وهو القائل : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا . . . ﴾ _ الْحُجُرَات / ٩ _ .

وإني لأعجب كيف تتخذ بعض الدول من الإسلام شعاراً لها ، أو نصوصاً في دستورها ، أو تدعو في المؤتمرات الإسلامية إلى التآخي الإسلامي والتقارب والدفاع عن مصالح المسلمين ، ولكنها في أفعالها تناقض أقوالها . والأعجب من ذلك أن لا يستجيب ولاية أمورها إلى نداء الله القائل : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ . لا تستجيب للتوجيهات الإنسانية التي يطلقها القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وتستجيب للنداءات التي تطلقها الدول الأوروبية ، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية ، بحجة حماية حقوق الإنسان . مع أن الإسلام هو حركة التاريخ نحو الإنسانية . ورسالته الإنسانية تتجلى في كل مبدأ من مبادئه ،

(١) صفوة التفاسير . مجلد ٣ ، ص ٩٨٦ .

على نقيض من الدول الأوروبية المنادية بحقوق الإنسان . ألم يهتم الإسلام بالأسرة ويدعو لحسن صحبة الأم ورعاية الوالدين قبل أن يكرّس الغرب للأم عيداً بمئات السنين ؟ ألم يدع إلى الرفق بالحيوان قبل الجمعيات الأوروبية التي تغار على الذبائح في موسم الأضحيات ولا تتحرك مشاعرها أمام ذبح الأطفال والأبرياء في الأرض المحتلة وجنوب لبنان ، وفي أفريقيا وغيرها ؟ يكفيننا أن نذكر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي الجيش بعدم قتل شيخ أو طفل أو امرأة ، وألا يؤخذ البريء بجريرة الجاني . . . تذكّر يا أخي القارئ صورة الفتح الإسلامي الذي لم يفرض دينه على الأمم المغلوبة ، كما فرض المسيحيون عقيدتهم فرضاً على من بقي من المسلمين في الأندلس ، أو أخرجوهم من الإسلام قسراً في مناطق أخرى من العالم . والرسول صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ آذَى ذِمّاً فَقَدْ آذَانِي " ^(١) ، وقرن الأقوال بالأفعال . فما كانت الفتوحات الإسلامية إلا فتوح هداية وإرشاد ، لا حروب قهر واستعباد . والكل يذكر توجيهات خليفة رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم لقوآد جيوشه التي توجهت إلى بلاد الشام ، ويذكر عمر بن الخطاب وعدله ، وصلاح الدين ووفاءه ، وغيرهم . .

يقول الدكتور وهبة الزحيلي : « هذا الاتجاه في العالم نحو وحدة الصف ووحدة الدول ووحدة المصالح والقضايا ، يقابله اتجاه معاكس لدى المسلمين والعرب مع الأسف الشديد ، اتجاه نحو تعميق الخلافات القائمة بين الدول العربية والإسلامية ، نحو الفرقة . . هذا الاتجاه ينذر بشرّ خطير وسوء محقق محقق بهذه الأمة . فإن لم يستفّق قادة هذه الأمة وعلماءها ومفكروها ويستأصلوا بقدر الإمكان جذور الخلاف ، فإننا في المستقبل القريب سنكون أسوأ بكثير مما نحن عليه الآن . . . فأصول الوحدة وجذورها والله الحمد كثيرة تربط بين المسلمين في أنحاء الأرض ، أخوة الإيمان ، وأخوة وحدة اللغة ، ووحدة الفكر ، ووحدة الأهداف ، والمخاطر والآمال والآلام ، كلنا نجمعنا هذه الأشياء ، وعدونا واحد ، فإن لم

(١) الجامع الصغير / ٨٢٧٠ ، عن ابن مسعود .

نتّحد على قائد واحد وحاكم واحد، فلا أقلّ من أن تتحد مناهج هذه الدول وتتفق في الأصول السياسية وفي الالتزام بشرع الله ودينه، وفي تنوير الفكر على أسس من العلم والحضارة والمعرفة التي أرادها الإسلام لهذه الأمة. (١)

فالخطاب لا يحقق حيويته إلاّ بإدراك، وإنتاج، وإدراك إنتاج، وبذلك يتم امتلاك القدرة على التغيير، وقد علمنا _ بداية _ أن القرآن الكريم جاء يخاطب العالم أجمع فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . . ﴾ _ الحجرات / ١٣ _ وقد تكرر مثل هذا الخطاب في أربعة عشر موضعاً . وهكذا توجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدعوته إلى الناس جميعاً "أيها الناس ؛ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . . يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّكُمْ لَأَدَمٍ وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ . . لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى . . " (٢) .

ففي هذا الشرع وهذا المنهج القرآني ما يوضح الطريق ﴿ يهدي به الله من اتّبع رضوانه سُبُلَ السَّلام ﴾ _ المائدة / ١٦ _ . ما أدق هذا التعبير وأصدقّه ، إنه السلام الذي يسكبه المنهج في الحياة كلها ، سلام الفرد ، و سلام الجماعة ، و سلام العالم . وقد عرفنا من سيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كيف اعتبر البلاد الإسلامية وطناً واحداً ، فأوجب على المسلمين جميعهم حمايتها والدفاع عنها ، والعمل على إسعاد أهلها ، ومنع الظلم والجور عنهم . حتى إنه لم ينه عن البر بالأمم غير الإسلامية إذا لم يقاتلوا المسلمين ولم يسيؤوا إليهم . هذا هو السلام الحقيقي ، سلام الضمير والعقل والجوارح ، سلام الفرد والأسرة والمجتمع .

لقد كان المخاطبون بهذا النداء أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا

(١) صحيفة كيهان العربي ، العدد ٢٣١١ ، السنة ١٢ ، ٢١ ربيع الأول ١٤١٣ هـ ، ص ٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، المجلد الخامس ، و الدر المنثور (خطبة الوداع) .

السلام . وما أخرجنا الآن إلى إدراك هذه الحقيقة وأعداؤنا يترصّون بنا الدوائر . يراوغون باسم السلام أمام آلات التصوير وقلوبهم مليئة بالحقد ، وينفثون سمومهم في كل فئة ، يزيّنون لها طريق الشيطان . والحديث يطول حول هذا الموضوع ، لذا أنهيه بما رواه أبو هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "لاتدخلوا الجنّة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ، أوّلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم"^(١) . والعاقل يدرك أن المطلوب ليس لفظ السلام ، وإنما العمل بالسلام ومن أجله . أو تكرار لفظ السلام بهدف تأدية المعنى حقه الفعلي بين الناس وبين الشعوب . وهكذا يكون دور المسلمين ، دور التلاقي على الصعيد الإسلامي والإنساني ، دور الكره للحرب والعدوان والاغتصاب ، ودور الرغبة الصادقة في الوصول إلى السلام العادل للشعوب العربية والإسلامية ، بل للإنسانية جمعاء .

(١) صحيح مسلم/ ٩٣ . وذكره الترمذي / ٢٦٨٩ ، باب الاستئذان ، وغيرهما .

النداء السابع: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

—البقرة/ ٢٥٤—

هذا النداء دعوة من الله تعالى إلى تأليف قلوب المؤمنين وتقوية أواصر المودة بينهم، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ أي كونوا متصفين بالإنفاق، واتخذوا الجود والكرم ديدناً لكم في هذه الحياة، تأسروا بذلك القلوب، وتحصلوا على رضا علام الغيوب. «فالسخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهو أصل من أصول النجاة. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث كثيرة منها: "خُلِقَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى؛ حَسَنَ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، وَخُلِقَانِ يَبْغِضُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى؛ سَوْءَ الْخُلُقِ وَالْبَخْلِ. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَسْتَعْمَلَهُ فِي قِضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ"^(١). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ. وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ. وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ عَالَمٍ بَخِيلٍ"^(٢).

﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي ولا تكلفوا أنفسكم في هذا الباب بالمعدوم، بل أخرجوا مما هو في قبضتكم وتحت تصرفكم مما أنعم الله به عليكم، فهو الذي أعطى، وهو الذي يدعو إلى الإنفاق مما أعطى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ رهيب، والمراد به هو يوم الحساب ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾ والبيع في الأصل هو الكسب بأي نوع من أنواع المبادلة أو المعاوضة، والمراد به هنا؛ لا فداء

(١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير برقم: ٣٩٢٤.

(٢) المصدر السابق: ٤٨٠٤. والترمذي: ٢٠٢٧.

فيتدارك المقصر تقصيره ، فهذه فرصة إن أفلتت منكم فلن تعود ، ﴿ ولا خَلَّةٌ ﴾ أي صداقة ولا مودة تنفع ، كما ليس هناك من يرجى منه العون ، ﴿ ولا شَفَاعَةٌ ﴾ من صديق أو قريب تردّ عنكم عاقبة النكول .

وفي هذا النداء إشارة من الله عزّ وجلّ إلى الموضوع الذي يدعوهم إلى الإنفاق من أجله ، فهو الإنفاق من أجل دفع رذيلة البخل عمّن ظلم نفسه بهذه الصفة الذميمة ، ومنع العطاء عن المستحقين ، مما سبّب حرمانهم من ثواب الإنفاق ورضوان الله . وإنفاق في سبيل البر وأعمال الخير التي ترفع الظلم والحيف عن بعض الجماعات التي مهما سعت لن تحصل قوت يومها لشيخوخة أو مرض أو ما شابه ذلك . وإنفاق للجهاد ، لدفع المعتدين على عقيدة الأمة وكرامتها وأرضها ودفع الظلم ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ والمراد بالكافرين في رأي الحسن البصري : تاركو الزكاة ، لأن الأمر بالإنفاق هو الإنفاق الواجب ، لاتصال الوعيد به ، وهو أن تاركي الزكاة هم الظالمون . كما قال الزمخشري : والظالمون هم الذين جحدوا أمر الله ، أو أنفقوا المال في غير محله المشروع .

وقد وصفت الآية الكافرين بالظلم ، لأنهم ظلموا الحق فأنكروه ، ولم يصدقوا به ، وظلموا أنفسهم لأنهم ساروا في طريق أدى بهم إلى الهلاك . ولم يكتفوا بذلك بل ظلموا الناس أيضاً حيث صدوهم عن طريق الهدى وفتنهم ، وحالوا بينهم وبين الإيمان ، بل وزينوا لهم الباطل حتى أقنعوهم به ، وقادوهم إليه ، وحرموهم من خير عظيم في الدنيا والآخرة ، وحرموهم من الطمأنينة والسكينة . حينما قرأ عطاء بن دينار هذه الآية قال : الحمد لله الذي قال : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

يلاحظ أن في هذا النداء العظيم إشارات متعددة منها :

١- الإنفاق لدفع رذيلة البخل عمّن ظلم نفسه بهذه الصفة الذميمة ، ومنع العطاء عن المستحقين مما سبب حرمانهم من ثواب الإنفاق ورضوان الله . فصاحب المال ليس حراً في غلّ يده فيه كيف يشاء ، أو في الإنفاق منه كما يشاء . فاليد المغلولة كاليد المسرفة كلتاها لا

يقبلهما الإسلام، لما في كليهما من ضرر عائد على النفس وعلى الجماعة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾_الإسراء/ ٢٩_ . فللفرد في الإسلام أن يتمتع في الحدود المشروعة. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾_الأعراف/ ٣١_.

٢- دعوة لأداء أحد أركان العبادات المفروضة، وهي العبادة المالية، إلى جانب دعوة اجتماعية ونفسية، لأنّ في الإنفاق تحرر من استدلال المال لصاحبه، وانفلات من ربطة الشح التي يحث عليها الشيطان ﴿الشيطان يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾_البقرة/ ٢٦٨_ . كما في النداء دعوة لإعلاء حقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية، فيتحقق التكافل بين الناس .

هذا الإنفاق في سبيل الله «يشمل في رأي ابن جريج وسعيد بن جبير؛ الزكاة المفروضة، والتطوع، والمستحبة . قال ابن عطية: وهذا صحيح، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال، وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين، يترجح منه أن هذا النذب إنما هو في سبيل الله، ويقوّي ذلك في آخر الآية قوله ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال . . . والآية عموماً تأمر بإنفاق المال في وجوه الخير سواء أكان بطريق الزكاة أم الصدقات، فلكل ثوابه العظيم يوم الآخرة. وفيه تحقيق التضامن والتكافل بين أبناء الأمة الواحدة، بل إنه السبيل الواجب للحفاظ على عزة الأمة ومكانتها وهيبته، واسترداد حقوقها المغتصبة، وصون كرامتها وحرمتها وديارها. فمن يقصر في ذلك وهو من الأغنياء القادرين على الإنفاق، كان سبباً في تدمير أمتة وإذلالها. إذ لا بقاء، ولا حياة، ولا سعادة للأغنياء أنفسهم، إذا فتك الثالث المخيف (المرض والفقر والجهل) في بقية أفراد الأمة .»^(١).

٣- بيان العدل الاجتماعي الإنساني الشامل في الإسلام . فالإنفاق ليس للزكاة

(١) التفسير المنير: ج ٣، ص ١٢.

المفروضة فقط ، وليس لكبح عادة البخل الذميمة ، وإنما الإنفاق أيضاً للجهاد_ كما ذكرنا_
ولتحقيق متطلبات الدولة في تأكيد وحدتها وصون حدودها ، ولتحقيق الرحمة والبر
والتكافل الاجتماعي الشامل بين القادرين والعاجزين ، بين الأغنياء والفقراء ، بين الفرد
والجماعة ، بين جميع الناس . والواقع التاريخي للمسلمين حافل بكثير من هذا الشعور
النبيل . ويكفي أن نتذكر يوم وردت غير لعثمان بن عفان رضي الله عنه قبل توليه الخلافة ،
وذلك في وقت الجذب بأرض المسلمين ، فإذا هي ألف بعير موسوقة برأ وزيتاً وزيبياً ، فيجيئه
التجار ويعرضوا عليه ربحاً وفيراً ، فيقول : أُعطيْتُ أكثر من هذا . وحين سألوه عمن
أعطاه . قال : إن الله أعطانني بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة؟ فيقولون : لا . فيُشهدُ اللهَ
على أن العير وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين .

النداء الثامن: بِسْمِ اللَّهِ الرَّجْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثْلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

__البقرة/ ٢٦٤__

لما كانت النفوس مجبولة على حب الثناء والتقدير ، وكثيراً ما يجحد الإنسان الجميل وينكر الإحسان ، مما قد يحمل بعض الناس على التحدث بصدقاتهم والتنديد بمنكري الجميل . من أجل ما يصدر من قبل بعض الناس الذين لا يدركون حقيقة الصدقة ومعانيها السامية . حذر الله تعالى المؤمنين بصورة خاصة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ أي إذا تصدقتم بصدقة على إنسان ما ، ثم أنستم منه نكراناً أو جحوداً لها ، أو أصابكم منه شرّ فيما بعد _ وهو كثيراً ما يحدث _ فحذار أن تتأثروا من ذلك وتندموا على ما صنعتم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك " ^(١) . هذا إذا كان المتصدق عليه قد أساء ، فكيف إن كان لم يسيئ .

ولتوضيح الصورة عرض الله _ سبحانه _ لنا في هذه الآية والتي تليها مشهداً مؤثفاً من منظرين متقابلين شكلاً ووضعاً وثمره . وفي كل منظر جزئيات ، يتسق بعضها مع بعض من ناحية فن الرسم وفن العرض ، ويتسق كذلك مع ما يمثله من المشاعر والمعاني التي ترسم

(١) أخرجه أحمد ، وابن عساكر ، عن الشعبي ، عن عيسى بن مريم . _ الدر المنثور للسيوطي _ .

المنظر كله لتمثيلها وتشخيصها وإحيائها .

ففي المشهد الأول نرى قلباً صليداً ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ ليظهر نفسه بمظهر المحسن العامل من أجل مرضاة الله ﴿ و ﴾ الحال أنه في الواقع ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فهو لا يستشعر نداوة الإيمان وبشاشته ، لأنه يغطي هذه الصلادة بغشاء من الرياء . « وهذا القلب المغشى بالرياء ﴿ قَمَثْلُهُ ﴾ أي مثل الذي ينفق ماله رياء الناس ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ وهو الحجر الذي لا خصب فيه ولا ليونة ، أو العريض الأملس ، يغطيه تراب خفيف يحجب صلادته عن العين ، يحسبه من ينظر إليه أنه صالح للزراعة ، كما الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان ﴿ فَأَصَابَهُ وَاِبِلٌ ﴾ أي مطر غزير أذهب التراب القليل الذي على سطحه ، فانكشف الحجر بجذبه وقساوته ، ولم ينبت زرعة ، ولم يثمر ثمرة ، ﴿ فَتَرَكَهُ ﴾ أي ترك الوابل الصفوان ﴿ صَلْدًا ﴾ حيث رجع إلى أصله أملس لا تراب عليه ، فتفر الناس منه لأنه لا أمل لهم في الاستفادة منه . وهكذا يكشف المن والأذى عن حقيقة نوايا المتصدقين المرائين . وكل أولئك ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ﴾ حفظ ﴿ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي ما قدموا من الصدقات التي يجرفها المن والأذى ، كما يجرف الوابل التراب من فوق الصنوان دون أن تكون لديه القدرة على الاحتفاظ بشيء منه . ﴿ وَاللَّهُ ﴾ في نظامه ودستوره الكوني ﴿ لَا يَهْدِي ﴾ إلى هذه الحقائق ﴿ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ بأنعم الله ، فلا يؤمنون بأن أساس المال الذي تصدقوا به إنما هو من محض كرم الله ، فما كان لهم أن يمتنوا إذا تصدقوا بشيء منه على الفقراء من عباده ، بمعنى يدعهم في ضلالهم يعمهون» ^(١) .

المشهد الثاني ؛ تضمنته الآية التالية ، وهو مشهد الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله دون أن يتبعوا ذلك بالمن والأذى بتربة صالحة للزرع ، كثيرة الفوائد ، عظيمة الأشجار ، رفيعة المكان ، تنتج الكثير . وشبه عمل المنفق أمواله ابتغاء مرضاة الله بجثة بربرة ، لينبه إلى وجود فارق بين المرائي والمتان من حيث وقع المصيبة عليه وتأثيرها في نفسه ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ

(١) تفسير الخطيب المكي، ج ٣ ص ١٨ .

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ ﴿١﴾ .

ذكر الدكتور وهبة الزحيلي في أحكام هذا النداء ما يلي :

«١- الإنفاق في سبيل الله دون مَنْ ولا أذى سبب لرضوان الله ، كما رضي الله ورسوله عن عثمان الذي جهّز جيش العسرة ، وجاء بألف دينار ووضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما ضَرَّ ابن عفَّان ما عمل بعد اليوم ، اللهم لا تنسَ هذا اليوم لعثمان" ^(١) . وهذا الرضا الإلهي والثواب العظيم إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه متاً ولا أذى ، لأنَّ المنّ والأذى مبطّان لثواب الصدقة . . . وإنما على المرء أن يريد وجه الله وثوابه بإنفاقه على المنفق عليه ، ولا يرجو منه شيئاً . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ - الإنسان / ٩- ومن طلب بعطائه الجزاء والشكر والثناء ، كان صاحب سمعة ورياء .

٢- المنّ من الكبائر . والمنّ ؛ ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها ، مثل أن يقول : قد أحسنت إليك ، ونحوه . وقال بعضهم : المنّ ؛ التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه . ودليل كونه من الكبائر ؛ ما ثبت في صحيح مسلم وغيره ، وأنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وروى النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجّلة تشبّه بالرجال ، والديوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمثان بما أعطى" . وروى القسم الأخير أيضاً ابن مردويه وابن حبان والحاكم في مستدرّكه . أما الأذى فهو السبّ والتشكي ، وهو أعمّ من المنّ ، لأنَّ المنّ جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه . والمنّ والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها ؛ وهو تخفيف بؤس المحتاجين ، ودفع غائلة الفقر عنهم .

(١) ذكره الترمذي برقم : ٣٧٨٥ .

٣- لا تقبل الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمين ويؤذي بها . أما صدقاته الأخرى التي لم يمين بها فهي مقبولة . ويقتصر الأمر على حرمان المرائي والمنان من الانتفاع بصدقته المشتملة على الرياء أو المن .

٤- صاحب المن والأذى مثل المرائي المنافق ، عمل كل منهما باطل لا فضل له فيه . وتعد أفعال المرائي الواجبة أو الخيرية من صلاة وصيام وتطوع كلها باطلة ، لاتجاه قلبه إلى من يرائيه . . وفي قوله تعالى : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا ﴾ تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من صفات الكافرين لا المؤمنين . فلا ينبغي للمؤمنين الاتصاف بها ، وعليهم تجنبها ، لأن الإخلاص لله هو من صفات الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ _ البينة / ٥ - « ^(١) .

(١) التفسير المنير، ج ٣ ص ٤٩ و ٥٠ .

النداء التاسع : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

البقرة/ ٢٦٧

لقد تضمن المنهج الإسلامي كثيراً من الحقائق اللازمة لتربية النفس الإنسانية ، ومن هذه الحقائق :

١- اعتبار الأموال وما في الأرض من ثمار وزروع ومعادن وغيرها ، وما في السماء من طيور وغيرها . . ملكاً لله وحده ، كما دلت على ذلك آيات كثيرة منها : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ _البقرة/ ١٨٤_ .

٢- كل ما في الكون سخره الله تعالى لخدمة بني آدم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ _لقمان/ ٢٠_ .

٣- «المال وسيلة لا غاية ، به يتعامل الناس وينفع بعضهم بعضاً ، وهو خير إن استعمل وسيلة للخير ، وإلا كان شراً يؤدي إلى ضرر الناس . أما أنه خير فذلك حين يكون وسيلة إلى التراحم وسد حاجة البائسين ، وإقامة المجتمع على أسس متينة من التعاون والتساند . ويقول الله تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ _العاديات/ ٨_ . وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن الخير المقصود هنا هو المال . . .

٤- وإذا كان المال وسيلة إلى الخير كان على الناس أن يسعوا إلى تحصيله ، فالفقر مرض من الأمراض الاجتماعية ، وليس قدراً من السماء يجب أن يخضع له الإنسان من

غير أن يقابله بالسعي والعمل ، ولذلك جاء التعبير في الحديث عن الفقر بأروع ما يمكن أن يدلل على نفرة الشريعة الإسلامية منه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : " كاد الفقر أن يكون كفراً " ^(١) . وهذه حقيقة أثبتها القرآن ، وأيدتها التجارب . فالله _ سبحانه _ قد شرع التعاون بين بني الإنسان بقوله : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ ، وسنَّ لهم سبيلاً يمتلك به الغني قلب الفقير ، والقوي قلب الضعيف ، ويحمّله على حبه وتضحية كل شيء من أجله ، ليتم بذلك تبادل الألفة ، وينتشر السلام ، ويعم الرخاء . ذلك هو الإحسان . وقد قيل : الإنسان عبد الإحسان . والله الذي خلق الإنسان وأنعم عليه بوافر النعم أمره بالإحسان في كل شيء ، ومع كل الناس ، حيث قال : ﴿ وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ _ القصص / ٧٧ _ . و عدَّ الله _ سبحانه وتعالى _ من أبرز صفات المحسنين أنهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ _ المعارج / ٢٥ _ . و حث الرسول صلى الله عليه وسلم على البذل والإحسان ، ومن ذلك قوله : " إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ . وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ . وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ " ^(٢) . والحض على الإنفاق يتناول جميع أوجه البر وعون كل محتاج ، وجاء في مواطن كثيرة من القرآن ، منها هذا النداء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ من الأموال التي وصلت إلى أيديكم من حلال طيب ، في كل زمان ، وفي كل وقت وجيل ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ من زروع وثمار ومعادن وبترول وغيرها ، وإن تعبتم في استخراج هذه الثمار والزروع والمعادن في الظاهر ، لأنَّ المرء إذا أراد أن يهدي إلى آخر شيئاً فهو يحرص على إهدائه ما يستجلب رضاه . والصدقة على الفقير إنما يقصد منها رضا الله فيجب أن تكون مما يسر به الأخذ لها . فالنص إذن يستوعب جميع أنواع المال ، ما كان

(١) انظر : الأحوال الشخصية في الأهلية والوصية والتركات ، ص ٥٠٣ - ٥٢٠ .

(٢) انظر ص ٤٢ ، ح ٢ .

معهوداً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وما يستجد ، وكله مما يوجب النص فيه الزكاة . أما المقادير فقد بينتها السنة الشريفة في أنواع الأموال التي كانت معروفة حينذاك ، وعليها يقاس ، وبها يلحق ما يجد من أنواع الأموال .

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ لا تقصدوا التصدق بالرديء . ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ ﴾ فالواقع أنكم لا تأخذون ذلك الخبيث إذا قدم إليكم ﴿ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ لحاجتكم إليه فتسأهلوها في أخذه على مضض منكم . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ﴾ الذي تقتربون إليه بتلك الصدقات ﴿ غَنِيٌّ ﴾ عن عطاء الناس إطلاقاً ، وليس بحاجة إلى أموالكم حتى يتساهل في قبول الرديء منكم . وما تبدلونه من عطاء إنما هو لأنفسكم ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ ﴾ ، وما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ _ البقرة / ٢٧١ _ .

فالإنفاق لم يشرع إلا للصالح العام ، إذ أنه يحول دون حقد الفقراء على الأغنياء ، وبدونه ربما اضطرت الحاجة الفقراء إلى السلب والنهب وتعكير صفو الأمن . وأنتم بمساعدتكم الفقراء إنما تقصدون وجه الله الذي سيثيبكم عليه في الدنيا والآخرة . أما إذا بخلتم خوف الفقر فاعلموا أن ذلك من وسوسة الشيطان ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ، والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً _ البقرة / ٢٨٦ _ . فابذلوا إذاً المال طيباً ، وبنفس طيبة ، وستجدون أن الله ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يقدر قيمة الطيبات التي تبدلونها ، ويجزي عليها بالحسنى ، وهو الذي أعطاكم إياها من قبل . فأَيُّ تربية للقلوب بهذا الأسلوب القرآني العجيب !

فالنداء يرشد إلى التالي : « ١ - وجوب اختيار الطيب الجيد من مكاسب الأموال عند إنفاقها في سبيل الله ، سواء أكانت من الزكوات الواجبة ، أم من الصدقات المندوبة ، لأن القصد هو التقرب إلى الله تعالى ، وادّخار الثواب على فعل الخير ، وذلك لا يتحقق إلا بجياد الأموال وأطيبها .

٢- الآية خطاب لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم . . وهي عامة تشمل الزكاة والصدقة ، لكن الزكاة الأمر فيها على الوجوب ، ومخصوصة بالقدر المفروض . وأما التطوع فالأمر فيه على الندب ، وليس مخصوصاً بقدر معين ، فيجوز بالقليل وبالكثير ، لكن يختار الجيد ، وليس القصد هو الممتاز ، فهو الأولى ، ولكن الحد الأدنى المطلوب هو الوسط ، كما قرّر الفقهاء في الزكاة .

٣- دلّت الآية على أن للوالد أن يأكل من كسب ولده ، ولما روي عن النبي قوله :
" أولادكم من طيب أكسابكم ، فكلوا من أموال أولادكم هنيئاً"^(١) .

٤- يلاحظ أن الآيات التي تطالب بالإنفاق تختتم عادة بقوله تعالى : ﴿والله واسع عليم﴾ أو بقوله : ﴿والله غني حميد﴾ وذلك يرشدنا إلى أن النفقة جزء مما أنعم الله به من رزق على العباد . وأنه تعالى سيجزيهم بها ، ويضاعفها لهم أضعافاً كثيرة . كما يرشدنا إلى أن القصد هو اختبار الناس ، فالله لا يأمرهم بالصدقة العوز ، وإنما حال السعة واليسر ، فكل إنسان مكلف حسب طاقته وقدرته على الإنفاق"^(٢) .

(١) رواه ابن خوز، وذكر في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي برقم : ٣/٩٠ .

(٢) التفسير المنير، ج ٣ ص ٦٠ و ٦١ .

النداء العاشر : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

البقرة / ٢٧٨ و ٢٧٩ _

نداء الله الذي يعلّق إيمان الذين آمنوا على ترك التعامل بالربا ، ولو أعلنوا أنهم مؤمنون . إذ لا إيمان بغير طاعة وانقياد لأوامر الله ، وقد جاءت كلمة (ذروا) بصيغة الأمر ، أي اتركوا الربا . فما هو الربا ؟

الربا في اللغة ؛ الزيادة . والربا شرعا ؛ (كل زيادة بين بدلين من جنس واحد ، بشرط أن يكون نقداً أو مطعوماً) . ويندرج تحت هذا التعريف نوعان :

- النوع الأول : ربا النسيئة ؛ وهو كل زيادة يؤديها المدين إلى الدائن على رأس المال المستحق ، نظير مدة معلومة من الزمن أجله إليها . فقد قال عنه قتادة : (إن ربا الجاهلية أن يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حلّ الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء ، زاده ، وأخر عنه) . وقال أبو بكر الجصاص : (ربا الجاهلية ؛ إنما كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة ، فكانت الزيادة بدلاً من الأجل ، فأبطله الله تعالى) . وهذا النوع نرى الربا ظاهراً فيه ، إذ تتوافر فيه العناصر الأساسية لكل عملية ربوية ، وهي ؛ الزيادة على أصل المال ، والأجل الذي من أجله تؤدى هذه الزيادة ، وكون هذه الفائدة شرطاً مضموناً في التعاقد ، أي في ولادة المال للمال بسبب المدة ليس إلا .

- النوع الثاني : ربا الفضل ؛ وهو تبادل مطعومين أو نقدين من جنس واحد ، مع زيادة

أحد البدلين على الآخر، كمبادلة مد قمح بمد ونصف منه . ودليل تحريمه ما جاء عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ ، مِثْلًا بِمِثْلٍ ، وَيَدًا بِيَدٍ فَمَنْ زَادَ أَوْ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرَبَى ، الْآخِذُ وَالْمُعْطِي سَوَاءٌ ." (١).

وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : جاء بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني ، فقال له النبي : من أين هذا ؟ قال : كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع ، فقال : "أَوْه ، أَوْه ، عَيْنُ الرَّبَا ، عَيْنُ الرَّبَا ، لَا تَفْعَلْ ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْرَ بِيَعٍ آخِرَ ثَمٍّ اشْتَرِ بِهِ بَدْلَهُ ." (٢) . وهذا النوع فيه فروق أساسية في الشيئين المتماثلين ، هي التي تقتضي الزيادة ، ولكن لأن هناك تماثل النوعين في الجنس يخلق الشبهة أن هناك عملية ربوية فقد وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بالربا ونهى عنه . وأمر ببيع الصنف المراد استبداله بالنقد ، ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضاً ، إبعاداً لشبح الربا ، وكذلك شرط القبض (يداً بيد) « فلو باع خمسة أذرع من قماش معين بستة أذرع منه ، أو بيضة ببيضتين ، جاز بشرط التقايض في المجلس ، فإذا كان أحدهما نسيئة لم يجز البيع ، لأن وجود الجنس فقط كافٍ لتحريم ربا النساء ، أي تأجيل أحد البدلين . . » (٣)

ويرى بعض العلماء أن الحكمة في تحريم النوع الثاني ليست إلا سد الطريق أمام إمكان التوصل إلى الاستخفاف بربا النسيئة ثم الوقوع فيه . إذ من المحتمل بعد ممارسة ربا الفضل أن تنشأ من ذلك عقلية تسبغ ربا النسيئة وتدافع عنه . لذا حرّم هذا الربا سداً للذريعة .

وقد أجمع الأئمة الأربعة على أن الحرمة غير مقصورة على هذه الأشياء الستة

(١) صحيح مسلم : ٨٢ / ١٥٨٤ . ورواه البخاري أيضاً .

(٢) صحيح البخاري ٢١٨٨ . ومسلم ١٥٩٤ .

(٣) الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد ، د . وهبة الزحيلي ، ص ٣٨٢ .

المذكورة في الحديث ، بل تعداها إلى غيرها ، وأن الحرمة ثبتت في هذه السنة لعلّة ، فتعدّى الحرمة إلى كل ما توجد فيه العلّة . لذا بعد أن أشار الله تعالى إلى ما يصيب أكل الربا قال : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ _ البقرة / ٢٧٥ _ . وبذلك تجنّب الإسلام إحداث هزّة اقتصادية واجتماعيّة ضخمة ، إذ لم يجعل لتشريع أثرًا رجعيًا . وهذا أسلوب الترغيب . بعد ذلك قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في أموالكم ، واحذروا أن تدخلوا على أنفسكم شيئاً من الربا الذي حرّمه الله عليكم ، ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أي اتركوا ما بقي لكم عند الناس من زيادة قد اتفقت عليها مقابل تأجيل السداد عن المدة الماضية ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متصفين بالإيمان الذي يجعل الإنسان منقاداً لأوامر الله أي إن كنتم عاملين بمقتضى إيمانكم . ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أمرتكم به من تقوى الله وترك ما بقي من الربا ، فإنكم تكونون مبارزين لله بالعداء بعملكم هذا ، لذا ﴿ فَأَذْنَوْا بحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي خذوا علماً بأنكم أصبحتم في حالة حرب مع الله ورسوله المنفذ لأوامره ، واستعدّوا لحملاته التي ستوجّه إليكم ، وانتظروا ما سيحلّ بكم _ ولو بعد حين _ لأن الله في حربه يمهّل ولا يمهّل ، وهو شديد الانتقام .

وهكذا رأينا بعد أسلوب الترغيب ترهيباً لمن لم يمثل لأمر الله ، ليتذكر الإنسان ضعفه أمام القوة الإلهية ، فالإيذان بالحرب من الله ورسوله أهم من قتال السيف والمدفع . إنها حرب فعلية على كل فرد يتعامل بالربا ، بل على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه . ﴿ وَإِنْ تَبُتُّمْ ﴾ عن الربا وصرفتم النظر عما بقي لكم عند الناس من زيادة ﴿ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ التي دفعتموها للمدينين ﴿ لَا تَظْلَمُونَ ﴾ المحتاجين بأخذ أموالهم بغير عوض ﴿ وَلَا تَظْلَمُونَ ﴾ من قبلهم بالمطل أو باحتساب ما دفعوه لكم من زيادة سابقة من أساس رأس المال .

كثير من الناس _ وهم مؤمنون _ يجادلون في عصرنا في موضوع الربا ، بغية النفاذ إلى ارتكابه ، بحجة الضرورة الملجئة ، دون النظر إلى الحكمة الإلهية من تحريم الربا . لذا

أفضت بالحديث ، وسأضيف بيان بعض جوانب الحكمة من تحريمه ، والتي اتفق عليها العلماء ، علماً بأنني أشرت أكثر من مرة إلى أن الأمر الإلهي واجب التنفيذ ولو لم ندرك الحكمة :

١- عدم انسجام الربا مع قاعدة الكسب الحلال ، لأن الربح محدد في كل حالة ، ولا يقوم على التقابل بين الجهد والثمرة . فحيثما ينعدم العمل أو الجهد ينعدم حق الثمرة أو الأجر .

٢- المال لا يولد المال ، وإنما يولد المال العمل والجهد ، وهذا يجعل قيمة النقد مرتبطة بمنافع الإنسان ، وهذا ما يوجب التوازن في الكم بين النقد وبين المنافع ، بحيث لا تزداد القيمة في جانب إلا لازدياد ظاهرة النفع هناك .

٣- انهيار الاقتصاد بسبب تلکؤ الدائن عن العمل وخلوده إلى الكسل طمعاً في ربح الفائدة ، وإرهاق المدين بالتزامات ومضاعفة الإنتاج .

٤ - انعدام التعاون بين أفراد المجتمع ، مما يؤدي إلى تفسخ المجتمع وشيوع الأنانية والأثرة .

٥- وجود طبقتين متنازعتين في المجتمع ؛ طبقة المتحكمين برؤوس أموالهم ، وطبقة المحكومين المغصوبة جهودهم وإنتاجهم .

٦- لا يرى الإسلام مانعاً من إيجاد الانسجام بين مصلحتي المقرض والمستقرض تمثيلاً مع رغبة الإنسان في الاستفادة من ماله ، لا على أساس الاستغلال وامتصاص الجهود ، وإنما على أساس التعاون في العمليات التجارية القابلة للربح والخسارة ويتجلى فيها أثر المهارة الشخصية والظروف الطبيعية . فتنمية المال لها وسائلها البريئة ، لها وسيلة الجهد الفردي ، ووسيلة المشاركة كما في طريقة المضاربة التي يتعاون فيها الدائن بما يقدم من أموال ، والمدين بما يقدم من عمل وإنتاج . ويشترط الأول على الثاني أخذ نسبة من الربح . .

« دلت الآية بإطلاقها عن التقييد بربا النسبة على تحريم كل من ربا النسبة الجاهلي ،

وربا الفضل أيضاً بسبب الزيادة . ويحرم أيضاً الصلح على خمسمائة حالة (معجلة) مثلاً مع من عليه ألف مؤجلة ، فإن هذا في معنى ربا الجاهلية الذي كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة فكانت الزيادة عوضاً عن الأجل ، وفي مسألة الصلح انتفع المدين بباقي الدين مقابل إسقاط الأجل ، فيصبح منتفعاً بزيادة (فضل) من المال بدون عوض مالي . . ولا فرق في تحريم الربا بين ما يسمى بالقروض الإنتاجية ، والقروض الاستهلاكية ، إذ لا يجوز الاقتراض بفائدة إلا لضرورة قصوى ، وهي الحال التي يغلب على الظن فيها الوقوع في الهلاك أو التسيب في الشارع ، ونحو ذلك من الحالات النادرة التي لا تنطبق على ما يدعيه أصحاب المعامل والمحلات التجارية من ضرورات ، وهم يقصدون بذلك إما توسيع دائرة العمل والنشاط ، أو دعم المصنع بآلات حديثة مثلاً . وكل هذه المزاем لا تدخل في دائرة الضرورة بحسب ضوابطها الشرعية ، ولا تحلّ الحرام القطعي التحريم . .»^(١) .

(١) التفسير المنير، ج ٣، ص ٩٥ و ١٠٠ .

النداء الحادي عشر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَلْيَهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿

—البقرة/ ٢٨٢—

نداء خاص بالمعاملات جاء بعد تحذير الناس من تعاطي الربا، وحضهم على التقوى بين حالة المداينة الواقعة في المعاوَضات الجارية فيما بينهم بيع السلع بالدين المؤجل، بطريقة تحفظ الأموال وتصورونها من الضياع، فأجمل ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ يا مَنْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَبِهِمُّكُمْ مَعْرِفَةَ حُكْمِهِ فِي هَذَا الْبَابِ؛ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَتَعَامَلْتُمْ نَسِيئَةً بِمَا يَصِحُّ فِيهِ الْأَجَلُ، كَبَيْعِ سَلْعَةٍ وَاحِدَةٍ بِنَقُودٍ مُؤَجَّلَةٍ، أَوْ بِسَلْعَةٍ أُخْرَى مُؤَجَّلَةٍ، وَكَبَيْعِ سَلْعَةٍ مُؤَجَّلَةٍ—أَيَّ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى—مَعَ مَعْرِفَةِ الْجِنْسِ وَالنَّوْعِ وَالْقَدْرِ—بِشَمَنِ حَالٍ—وَهُوَ

السَّلَم^(١). أي إذا تعاملتم إلى أجل معلوم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ بينكم ، ولا تتصوروا أن في هذه الكتابة ما يقلل من أجر القرض عند الله ، وأن التساهل مما يزيد في ثوابه . فهذا مبدأ عام من الواجب اتباعه ، وغير متروك للاختيار في حال الدين إلى أجل .

ثم أراد _ سبحانه _ أن يبين كيفية الكتابة ، ويعين من يتولاها فقال : ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وهذا تعيين للشخص الذي يقوم بكتابة صيغة العقد ، فهو كاتب مختص بتوثيق العقود ، موصوف بالعدل ، وليس أحد المتعاقدين . ولا تكتفوا بكتابة هذه العقود بينكم وبين أنفسكم ، لما يخشى من ترككم لبعض أمور تجهلونها ، وهي ضرورة لصحة العقد أو لصيانة المال من الضياع . ثم أوصى الكاتب ونهاه عن الإباء : ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ فمن آتاه الله العلم بالكتابة والأحكام الشرعية والشروط المرعية والاصطلاحات العرفية ألا يضمن بمعلوماته أو يمتنع عن الكتابة ، فالتكليف هنا من الله وبنص التشريع . وعمله هذا فيه وفاء لفضل الله عليه إذ علمه كيف يكتب ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ بما لديه من معلومات من الله عليه بها .

(١) السلم أو السلف : هو بيع يتقدم فيه رأس المال ، ويتأخر المثلن لأجل . . ويشترط فيه ما يشترط في البيع ويزاد فيه شرائط خاصة اتفق عليها أئمة المذاهب : أن يكون في جنس معلوم (كأن يبين أنه حنطة أو شعير أو نحوهما) بصفة معلومة (كأن يقال : حنطة جيدة أو رديئة أو وسط) ومقدار معلوم (بالكيل أو الوزن أو الذرع) وأجل معلوم (لقوله تعالى : ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . .﴾ ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم " _ أخرجه مسلم/ ١٦٠٤ باب السلم . وبقية الأئمة الستة في كتبهم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والستين والثلاث فقال : الحديث ، وهو مذكور في جامع الأصول : ٢/ ١٧٠ .) كما يشترط معرفة مقدار رأس المال ، وتسمية مكان التسليم إذا كان لحمله نفقة . واتفقوا أيضاً على جواز السلم في المكيلات والموزونات والمزروعات . أما ركن السلم فهو : الإيجاب والقبول . والإيجاب هو لفظ السلم والسلف والبيع . والسلم مشروع في الكتاب والسنة وإجماع الأمة . . أنظر التفصيل في كتاب : الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد ، للدكتور وهبة الزحيلي ، ص ٣٣٣-٣٧٠ .

بعد أن بين الله تعالى ضرورة الكتابة ، ومن يتولّاها ، ومن تكليفه بأن يكتب ، ومع التكليف ذلك التذكير بنعمة الله عليه ، وذلك بأن يلتزم العدل . انتقل إلى فقرة أخرى يبيّن فيها كيفية الكتابة : ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ أي وعلى المدين أن يعترف أمام الكاتب بالعدل بالدين ومقداره ، والموعد الذي تعهد بالسداد فيه ، وما يترتب على الإخلال بشرط من شروط العقد المتفق عليها ، وذلك خيفة أن يقع الغبن على المدين لو أملى الدائن . وفي الوقت ذاته يناشد ضمير المدين وهو يملّي : ﴿ وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ للمبالغة في التحذير من الخيانة التي تغضب الله فلا ينوي فيه عدم السداد ﴿ وَلَا يَخْسُ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ كأن يختصره ، أو يوهم فيه ، أو يتناسى شيئاً من الدين الذي يقرّبه ، ولا من سائر أركان الإقرار الأخرى . ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً ﴾ ناقص العقل ، مبذراً في ماله لا يصلح للتعامل معه ﴿ أَوْ ضَعِيفاً ﴾ في العقل كالصبي والمجنون ، أو في الذاكرة كالشيخ الهرم ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ ﴾ إما لجهله أو لعي أو آفة في لسانه ، أو لأي سبب حسي أو عقلي ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ ﴾ الذي يتولّى أموره ، أو من له عليه حق القوامة شرعاً ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ بما يضمن مصلحة الجانبين ولا يضر أحد الطرفين .

ثم ينتقل إلى نقطة ثالثة ، يرشد الله تعالى فيها المتدائنين إلى ما يفيد في ضبط الوقائع وحفظ الأموال ، وهي الشهادة ، فيقول : ﴿ وَاسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ فلا تكتفوا بمجرد الإقرار بذلك أمام الكاتب بالعدل ، بل اطلبوا للشهادة على أنفسكم بما تضمنه عقد الدين شاهدين فأكثر ، من المؤمنين البالغين الأحرار ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ ﴾ لظروف معينة قد لا تجعل وجود شاهدين أمراً ميسوراً ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ فلا بأس في هذه الحالة من الاكتفاء باستشهاد رجل واحد وامرأتين ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ والرضى يشمل معنيين ؛ الأول أن يكون الشاهدان عدلين مرضيين في الجماعة ، والثاني أن يرضى بشهادتهما طرفا التعاقد . والشارع إنما دعا الرجل للشهادة لأنهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة في المجتمع الإسلامي الذي لا تحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش فتجور بذلك على أمومتها

وأنوَّثتها، وواجبها في رعاية الطفولة الناشئة . وهنا أراد الشارع أيضاً أن لا يخرج إحساس المرأة فيبين السبب في قيام المرأتين مقام الشاهد الثاني، فقال: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي كل واحدة منهما تذكّر صاحبتها إن أخطأت أو نسيت شرطاً من الشروط التي حصل عليها الاتفاق، لما قد ينتاب المرأة من آلام الحمل والوضع وشؤون الأطفال التي من شأنها أن تسبب النسيان في الوقت الذي تحتاج فيه المعاملات إلى تجرد كبير من الانفعال وإلى وقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إحياء .

وكما وجه الخطاب في أوّل النداء إلى الكتاب ألا يآبوا، يوجهه هنا إلى الشهود ألا يآبوا ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ فليس من حقهم رفض تحمّل الشهادة وأداءها حرصاً على عدم إضاعة الحقوق بين الناس .

ثم ينتقل الشارع إلى غرض عام للتشريع، وهو ضرورة الكتابة _ كبر الدين أم صغر _ ويعالج ما قد يخطر للنفس من استثقال الكتابة وتكاليفها بحجة أن الدين صغير لا يستحق، أو أنه لا ضرورة للكتابة بين صاحبيه للملابسة من الملابس كالجمال والحياء، أو الكسل وقلة المبالاة، ثم يعلّل تشديده في وجوب الكتابة تعليلاً وجدانياً وتعليلاً علمياً: ﴿وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ فمهما بلغ الدين من قلة القيمة أو الكثرة لا تتكاسلوا عن كتابة موعد السداد، فمن لا يحرص على حفظ القليل لا يهتم بصيانة الكثير، ومن قصد الوفاء حرص على تحديد الميعاد والوقت الذي يغلب في يقينه القدرة على السداد فيه .

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعدل عند الله، فإنه يعين المدين على سداد الحق المطلوب منه متى علم منه صدق نيته على الوفاء، كما ثبت في الحديث: "من أخذ أموال الناس يريد سدادها، سدد الله عنه دينه"، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله" ^(١). ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ فإنه يعين الشهود على تحملها وأدائها كما ينبغي . ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ فإنه لا

(١) صحيح البخاري: ٢٢٥٧ .

يجعل محللاً للنسيان ، ولا يترك منفذاً للشك مع وجود الشهود فيما إذا حدث خلاف بين المتدائنين . وهكذا تتكشف حكمة هذه الإجراءات كلها ، ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع ، ودقة أهدافه ، وصحة إجراءاته . إنها الصحة والدقة والثقة والطمأنينة ، ذلك شأن الدين المسمى إلى أجل . ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ المعاملة التي بينكم ﴿تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ لا تأجيل فيها ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ بأن يأخذ المشتري المبيع ، والبائع الثمن في الحال ، فلا حرج في هذه الحالة من ترك كتابتها ، لأنه لا يخشى في ذلك من تولد الارتياح المؤدي إلى التنازع والخصام وما وراء ذلك من المفساد . ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي وإنما يلزمكم في التجارة الحاضرة مجرد الإشهاد دون الكتابة لإتمام صفقة البيع شرعاً ليعلم مصدر السلعة فلا يدعي آخر ملكيتها ، فيتهم مشتريها بالسرقة ، وذلك ضماناً لصيانة الحقوق وسلامة التعامل من الاشتباه .

بعد أن انتهى تشريع الدين المسمى ، والتجارة الحاضرة ، فإنه يقرر حقوق الكتاب والشهداء ، كما أوجب عليهم ألا يأبوا الكتابة أو الشهادة ، فالآن يوجب لهم الحماية ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ بسبب أدائهما لواجب أمر الله به . لا ضرراً مادياً ولا معنوياً ، كأن يخاصم المدين والشاهد إذا هو أدى ما عليه من شهادة ، أو يحقد في قلبه على الكاتب لما وضعه من قيود تحول دون إفلاته من أداء الدين الذي التزم به ، ﴿وَأَنْ تَقْعَلُوا﴾ ما نهيتهم عنه من إضرار الكاتب أو الشاهد ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي خروج منكم عن شريعة الله تعالى ، وضرره حالٌ بكم حتماً لما يسببه من التقاطع بين الناس . فلا بد من تمتعهم بالضمانات التي تطمئنهم على أنفسهم وتشجعهم على أداء واجبهم . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بتحري الأهداف التي ترمي إليها أحكامه ، والعمل على تطبيق أوامره في جميع أعمالكم ومعاملاتكم بكل دقة . فمن ترك أمراً من أمور الشرع أحوجه الله إليه ، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ الحكمة بذلك وسداد الرأي ، ويهيبكم من النور ما يضيء لكم سبل الخير ، ويضمن لكم الفلاح والنجاح ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أما علوم غيره فمحدودة بالنسبة لعلمه تعالى

الكفيل بسلامة العواقب .

« قال ابن خويزمنداد : هذه الآية تضمنت ثلاثين حكماً منها ما يلي :

١ - استدللَّ بها بعض علماء المالكية على جواز التأجيل في القروض على ما قال مالك ، إذ لم يفصل بين القرض وسائر العقود في المداينات ، وخالف في ذلك الشافعية ، وقالوا : الآية ليس فيها جواز التأجيل في سائر الديون ، وإنما فيها الأمر بالإشهاد إذا كان ديناً مؤجلاً ، ثم يعلم بدلالة أخرى جواز التأجيل في الدين وامتناعه .

٢ - مشروعية تأجيل الديون ، لقوله تعالى : (بدين) . وحقيقة الدين ، عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً ، والآخر في الذمة نسيئة . فإنَّ العين عند العرب ما كان حاضراً ، والدين ما كان غائباً . وتشمل الآية كلاً من بيع العين بالدين كبيع كتاب حاضر بثمن مؤجل ، وبيع الدين بالعين وهو السلم . أما بيع العين بالعين كبيع سلعة حاضرة بنقد حاضر فهو جائز . وأما بيع الدين بالدين كبيع صاع من القمح في ذمة إنسان بصاعين من الشعير في ذمة إنسان آخر فهو باطل للنهي عنه .

٣ - دلَّ قوله ﴿إلى أجل مُسمًّى﴾ إلى أن السلم إلى الأجل المجهول غير جائز ، وأكدت السنة ذلك ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أَسْلَفَ فِي تَرْفِيسْلَفٍ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزَنَ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ " ^(١) ، وأجمع أهل العلم على مشروعية السلم . . . وهو مستثنى من نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع ما ليس عندك . . . وأرخص في السلم لحاجة الناس إليه ، وقد سماه الفقهاء : بيع المحاويج ، أو بيع المفاليس . . . » ^(٢) .

(١) صحيح مسلم : ١٦٠٤ / ، كما أخرجه البخاري وغيرهما عن ابن عباس .

(٢) التفسير المنير : ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ .

النداء الثاني عشر : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ _آل عمران/ ١٠٠_

في هذا النداء يذكر الله تعالى عباده الذين آمنوا بضرورة إقرار المنهج الإلهي في الأرض ، وتحقيقه بصورة عملية ، ويحذرهم من اتباع أو طاعة اليهود وحلفائهم من أهل الكتاب ، بما يزيّنونه من زخرف القول ، بهدف صدّهم عن المنهج الرباني ، ومستخدمين في ذلك سلاح الدين وسلاح الإعلام ، ونحن نرى كيف ملكوا بالدين عواطف الأمم ، واستطاعوا بالفكر المراءوغ الختال تزوير الحقائق وتزييف التاريخ . ورأينا كيف تسربت دعوات الصهيونية إلى نفوس الكثيرين من بني جلدتنا حتى أخذوا يقولون بأن إعادتهم إلى أرض فلسطين هي قضية إنسانية عادلة . وحرصاً من الله تعالى على عباده المؤمنين خاطبهم قائلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله ؛ لا يخدعنكم اليهود وحلفاؤهم بما تسمعون من دعوى الإيمان بالله ، وزعمهم التمسك بكتبهم السابقة فتولّوهم ثقتكم وتظنوا بهم خيراً ، واعلموا أنكم ﴿ إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ بالتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم تحملون معنى الهزيمة الداخلية عن دور القيادة البشرية الذي أنشئت من أجله الأمة المسلمة ، كما تحملون معنى الشك في كفاية المنهج لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها نحو طريق الحق والخير والفلاح . وهذا بذاته ديب الكفر في النفس ، وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب « إذ يستحيل أن تقلد مدينة أجنبية في مقاصدها العقلية والبدئية من غير إعجاب بروحها ، ومن المستحيل أن تعجب بروح مدينة مناهضة للتوجيه

الديني وتبقى مع ذلك مسلماً صحيحاً»^(١).

﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ من حيث لا تشعرون ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بالله ورسوله ﴿كَافِرِينَ﴾ جاحدين بسبب ما يدسونه في أحاديثهم من سموم الشرك والإلحاد والشبه في دين الله . فإياكم أن تصغوا إلى أقوالهم وتقعوا في شراكمهم . ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان واضح وجلي في آيات الله وسنة نبيه ، لذا قال تعالى بعد ذلك باستفهام تعجب وتوبيخ فيقول : ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ فآيات الله جليّة ، والرسول أوضح لكم ما استشكل عليكم بأقواله وأفعاله ، وهديه باق بينكم بعد أن استوفى أجله ، وأنتم مخاطبون بهذا القرآن على مر الأزمان كما خوطب به المسلمون الأوائل فتمسكوا به يهديكم إلى صراط مستقيم .

هذا التوجيه يرافقه تحذير ، توجيه يرشدنا إلى أن من أهل الكتاب من يمكن أن نتعاون معهم ونقيم معهم علاقات متعددة الجوانب ، ونستفيد من خبراتهم . وكما استفادوا من علومنا ومكتباتنا التي نهبوها ، يمكن أن نستفيد من علومهم معرفة وتطبيقاً مع ربطها بالمنهج الإيماني . فالمؤمن العاقل لا يقف ضد التطور الاقتصادي (أو التقني) وغيره . فالمعرفة والعلوم ذات سمة إنسانية ، وليست حكراً على شعب دون آخر ، وإن كان هناك اختلاف في الملة أو الدين ، فيستفيد كل طرف من خبرات الآخر وإنجازاته ، ويأخذ ما يتوافق مع اتجاهاته فالإسلام لم يقدم لنا العبادات فحسب ، وإنما قدم لنا حين ساد ما حوله من فكر وثقافة وعلم البشرية قبله . والرسول صلى الله عليه وسلم حث على طلب العلم . فما يهدد أمتنا وشخصيتنا العربية والإسلامية استبعدناه ، وما لا يتعارض مع مصادر التشريع الإسلامي استفدنا منه . «ولقد رأينا كيف أن أوروبا قبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيب خاطر ، ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط ،

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، ص ٨١ .

ولم تضحّ باستقلالها العقلي أو البديعي على الإطلاق»^(١).

فالنداء الإلهي حذرنا من طاعة فريق من أهل الكتاب لا يريد بالمؤمنين من عرب ومسلمين خيراً . فريق ابتدأ في عملية الاستقطاب من استخدام الحاجيات ، إلى الكماليات ، إلى المماحكات ، وهكذا شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحنا نرى أو نسمع في وسائل الإعلام المرئية وغيرها من يروجّ للديمقراطية الغربية بادّعاء أنها تحقق الحرية أكثر من أي مذهب آخر . ولكن أين هذه الحرية التي يتغنّون بها إذا كان رئيس أقوى دولة في العالم يعجز عن اتخاذ قرار الأغلبية ويضطر إلى اتباع رأي الأقلية الصهيونية الغنية المتسلطة على رقاب الشعب ؟ ونرى فريقاً آخر يروجّ للعولمة ، أو للحوار بين الأديان ، وليتها كانت دعوات مخلصه ، أو دعوة إلى حوار إسلامي _ إسلامي كالحوار بين المذاهب أو السنة والشيعه مثلاً ، فهذا الحوار يجب أن يسبق الحوار بين الإسلام كعقيدة والعقائد الأخرى . حوار يبدأ بين علماء المسلمين بما يتفقون فيه ، وبيان الأخطار المحدقة بالإسلام ، وأثر الفرقة عملياً على طاقة الإسلام المعنوية والمادية ، وكيف يجب أن تتحرك قواه لخير مشترك . وإن لدينا في الكتاب والسنة دليلاً يهدينا إلى النهج القويم للتعامل مع كافة الفرق الإسلامية ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلًا ﴿النساء/ ٥٩﴾ . فإذا تمسكت الأطراف المعنية بالقرآن والسنة سترى أن المتفق عليه بينها كثير جداً ، وما ليس له دليل يسقط . وإذا مدت جسور التقارب بين المسلمين يمكن النظر بعد التوحد الإسلامي في مد جسور التقارب بين العقيدة الإسلامية والعقائد الأخرى . ولكننا نرى استخدام أشخاص لإثارة الفتنة بين المذاهب كلما ظهرت محاولات لإيجاد التقارب . كما نرى دعوات تهدف إلى تقبّل أنظمة المعادين الداعية إلى الإباحية ومحاربة الإسلام والمسلمين . دعوات تهدف تقبل معتقداتهم كما تقبل الكثيرون لباس العبودية العقلية الذي خلفته المدنية الأجنبية . وقد استطاعت حركة التغريب أن تتغلغل إلى كل بلاد

(١) الإسلام على مفترق الطرق : ص ٨٢ .

العالم الإسلامي ، والاتجاه الآن نحو طبع العالم الإسلامي بالطابع الغربي لمحو الطابع المميز للشخصية الإسلامية .

«إن الدعوة إلى الحوار الديني ترتبط بالعوامة (الهيمنة على العالم) ارتباطاً وثيقاً، فما يجري من حوار الأديان هو جزء من خطة العوامة الشاملة ، والمقصود من هذه الخطة أن يصل الناس إلى مرحلة القبول الكلي بما هو قائم في المدينة الغربية (لا الحضارة) بما فيها محاولات الهيمنة و حركة التبشير التي تسير بهمة الآن في العالم . فبالرغم من أن أولى خطوات الحوار هي أن يعترف كل طرف بالآخر قبل أن يحاوره ، وبالرغم من أن المسلمين يعترفون بالمسيحية واليهودية ، إلا أنهم في الغرب لا يعترفون بالإسلام»^(١) .

أضيف هنا إلى أننا لا ننكر بأن الإسلام خاطب العقل ، وأكد على ضرورة استخدامه في كل ما يراه من آيات الله ، حسبما أوردنا في كتابنا (الإعجاز في القرآن) . ولكن بعد أن أوصلنا العقل إلى الإيمان بأن القرآن منهج صادر عن خالق البشر ، وهو أدري بما يصلح لهم لم يعد دور العقل هنا أن يحكم على الدين ومقرراته ، أو أن يناقش صحة آياته أو بطلانها فمن آمن بالقرآن وصحة صدوره عن الله عز وجل ، أصبح لازماً عليه أن يلتزم بكل ما جاء فيه . ودور العقل أن يفهم معنى النص ومدلوله حسب معاني الآية في اللغة والاصطلاح ! أن يتحرى إدراك دلالة النص ، لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه . فالمصلحة متحققة أصلاً بوجود النص من قبل الله تعالى . أما فيما لا نص فيه مما يجد من الأقضية فهو مجال الاجتهاد الحقيقي إلى جانب الاجتهاد في فهم النص . هذا هو إيماننا بالمنهج الذي جاء لينشئ أمة ، و يقيم دولة ، وينظم مجتمعاً . وإلى جانب كل هذا علينا أن نتذكر قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ۚ آلَ عِمْرَانَ ۖ ۱۱۹ ۚ ، وقوله أيضاً : ﴿ وَلَئِنْ آتَيْنَا الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ ۱۴۵ ۚ . وهذا الأمر أكدت عليه السنة بما رواه جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الدكتور محمد سليم العوا ، زهرة الخليج ، العدد ١٠٣٢ - رمضان ١٤١٩ هـ .

قوله: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا، وإنكم إما أن تصدّقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق". وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني" وفي رواية أخرى: "لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا أتباعي"^(١). وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشدد مع أصحابه في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها. . ولهذا أرى أن تفهم أمور ديننا وأسس ثقافتنا المنهجية من أجل تحديد هويتنا الثقافية وشخصيتنا التربوية قبل كل شيء، لأن القوى التي تحدد الشخصية التربوية لأي مجتمع من المجتمعات تنبع من تاريخ هذا المجتمع وقيمه الاجتماعية والثقافية والسياسية. وكما يؤدي التشابه العقلي والفكري إلى التماسك الاجتماعي، يؤدي الانسجام بين عناصر الشخصية إلى تكاملها وتماسكها، والعكس صحيح. ومن هنا كان الاستعمار يعمد دائماً إلى الأمم المغلوبة فيهن من مقومات قوميتها وعناصر ثقافتها، وبهذا ينقص من القدر المشترك بين أفرادها ليقضي على وحدتها وتماسكها فإذا عجزت الثقافة عن إبراز دور المنهج وضرورة الحرص على الالتزام بأوامره لا بد أن تتسرب الثقافات الخارجية بقدر يفرض التبعية شيئاً فشيئاً. وهذا ما يسعى إليه فريق من الذين أوتوا الكتاب؛ فريق من اليهود ومن والاهم بأساليب ومسميات متعددة ومتطورة. «والمتابع لأحوال المسلمين في أقطار الدنيا يرى بشكل واضح تلك الهجمة الشرسة التي يتعرضون لها. وما العبارة التي قالها الرئيس الأمريكي الأسبق (ريتشارد نيكسون) إلا دليل على ذلك، حيث يقول في آخر كتاب له: (بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتحوله إلى ولايات متناحرة، فإن على العالم اليوم مواجهة الخطر الأكبر؛ الإسلام!) فبعد حرب الإبادة التي يتعرض لها المسلمون في البوسنة والهرسك، والمجاعة في الصومال، والنزاعات في الدول الإسلامية التي برزت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، وما يتعرض له الفلسطينيون القابعون

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / جزء ١٣ / سورة العنكبوت. ومسند الإمام أحمد، مجلد ٣.

تحت نير الاحتلال الإسرائيلي ، تأتي الهجمة الهندوسية لتضيف إلى المسلمين مأساة جديدة فوق مآسيهم . . وفي ١٢ / ٦ / ١٩٩٢ سقط مسجد البابري تحت ضربات أربعة آلاف هندوسي متعصب ، وأسفر عن قلاقل وأعمال العنف في أكثر من ألف قرية هندية ، نتج عنها ألف ومئة قتيل وأربعة آلاف جريح»^(١) .

وقد أشار الأستاذ محمد قاروط في كتابيه : (المسلمون في يوغوسلافيا) و (نزاعات البلقان والتطهير العرقي) إلى خطر كبير يهدد الأصول الإسلامية من قبل أعداء الإسلام والمسلمين ، وإلى تقارير وزارة الدفاع الأمريكية المتضمنة ترشيح الإسلام ليكون العدو المنشود الذي يستثير حماسة الغرب بعد أن انهار الاتحاد السوفياتي .

وهذا العداء السافر للإسلام والمسلمين ليس حديث عهد ، بل كان قبل انهيار الاتحاد السوفياتي ، وأمثله كثيرة ، أكتفي بواحد منها جاء على لسان صموئيل زويمر^(٢) في كتابه :
العالم الإسلامي اليوم :

« تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها» .

وقال في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥ : « مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي عليها الأمم في حياتها . . » .

وقال أيضاً : « أخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي فقد جاء النشء طبقاً لما أراده الاستعمار ، لا يهتم بعظائم الأمور ، ويحب الراحة والكسل ،

(١) صحيفة منار الهدى اللبنانية/ كانون الثاني/ ١٩٩٣ .

(٢) رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين ، ورئيس جمعيات التنصير في الشرق الأوسط ، والذي تولى إدارة مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية منذ ١٩١١ م .

فإذا تعلّم فللشهرة ، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهرة وجود بكل شيء .»^(١)

وما الدعوة إلى (العولة) إلا أسلوب جديد من أساليب الهيمنة على العرب والمسلمين أولاً ، وعلى دول العالم الثالث ثانياً . لأنها تحمل في طياتها سيطرة القوي على الضعيف ، ولدعاتها أجهزة خفية لا تبدو لكل الناس ، وإن بدت فبعدها فوات الأوان . إنها تهديد لاقتصاد البلاد المتخلفة ، كما هي تهديد لثقافتها ، لأنها تنادي بثقافة عالمية واحدة . وهذه فيها حرب على الدين الإسلامي قبل كل شيء ، والتراث الإسلامي ، لأنها بالتخلي عن الثقافات القديمة والدعوة إلى ثقافة واحدة لا تخسر تلك الدول الداعية للعولة شيئاً ، ذلك لأن التراث الغربي الذي وجدته أوروبا في عصر النهضة ليس إلا مجموعة أشتات من تفسيرات رجال الدين ووثنية اليونان ومظالم القانون الروماني . ومعظم التاريخ البيزنطي الذي يفخرون به ليس إلا خليطاً من التناقضات ؛ فينات من القوة الحربية ، مع فترات من الاضطراب الداخلي والتآمر ، وعلم غزير وأدب يجتمعان إلى وحشية صارخة .

« فإذا جاء عصر النهضة يدعو إلى الخروج عن هذا الركam لإقامة دين الإنسانية الإلحادي ، أو فلسفة التنوير اليهودية ، فإن الأمر مختلف بالنسبة للمسلمين والإسلام . . . فالمسلمون قد عرفوا منهجاً ربانياً أصيلاً ، ظل نصه القرآني موثقاً لم يتأثر بتقلبات التاريخ ، ومن ثم فإن التراث الإسلامي هو تفسير لهذا المنهج الرباني الثابت الجذور الواسع الأطر . »^(٢)

لو تحصن المسلمون بمنهجهم لأدركوا مخاطر دعوة العولة بالنسبة لهم لا للدين الإسلامي . فالإسلام دين قويم ومحفوظ من الله تعالى . إنما الخوف يأتي من ناحيتين : الأولى ؛ أساليب التضليل التي يسلكها الغرب بما في ذلك _ طبعاً _ الولايات المتحدة

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : ص ١٦٣ ، طبعة ثانية ، الرياض ١٩٨٩ .

(٢) المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، أنور الجندى ، طبعة ثانية ، دار بوسلامة ، تونس عام ١٩٨٤ .

الأمريكية وريبيتها إسرائيل ، إضافة إلى المغرربهم الذين يتقبلون كل شيء دون تمحيص ، ودون أن يدركوا أن دعاة العولمة إنما يريدون إلغاء الخصوصيات لأمركة العالم . يريدون منا أن نغير (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ؟ . يريدون أن نتخلى عن تحريم الزنا وتحريم الربا وأمثال ذلك مما نص عليه المنهج القرآني ؟ .

الناحية الثانية ؛ أن الدول العربية والإسلامية ليست في حالة التشتت الفكري والسياسي هذا على استعداد للتعامل مع (العولمة) مع الحفاظ على خصوصياتها . وكما قلنا ليس الخوف على الإسلام وإنما على المسلمين غير المتحصنين بالثقافة الإسلامية .

لذا أقول إن الدعوة إلى الحوار الآن والندوات يجب أن توجه نحو تحسين العلاقات الإنسانية والدولية ، ونبد الخلافات وبيان أسبابها ، ومحاولة إزالة العوائق بدلاً من الاتجاه نحو توحيد الأديان . « فدعاة الحوار لا يعترفون بالإسلام ، بل إنهم يقولون : إن ديننا (هرطقة وبدعة) أمر تكلفه رجل بدون وحي من الله ، ومن ثم فإن الحوار الديني هنا غير جائز »^(١) . كما أن الفاتيكان لن يعترف بالإسلام كدين سماوي يتعبد به مئات الملايين في بقاع الأرض ، مع أن رجال الدين المسيحي يعلمون في قرارة أنفسهم أن الإسلام دين التوحيد ونفي الشرك ، ويفتح على البشر جميعاً منذ بدء الدعوة وعلى مدى الأزمان . اعترف بالأديان السماوية كلها ، وأعطى جميع البشر حرية العقيدة وحرية التفكير وحرية العمل وغيرها ، فهو دين المحبة والتسامح والتعاون . ولكنهم في مواجهتهم ينفذون إلى انتقاد الإسلام من خلال ممارسات فئات ضلّت الطريق ، ومثل هذه الفئات موجود لدى أتباع الديانات الأخرى في العالم ، ولا يحملون سلاح الهجوم ضدها ، علماً بأن أعداء الإسلام وجهوا من يلبس مسوح الإسلام ليسيؤوا إليه فيصل المصللون إلى أغراضهم .

أطلت في هذا الحديث ، ولكن كان لا بد من استغلال هذا النداء لبيان خطر الدعوة إلى العولمة ، وخطر الانجراف وراء فريق من الذين أوتوا الكتاب ، إنهم اليهود ومن

(١) د . محمد سليم العوا / زهرة الخليج / العدد ١٠٣٢ / ١٩٩٢ م .

والاهم، وهذا ما قصد إليه النداء الإلهي والذي يعني: «أيها المؤمنون؛ إذا أطعتم هؤلاء اليهود فيما يثير الفتنة، ويؤجج نار الجاهلية العمياء، ردّوكم إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى التفرق بعد الوحدة، وإلى الكراهية والحقد والضغينة بعد المحبة والصفاء والوداد، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. البقرة/ ١٠٩_ والكفر مهلكة في الدين، بخسارة الآخرة وسوء الحال في الدنيا والمعاش، ومهلكة في الدنيا بإثارة الفتنة والعداوة والبغضاء.»^(١)

(١) التفسير المنير: ج ٤ ص ٢٦٦.

النداء الثالث عشر : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

ـ آل عمران / ١٠٣ ـ

في هذا النداء يرشد الله تعالى المؤمنين إلى قاعدتين أساسيتين ، لا بدّ منهما لقيامهم بالأمانة التي أناطها الله بهم :

القاعدة الأولى : الإيمان بالله وتقواه ، ومراقبته في كل لحظة من لحظات الحياة .
فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ يعني تصوّروه مطّلعاً على جميع حركاتكم دائماً وأبداً ، وراقبوه في كل أمر ، فإنه يعلم ما تكتنه نفوسكم كما يعلم السرّ وأخفى وقد قال ابن عباس في ذلك : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى . وقيل : يعني واجب تقواه ، وهو القيام بالواجب ، واجتناب المحارم . « و وصف القرآن التقوى بأنها صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذي سواء أكان متصلاً بها أم بجميع الخلق ، والابتعاد عن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة التي بها كماله في جسمه وروحه . ولهذا وصف الله المتقين بأنهم من تحلّوا بالفضائل الإنسانية الحقة ، وقال : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمَوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ

والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴿البقرة/ ١٧٧﴾. فالمتقون هم الموصوفون بهذه الصفات السامية. وقد أوضح القرآن أن للتقوى ثمرات يانعة تعود على المتقين بالحفظ والأمن والتكريم، منها أن تجعل الإنسان في أمن من الخوف والحزن يوم القيامة، والنصر والتوفيق في هذه الحياة الدنيا. فقد قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿يونس/ ٦٣ و٦٤﴾. ومن ثمرات التقوى؛ أن تفرج الأزمات وتحل المشكلات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ﴿الطلاق/ ٣﴾. ومنها تنوير البصيرة، فيتبين المتقي ما التبس من الأمور، ويفرق بين الحق والباطل ليتبع الحق...»^(١).

أما الشق الثاني من القاعدة الأولى فهو: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه. واحذروا كل ما يؤدي بكم إلى الشرك بالله.

القاعدة الثانية: هي ركيزة الأخوة في الإيمان، وهي الاعتصام بحبل الله ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي تمسكوا بدين الله وكتابه، ولا تفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم اليهود والنصارى وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالائتلاف، كما في حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثاً، ويسخط لكم ثَلَاثاً. يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم؛ قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة

(١) الحب بين العبد والرب: ص ٥٦ و ٥٧.

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة وهبها الله تعالى لمن يحبهم من عباده . وهو هنا يذكرهم بهذه النعمة كيف كانوا في الجاهلية أعداء ، فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْإِيمَانِ ﴾ ﴿ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ ﴾ يوم كنتم متفرقين يفخر كل فرد على أخيه وكل عشيرة أو قبيلة على غيرها ، وما كان أعدى من الأوس والخزرج قبل الإسلام ، فانتزع ما كان في صدورهم من أنانية ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بما فرضه من التراحم والإخاء بعد أن كنتم شعوباً وقبائل متفرقة ، لا تجمعكم رابطة ، ولا يظلكم نظام . أجل لم يكن في بلاد العرب قبل الإسلام دولة عربية ، بل كان فيها وحدات سياسية مستقلة تعرف بالقبائل ، وفي الحجاز نجد مدناً ذات حباة سياسية خاصة ، وفي أطراف الجزيرة في الجنوب ممالك اليمن ، وفي الشمال الشرقي مملكة الحيرة ، وفي الشمال الغربي دولة الغساسنة . ومن ذلك يتضح عدم وجود حكومة مركزية في بلاد العرب . وقد حرص بعضها على الدخول في رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة للاستنجاد بها . كما سعى بعضهم إلى التقرب منها للتفاخر بخدمتها . وما أن جاء العام التاسع للهجرة إلا وقد أخذت ظاهرة الوحدة العربية شكلاً محسوساً ، وأصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام فيها تجمع بينها عقيدة واحدة . كما ظهر بين أهلها شعور بالوحدة القومية بعد أن دخلوا تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ساعد على قيام الدولة العربية الإسلامية على أساس الوحدة الدينية والسياسية . وقد تمتعت مدن العرب وقبائلها بعد أن تحولت إلى الإسلام بقسط وافر من الاستقلال الذاتي داخل نطاق الدولة العربية الإسلامية . وتمتع العرب بأخوة العقيدة والإيمان بعد العداوة ، لذا قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ بل أصبحتم كما وصفكم الرسول صلى الله عليه وسلم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً ، حيث قال : " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ "

(١) صحيح مسلم : ١٧١٥ / ، وذكره ابن كثير في شرح الآية ، كما ذكره الخازن في : ٢٥٨ / ١ .

بالسهر والحمى^(١). وإن مجرد هذه الذكرى لتحتم عليكم التمسك بتلك المبادئ السامية التي كانت سبباً في القضاء على ما كان بينكم من عداة .

واذكروا أيضاً أنكم ﴿ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أي على وشك الوقوع في النار التي أعدها الله للكافرين الظالمين بسبب ما كنتم فيه من ظلمات الجهل والشرك والفرقة ، ﴿ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ بهذا الإيمان ، وأنار لكم طريق السعادة وعلّمكم أنبل المقاصد . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ بمثل هذا الأسلوب المؤثر ﴿ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى حكمة التشريع القرآني وثمره الطاعة والتقوى فحرصون عليها ، ويكون لكم من وراء ذلك حافزاً قوياً للعمل بما فيه وحدتكم وقوتكم ، ونبذ الخلافات القائمة بينكم ، من مذهبية أو سياسية أو إقليمية وغيرها ، وستعلمون أن لعبة السياسة في إطار الإقليمية : « هي معارك تولدت عن فعل استعماري منظم ، درس وفهم كل مناطق ضعفكم ، ثم دفعكم إليها دفعاً بالتأمر المبني على أساس من العلم والمعرفة ، ولن يتوقف هذا كله إلا إذا فهِمتم أن جيوشهم حين غزت أرضكم لم تكن تستهدف الأرض والثروة وحسب ، وإنما كانت تستهدف الثقافة والعلم والمعرفة والفكر »^(٢).

فاستجيبوا لهذا النداء الداعي إلى التقوى والاستمرار عليها ، وإلى وحدة الصف والمنهج حتى يأتاكم الأجل فتحصلوا على عز الدنيا والآخرة .

(١) صحيح البخاري/ ٦٠١١ ، وصحيح مسلم/ ٢٥٨٦ .

(٢) فاروق خورشيد ، مجلة العربي ، ص ١٢٠ ، السنة الثلاثون ، العدد ٣٤٣ .

النداء الرابع عشر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ،
وَدُّوا مَا عَتَمْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ،
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

آل عمران/ ١١٨

نداء وتحذير إلى الذين آمنوا بالله وأيقنوا بصحة ما جاء في القرآن الكريم ، نراه في صورة ناطقة بدخائل النفوس ، تسجل نموذجاً بشرياً مكروراً في كل زمان ومكان ، نراه من حولنا ، داخلاً البلاد وخارجها ، يتظاهر بالمودة حتى ينخدع بهم المسلمون فيمنحونهم الود والثقة ، وهم لا يريدون للمسلمين الاستقرار بل الاضطراب والتبعية .

أخرج ابن جرير الطبري وابن إسحاق وابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود ، لما كان بينهم من الجوار والخلف في الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ، ينهاهم عن مبايحتهم ، تخوف الفتنة عليهم .

هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم ، كانت تنطبق على اليهود الذين كانوا يضمرون للإسلام والمسلمين النوايا السيئة ، في الوقت الذي كان فيه بعض المسلمين ما يزال مخدوعاً في أعداء الله هؤلاء . ولكننا نرى مصداق هذه الصورة فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف ، والمسلمون في غفلة من أمر بهم ، إلا من رحم الله . نرى رجالاً في مواقع المسؤولية السياسية في أكثر من قطر عربي وإسلامي ، يقيمون علاقات مع أعداء الأمة العربية والإسلامية من اليهود وغيرهم . وهم يرون كيف تزمجر (إسرائيل وتهدد في كل اتجاه ، وتضرب حيث تجد الضرب ممكناً دون أن تأبه بأية قوانين أو أعراف أو موثاق دولية . وتنظر لأعمالها هذه ولأطماعها في التوسع بمقولات باطلة حيناً وظرفية أحياناً . ورغم ذلك

تصبح هذه المقولات مع الوقت وبفعل الجهد الصهيوني المخطط والمكثف ، وبدعم من القوى الامبريالية والقوى الحاقدة على العرب والمسلمين ، وكأنها مقولات صحيحة يطالبنا الكثيرون بالأخذ بها ، ويتحدثون عنها وكأنها اكتسبت كل عناصر الشرعية المنطقية ، وهكذا تتحول من مقولات باطلة أو خرافية إلى مقولات عادلة بفعل الجهد الصهيوني ، وبفعل المخدوعين الذين يواصلون رجالاً من يهود ، وبفعل بعض بطانات فاسدة أوصلتها المخططات الاستعمارية إلى مواقع المسؤولية . كل هذا مما يدل دلالة أكيدة على عدم رجوع إلى منهج الله تعالى وإلى ندائه القائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ ﴾ ، وبطانة الرجل : خاصته الذين يطلعهم على أسرارهم . وهذا في التعبير البلاغي ؛ استعارة ، حيث شبه فيها خواص الرجل بالبطانة لملازمتهم له ملازمة الثوب للجسم . والمعنى : لا تتخذوا الكافرين من اليهود والمنافقين ومن الالههم خواص ومستشارين تطلعونهم على أسراركم ودخائلكم ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ لا يقصرون في جلب الضرر إليكم ، وإفساد أموركم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ورغم ذلك يتخذ البعض من هؤلاء بطانة ، فيجعلهم موضع تقدير واستشارة في بعض الأمور . والله تعالى يقول : ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي أحبوا من صميم قلوبهم ما فيه هلاك لكم ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ بما يظهرونه علانية من تكذيب نبيكم وكتابكم . وفي الصور المشهودة الآن يظهرونه علانية بدم العرب والمسلمين ، ونشر الادعاء بأن العرب والمسلمين سبب التخلف ، وأن اليهود سبب تقدم العالم . . ﴿ وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ ﴾ من الكره والحسد والحقد على العرب والمسلمين أشد وأكثر مما يظهرون ، و ﴿ أَكْبَرُ ﴾ مما بدا لكم من تأمرهم ، ذلك لأن الحقد سيدفعهم إلى العمل على سلب خيرات بلادكم ، وتعكير هنائكم ، وأنتم لا تشعرون . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ﴾ معشر المؤمنين حقيقة ما في نفوسهم ، وأقمنا لكم البراهين على وجوب الحذر من اتخاذهم مستشارين أو أمناء سر لكم ، فتيقظوا ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وتدعون أنكم من ذوي العقول النيرة التي تتدبر الأمور على حقائقها . وتذكروا وقعة أحد يوم نزل ثلاثة آلاف من المشركين في السنة الثالثة

من الهجرة » عندما استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمر مواجهة المشركين وعدَّ عبد الله بن أبي سلول من ضمنهم ، فاستشاره أيضاً ، مع أنه لم يكن ينشيره من قبل فقال عبد الله : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا إلى عدوِّ قط إلاَّ أصاب منا ، ولا دخل علينا إلاَّ أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم ، فإن أقاموا أقاموا بشرَّ موضع ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأمنَّ على رأيه كثير من الأنصار . وقال المهاجرون وبعض الأنصار : اخرج بنا إلى هؤلاء لئلاَّ يظنوا أننا قد خفناهم . . . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أدرك من كلام عبد الله بن أبي سلول شيئاً من الوهن والتمسك بما لا يتفق مع الثقة بالله والاعتماد على نصره ، وربما أحس بما يداخل عبد الله من النفاق ، فلم ير موافقته ودخل بيته ، ولبس لامته التي اعتاد أن يلبسها للحرب ، وخرج إليهم ، وقد اعتزم الخروج لمقاتلة المشركين في أحد ، وسار من المدينة بأصحابه . . . » (١) .

وقد تجلَّت في تلك الغزوة نصره الله للنبيِّ وأصحابه في مواضع كثيرة :

- ١- عدم أخذه برأي عبد الله بن أبي سلول وجماعته من المنافقين .
 - ٢- ما كشفه الله لنبيه من سوء نية المنافقين ، وما يدبرونه للمسلمين من مكائد ، وكان في إقصاء النبي لابن سلول عن صفوف المجاهدين خير كثير .
 - ٣- إعطاء درس لولاة الأمور وللأجيال اللاحقة - كل في موقع مسؤوليته - للاستمسك بعروة الله ، والحذر من الاستماع إلى مشورة أعداء الدين .
- لقد جاء هذا النداء محذراً من أجل وقاية الأمة والتنبيه إلى الخطر الذي قد يصيبها ، ولكنه لم يحرض على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها . فالإسلام سمح في تعامله مع الناس جميعاً ، ويحذر من الحقد ولا يحقد إلاَّ أن يُحارب في دينه ومنهجه . وهذه حقيقة تقررها النصوص الكثيرة من القرآن والسنة ، وترجمها تاريخ الدولة

(١) تفسير الخطيب المكي : ج ٤ ، ص ١٩ .

الإسلامية . « فإذا اطمأنّ الحاكم أو الإمام المسلم إلى موادة غير المسلمين ، ووثق بهم ، جاز التعاون معهم ، كما حدث من عون اليهود للمسلمين في فتوح الأندلس ، وكما وقع من القبط إذ عاونوا المسلمين في فتح مصر . وجاز توظيفهم في أعمال الدولة الإسلامية . فقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجال دواوينه من الروم ، وتابعه الخلفاء من بعده على هذا النهج »^(١) .

أختم هذا البيان بما روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما بعث الله من نبيٍّ ، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصم الله تعالى " .^(٢)

(١) التفسير المنير: ج ٤ ص ٥٦ .

(٢) صحيح البخاري: ٦٧٧٣ .

النداء الخامس عشر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
آل عمران/ ١٣١

هذا الخطاب جاء للمؤمنين قبل الدخول في معركة أحد، ليشير إلى خاصية من خواص العقيدة الإسلامية، وهي الوحدة والشمول في منهج الله تعالى، الشمول بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية، وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب والسيطرة على الأهواء والمطامع الشخصية. فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيماني مطلقاً، ومن ثم لا رعاية فيه للمبادئ والغايات التي يريد الله تعالى للبشر أن تقوم حياتهم عليها، لأنه قد يؤدي إلى أضرار اجتماعية كثيرة منها: التقاطع والعداء بين الناس وحملهم على دوام الخصومات. كما يوجب القسوة وينزع الرحمة من القلوب. ويولد الحقد في نفوس الفقراء من الأغنياء لما يجدون فيهم من شدة الشح والحرص. ويسبب تعطيل المروءة والقرض الحسن الذي دعا الله الناس إليه بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً...﴾ _البقرة/ ٢٤٥_

وقد كان للربا في الجاهلية صورتان رئيسيتان: ربا النسئة، وربا الفضل. ولقد تم تعريفهما في الحديث عن النداء العاشر، مع بيان كيف شدد الإسلام في تحريم الربا بنوعيه: ربا النسئة (أي الأجل)، وربا الفضل (أي الزيادة الحالية)، وأن تحريمهما إنما هو لمصلحة الأمة، لما فيهما من خطر على الفرد والجماعة. وذكرنا أن تحريم الربا جاء في القرآن والسنة والإجماع. فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ _البقرة/ ٢٧٥_. ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا السبع الموبقات"،

قلنا : وما هنَّ يارسول الله ؟ قال : " الشرك بالله ، و السحر ، و قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، و أكل الربا ، و أكل مال اليتيم ، و التولّي يوم الزحف ، و قذف المحصنات المؤمنات " ^(١) . و أجمعت الأمة على أن الربا محرم ، سواء أكانت المنفعة نقداً أو عيناً مادية ، كثيرة أو قليلة . وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سواء ^(٢) .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ﴾ أي يا من آمنتم بالله هادياً وعالمًا بما يصلح أموركم وأحوالكم ؛ لا تأخذوا الربا « وعبر بالأكّل لشيوعه في المأكولات ، حيث كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فإذا حلَّ الأجل ولم يكن المدين واجداً لذلك المال ، قال : زد في المال وأزَيْدْكَ في الأجل ، فرمما جعله مائتين ، ثم إذا حلَّ الأجل الثاني فعل ذلك ، إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿ أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً ﴾ وليست هذه الحال لتقييد المنهي عنه حتى يكون أصل الربا غير منهي عنه ، بل لمراعاة الواقع ، وللتشنيع عليهم ، بأن في هذه المعادلة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً . . . » ^(٣) .

ولنقف قليلاً عند الأضعاف المضاعفة ، طالما سمعنا بعض الأشخاص في هذا الزمان يريدون أن يتواروا خلف هذا النص ليقولوا : إن المحرّم هو الأضعاف المضاعفة ، أما الأربعة في المائة ، والخمسة في المائة ، والتسعة . . . فليست أضعافاً مضاعفة ، وليست داخلية في نطاق التحريم . ولكن _ كما ذكرنا قبل قليل _ الأضعاف المضاعفة كانت وصفاً لواقع كان الناس عليه في جزيرة العرب في الجاهلية ، وليست شرطاً يتعلق به الحكم . والنص الذي جاء في

(١) أخرجه مسلم / ٨٩ ، و البخاري / ٢٦١٥ عن أبي هريرة ، و أبوداود / ٢٨٧٤ .

(٢) صحيح مسلم / ١٥٩٨ .

(٣) تفسير آيات الأحكام ، سنة ثانية ص ١٦ .

أواخر سورة البقرة قاطع في تحريم أصل الربا ، وفصلنا القول في معنى قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أيّا كان ، بلا تحديد ولا تقييد ، وأيّا كانت صفته ، فإن قليل الربا ولو واحد بالمائة وكثيره حرام . فإذا انتهينا من تقرير هذا المبدأ فرغنا لهذا الوصف ، لنقول إنه في الحقيقة ليس وصفاً تاريخياً فقط للعمليات الربوية ، إنما هو وصف لازم للنظام الربوي المقيت مهما كان سعر الفائدة . وربا الجاهلية أو ربا النسيئة هو ما يسمى اليوم في المصارف الربوية بالربا الفاحش أو الربح المركّب أو الفائدة المركبة مع مرور الزمن ، وهو محرّم قطعاً بنص القرآن ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ وبالنداء الذي نحن بصده الآن ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ﴾ والمصارف تنشئ مع الزمن والتكرار أضعافاً مضاعفة بلا جدال . ومن شأن هذه الفوائد المركبة أن تفسد الحياة النفسية والخلقية ، كما تفسد الحياة الاقتصادية والسياسية ، والإسلام يريد للأمة نظافة الحياة النفسية والخلقية ، كما يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في عباده من ذوي الحاجة ، فلا تُثقلوا كواهلهم بهذه الفوائد المركبة المتراكمة التي تحملهم على بغضكم والحقد عليكم ، والعمل على التخلص منكم ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ بهذه التقوى والكفّ عن الربا ﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ لما في ذلك من ميل القلوب إليكم بالود والرحمة والتعاون المشروع ، فتستقيم أموركم في الحياة وتعمون بطيب العيش وتتم السعادة .

نخلص من هذا البيان إلى نقطتين هامتين :

« ١- الربا حرام ، قلّ أو كثر ، والربا كبيرة من الكبائر .

٢- لا يباح الربا بحال ، إلّا للمضطر في حدود الضرورة القصوى ، مثل الإقدام على أكل الميتة ، كأن غلب على ظنه الوقوع في الهلاك جوعاً ، أو تعرّض للعيش في الشارع بلا مسكن يأوي إليه .

أما الاقتراض بفائدة للتوسع في التجارة أو الصناعة أو الزراعة فهو حرام ، إلا إذا

كان مهدداً بغالب الظن بالإفلاس أو تلف المحصول الزراعي ، ولم يجد أحداً يقرضه
القرض الحلال ، فله الاقتراض بقائدة بقدر إنقاذ نفسه من الضائقة المستحكمة ، لأن
الضرورة تقدر بقدرها . . . »^(١) .

(١) التفسير المنير: ج ٤ ص ٨٤ .

النداء السادس عشر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مُوَلَّاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾
آل عمران/ ١٤٩ و ١٥٠

لقد تغلب المشركون على المسلمين في معركة أحد نتيجة مخالفة جماعة منهم توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ما ساعد اليهود والمنافقين على انتهاز الفرصة لتثبيط عزائم المسلمين وتخويفهم عاقبة متابعة المسير مع محمد صلى الله عليه وسلم ، مصوِّرين لهم مخاوف القتال ، وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائها . فجاء هذا النداء الإلهي ليحذّر المؤمنين من الاستسلام أو الرضوخ للشائعات التي تلبّل القلوب وتهز النفوس بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله رب العالمين ، حذار أن تكونوا محكومين لمن كان على غير دينكم ، أو يخدعوك بما يلقونه إليكم من أقوال قد يترأى لكم سلامتها ، فإنكم ﴿ إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بدينكم ، ووجدوا بنوّة نبيكم ، كعبد الله ابن أبي زعيم المنافقين وأتباعه رؤوس اليهود ، وترضوا بولايتهم ﴿ يُرْذِلُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ فيرجعوكم عن دينكم الحق بما يدسّونه في قوانينهم من أحكام تخالف حكم الله الذي أنزل عليكم والذي هو واجب الطاعة . فإن قبول قولهم في الدعوة إلى الكفر كفر ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ في الدنيا بذلّ الكفر بعد عزة الإسلام ، وتحكّم العدو فيكم ، وحرمانكم من متعة التمكين في الأرض المذكور في وعد الله للمؤمنين الصادقين ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . . . ﴾ _النور/ ٥٥_ وخاسرين في الآخرة أيضاً بحرمانكم من نعيم الله وثوابه ،

وتعرضكم لعذاب الله وعقابه في النار . وهل من خسارة أعظم من رجوع المؤمن عن دينه ؟
وهل من ذل للمرء أكثر من أن يصبح تابعاً بعد أن كان متبوعاً ، ومحكوماً بعد أن كان
حاكماً ؟

ما أشبه اليوم بالأمس ، أليست الحالة اليوم شبيهة بتلك التي حدثت في بداية الدعوة
الإسلامية ، حيث نرى الأساليب المتنوعة من الغرب والصهيونية ، ومن عملائهم ، ومن
الذين انسلخوا عن عقيدتهم ، نرى من يصور للعرب والمسلمين مخاوف المجابهة مع قوى
العدوان الباغية التي تعتدي على الأرض والعرض ، اعتداءات يومية في الأرض المحتلة من
فلسطين والجولان وجنوب لبنان وغيرها ، ويقابل ذلك انحراف وراء طاعة المعتدين
وأعوانهم . وليست الطاعة بأن يوجهوا أوامرهم فتتخذ بحذاقها ، وإنما يوجهون سموهم
وأحقادهم فتسري شيئاً فشيئاً بسبب ضعف التربة وعدم التمسك بالمنهج . تسري حتى
تفقد شبابنا حس الملاحظة العميق لحياتهم الداخلية ، لاستعدادهم ، ثم يبحث عن السعادة
في العالم المادي ، ويصبح تابعاً لاهثاً . ولئن قلتم إننا لم نطعمهم ونقبل ولايتهم إلّا لما وجدنا
فيهم من بأس شديد ، ولما نؤمله منهم من عون ومسالمة ، فإن الحقيقة غير ذلك . فطاعة
الذين كفروا خسارة مؤكدة ، وما تأملون منهم فيه وهم كبير ، فالذي لا تعصمه عقيدته من
طاعة الكافرين يتنازل عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى . إنها الهزيمة الروحية ، فإذا
استمع إلى وسوستهم ، وأطاعهم في توجيهاتهم ، سار في طريق الارتداد على الأعقاب ،
وهذه حقيقة واقعية ، لذا نبّه الله عزّ وجلّ المؤمنين لها ، وإلى أن ما يرجونه من حماية أو
نصرة لهم في طاعتهم فهذا وهم ، وإن حقيقة النصرة والحماية هي من الله ﴿ بل الله
مَوْلَاكُمْ ﴾ الذي خلقكم ومنحكم الحياة وآتاكم القوة والعقل ، أحق أن تطيعوه وتسمعوا
نداءه ، لأنه هو القادر بذاته على نصر من يشاء من عباده أولاً ﴿ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ من
جهة ثانية . لأن نصرة المخلوق للمخلوق محصورة في المادة وهي الجند والعتاد ، ونصر الله
فوق ذلك ، فإنه جلّ وعلا الذي يملك من وسائل النصر وأسباب الظفر ما لا يستطيع العقل

البشري تصوّره . ﴿ فاعلموا أنّ الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ _ الأنفال / ٤٠ _ .

فمن أهم ما يرشد إليه هذا النداء ما يلي :

١- لا مولى إلا الله ، ولا ناصر إلا الله ، ومن كان الله مولاه فليس بحاجة إلى ولاية أحد من خلقه .

٢- لهذا الخطاب صفة العموم والاستمرار ، طالما حذرنا من الانسياق وراء الدعايات الصهيونية التي تتخذ أشكالاً وأساليب ، ولئن كان من أساليبهم في العهد الإسلامي الأول تشييط العزائم ، وبيان مخاوف الاشتباك مع مشركي قريش ، فإنهم يسعون إلى مثل هذا في عصرنا الحاضر ، ويتخذون من التطور المدني لديهم أمثلة للإقناع بأنهم أكثر تطوراً في المفاهيم العلمية وحتى الدينية . ولئن كان أحد الطرفين أكثر تطوراً في بعض الجوانب المفيدة لخير البشرية فإن الإسلام لم يمنع من الاستفادة من هذه الجوانب ، ولا من إقامة علاقات طيبة وتبادل خبرات في المجالات الزراعية والاقتصادية عامة ، والصحية وغيرها . إننا يحذرنا الله من أن ننساق وراء أفكارهم إلى درجة نصبح فيها تابعين لهم ، أو يصبحون أولياء علينا .

قد يظن البعض أن التبعية قد تكون من الناحية العسكرية فقط ، أو عن طريق الأحلاف ، ولكنني أنبه هنا إلى أن طاعة الذين كفروا بحقنا في الحياة والدفاع عن عقيدتنا وأرضنا وأمتنا قد تتخذ أشكالاً متعددة . وإنني لآت بمثال لأذكر القارئ ببعض أساليب الأعداء التي تؤدي إلى التبعية فالحسرة . مثال يتعلق بالمشكلة الغذائية التي أضحت شأنًا أخلاقياً ومصرياً يهم المفكرين والمسؤولين والرأي العام .

«لقد بلغت قيمة مشتريات الوطن العربي عام ١٩٨٥ نحو ٢٥ مليار دولار من المواد الغذائية فقط ، مع أنه كان ينتج كافة احتياجاته من الغذاء ، ويصدر جزءاً من الفائض إلى الخارج . . . وتحول الوطن العربي إلى أول منطقة عاجزة غذائياً في العالم ، فهو يعتمد على المساعدات الخارجية أو المشتريات . . . وبالتالي صارت الدول الغربية المنتجة والمصدرة أو

التي تقدم المساعدات لهذه الدول تتحكم تحكماً قوياً ومباشراً بمقدراتها الغذائية ،
فالاقتصادية عموماً ، فالسياسية . أما صورة الغد القريب فقائمة و أشد هولاً . . . وستزداد
حاجة بعض البلدان للمساعدات والحسنات التي تمن بها الدول الغنية ، كما ستزداد نسبة
مدفوعات الدول النفطية على الغذاء ، هذا إن توفرت في الأسواق العالمية الكميات
والنوعيات التي تحتاجها شعوبنا ، وإن رضيت الدول المنتجة عن طموحاتنا السياسية
والقومية والاقتصادية والاجتماعية المشروعة . وتجربة العراق مع الحصار الاقتصادي
والغذائي _ وحتى الدوائي _ المفروض عليه من الدول الإمبريالية ليست إلا مثلاً واحداً من
الأمثلة التي قد تتعرض لها بلداننا وشعوبنا . . . الأمر الذي يجسد انهيار الأمن القومي
العربي بالمفهوم الشامل والحديث له ، أي بكافة عناصره وحلقاته من الأمن الغذائي ، إلى
الأمن العسكري ، إلى الأمن السياسي . . . إن الدول العربية تملك نحو ألف بليون دولار
مودعة في الدول الغربية . وهي مبالغ تغطي ما تحتاجه الدول العربية من أموال لتطوير وخلق
الهيكل الاقتصادية التي تحتاجها ، وإقامة جميع المشروعات القومية المشتركة لخدمة
الاقتصاد العربي ، وسداد جميع الديون الخارجية عن الدول العربية . ولعلنا نتذكر أن هذا
النمط المعيشي _ في اليابان _ هو نفسه كان أسأ من أسس الحضارة العربية الإسلامية ،
وعندما تخلى عنه العرب والمسلمون ، ومالوا نحو الرخاء والبذخ ، بدأت الحضارة تنهار .
في حين أن نمط المعيشة الذي عبرت عنه نماذج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ثم
الخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز الذين كانوا يحكمون امبراطوريات شاسعة ولكنهم
كانوا يلبسون ثياباً بسيطة ، ولا يكادون يجدون ما يقتاتون به سوى كسرات خبز ، هو
النمط الذي أسس التراكم المادي ، وخلق التحول النوعي في تلك الفترة ، وهو نمط حض
عليه الإسلام في القرآن والسنة والسلوك النبوي . . . »^(١) .

(١) محمد خليفة ، الأزمة الغذائية في الوطن العربي ، مجلة الوحدة ، العدد : ٨٤ لعام : ١٩٩١ ،
ص ٣٣-١٨ .

فالحلول العلمية تحتاج إلى نضج أخلاقي ونفسي وفكري ، والسعي إلى إقامة (نظام حياة جديد) لا إلى (نظام دولي جديد). نظام يذكرنا بشخصيتنا ومقوماتنا بدلاً من الهرولة تقليداً لا دينياً ولا عقلاً . هذا التقليد أوجد من نسي نداء الله وانجرف في طاعة أعداء الأمة الذين لا يريدون الخير لها في الأمور الاقتصادية وغيرها . ولذلك حذرنا تعالى من الانسياق وراء أفكارهم إلى درجة نصب فيها تابعين لهم أو يصبحون أولياء علينا . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿بَلِ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ .

النداء السابع عشر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

— آل عمران / ١٥٦ —

نداء الله تعالى إلى عباده الذين آمنوا ولكنهم يتأثرون أحياناً بأقوال أو تصرفات الآخرين دون أن يدققوا في معاني تصرفاتهم أو أقوالهم . جاء يحذّرهم من مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الذي وضع بقولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب : لو كانوا عندنا ما أصابهم الذي أصابهم . فينهى الله تعالى المؤمنين عن ذلك بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقضاء الله وقدره ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مقلّدين لهم في ما يعتقدونه من أن أعمال العباد قد تحول دون تنفيذ ما اقتضته مشيئة الله من نظام قضائه وقدره . ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ الذين كانوا مقيمين معهم ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ارتحلوا أو سافروا بقصد التجارة وطلب الرزق ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًى ﴾ أي غزاة مجاهدين في سبيل الله ، ثم أصابتهم مصيبة في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة والجهاد ؛ لو كانوا باقين عندنا وما ارتحلوا لما أصابهم ما أصابهم ﴿ وَمَا قُتِلُوا ﴾ في خروجهم للقتال . وهذا قول ظاهر الفساد منطقاً وشرعاً ، لأنهم لا يملكون الحياة حتى يهبوها لهم إن كانوا عندهم ، وهم أنفسهم معرضون للموت ، فكيف يمنعونه عنهم ، والله سبحانه قضى بالموت وقدر الآجال ، وهو القائل : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ _ النساء / ٧٨ _ . فمن

دخل الإيمان قلبه يسمع آيات الله ويؤمن بها ، أما الكافر فكفره بالله الذي خلق الموت والحياة يجعله يقول ؛ لو لم يسافر (فلان) إلى تركيا لما قُتل بحادث الهزة الأرضية ، ولو أن فلاناً لم يسافر بالقطار لما قتل في حادث تصادم القطارين ، والأمثلة على ذلك كثيرة . . ومثل هذا الهراء لا يصدر إلا عن جهل في القضاء والقدر وضلال في الإيمان ، أو عن فساد تصور حقيقة القوة الفاعلة في كل ما يجري ، فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية ، بسبب انقطاعهم عن الله . أما المؤمنون بالله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى فقد أدركوا أن الموت لا يكون إلا بأمر الله القائل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ _ الأعراف / ٣٤ _ .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خطَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خطًّا مربعاً ، وخطًّا خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخطًّا خطاً صغيراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط فقال : " هذا الإنسان ، وهذا أجله محيطاً به _ أو قد أحاط به _ وهو الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض . فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا " (١) .

إذن من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بأن الآجال مقدرة ، ونعمة الإيمان هذه وهبها الله تعالى للمؤمنين ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ﴾ الاعتقاد الذي يختلف عن تفكيرهم ، وعدم قولكم أيها المؤمنون كقولهم وما ينشأ عن ذلك من قوة عزيمتكم لا يصدكم خوف الموت عن الجهاد في سبيل الله ، ولا يحول دونكم ودون العمل لنيل أمانيتكم ﴿ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ لعدم تأثركم بأقوالهم وما كانوا يرجونه من ضعفكم ، فإحساسهم بأن خروج إخوانهم ليضربوا في الأرض في طلب الرزق فيموتوا ، أو ليغزوا ويُقاتلوا فيُقتلوا ، إحساسهم بأن هذا الخروج هو علة الموت أو القتل ، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج ، ولو كانوا يدركون العلة الحقيقية وهي استيفاء الأجل ، وقدر الله ، وستته في الموت والحياة ، ما

(١) صحيح البخاري / ٦٠٥٥ .

تحسّروا، ولتلقوا الابتلاء صابرين ﴿والله يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يهب الحياة، ويسترد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل المرسوم، سواء أكان الناس في بيوتهم وبين أهليهم، أو في ميادين الكفاح، فلا دخل لكثرة الأسفار، ولا للتعرض لأعظم الأخطار. وهذا لا يعني الاستهتار، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ _ البقرة/ ١٩٥ _، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتزاولون من أسباب تؤدي بكم إلى تنفيذ ما قضت به مشيئته ﴿بَصِيرٌ﴾ وناظر إلى جميع حركاتكم وسكناتكم. ويطلع على ما تكتنه صدوركم من النيات، فإن من أول ما يجب أن تؤمنوا به أن الأمر لا ينتهي بالموت، فهذه ليست نهاية المطاف، فهناك قيم أخرى واعتبارات أرقى في ميزان الله تضمنتها الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَغْفْرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي أن المغفرة والرحمة التي يظفر بها الإنسان المؤمن والذي قتل في سبيل إعلاء كلمة الله لهي في الآخرة خير له مما يجمعه أولئك الكفار في الدنيا من مال وجاه أو متاع ونعيم غير دائم ستركونه بعد موتهم، ولا ينفعهم في الآخرة شيئاً.

ويوم يفهم المسلمون معنى هذا النداء جيداً، وينطلقون في مجالات التربية والإصلاح، لا يخشون إلا الله. سيتحررون من الجبن والخوف وكرهية الموت، ويوقنون أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروهم بشيء لم يضروهم إلا بشيء قد كتبه الله لهم، وسيبدلهم الله تعالى من بعد خوفهم أمناً، ومن بعد ضعفهم قوة، ومن بعد تفرقهم وحدة ذلك وعد الله الذي لا يخلف الميعاد.

«في هذا الخطاب الإلهي حرص على بروز الشخصية الذاتية للمسلمين، وعلى تعهدهم بالرعاية والعتناء، وإيجاد الموقف المتميز لهم أمام خصوم الدعوة الإسلامية، لذا حذّره الله ونهاهم من أن يقولوا مثل قول المنافقين الذين قالوا في شأن إخوانهم حين سافروا في البلاد للتجارة فماتوا، أو كانوا غزاة محاربين فقتلوا؛ لو كانوا باقين عندنا ما ماتوا وما قُتلوا. لأن الحياة والموت بيد الله تعالى القائل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ

الله كتاباً مؤجلاً ﴿ آل عمران / ١٤٥ . ﴾^(١).

وفي هذا النداء إشارة للحفاظ على الشخصية الإسلامية كشخصية واضحة الملامح خلال تاريخ طويل ، منذ كان للعرب كيان يتمثل بالشهامة والكرم وحماية الذمار والوفاء والنجدة ، وأمثال هذه الصفات . إلى أن جاء الإسلام فأعطاهما قوة ووضوحاً ، وأمدّها بالحيوية . هذه الشخصية التي عرفت حقوق الإنسان قبل أوروبا ، كانت رحمة للعالمين ، عندما انبثت في الأرض ، وأعلنت حرية العقيدة ، وحملت لواء الفكر ، وردت خصوم الحضارة من التتار والصليبيين .

(١) التفسير المنير: ج ٤ ، س ٣ ، آية ١٥٦ .

النداء الثامن عشر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
آل عمران/ ٢٠٠

في هذا النداء يذكّر الله تعالى عباده الذين آمنوا بأنهم عند اتباعهم المنهج الإلهي سيواجهون من لا يستريح لهذا المنهج العادل ، من أهل الشر والباطل ، ولذلك دعاهم قائلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عليكم التحلي بهذه الصفات الأربع ، لتكونوا من المفلحين الفائزين بسعادة الدارين :

أولاً- ﴿ اصبروا ﴾ على مشاق الطاعات والالتزام بدينكم الذي ارتضاه لكم ، ولا تدعوه لشدة ، ولا لرخاء ، حتى تموتوا مسلمين . وآيات الشاء على المتحلين بالصبر كثيرة ، منها : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ _آل عمران/ ١٤٦_ . ذلك لأن الصبر أساس كثير من الفضائل : « يربي ملكات الخير في النفس ، فما من فضيلة إلا وهي محتاجة إليه ، فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد ، والعفاف هو الصبر عن الشهوات ، والحلم هو الصبر على المثيرات ، والكتمان هو الصبر على إذاعة الأسرار ، وهكذا نجد كل خصلة خير تحتاج إلى الصبر . لذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه : (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد) . . . وإن من أعظم أنواع الصبر ؛ الصبر عند الصدمة الأولى ، فقد روى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" (١) . .

وقد عدد سبحانه وتعالى أنواعاً من البلاء يصاب بها الإنسان ، فإذا واجهها بالصبر جاءت البشارة وحصل له الفوز ، قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ

(١) صحيح البخاري: ١٢٢٣ .

مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا
إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ، أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة/ ١٥٥-١٥٧﴾ . فقد أفادت الآية الكريمة أن الصابرين يفوزون بثلاث
خصال : ١- أولئك عليهم صلوات من ربهم . ب- ورحمة . ج- وأولئك هم
المهتدون . « (١) .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر بأن النبي صلى الله عليه وسلم الذي علّمنا القيام
بالعبادات بالوسيلة التطبيقية في مثل قوله : " صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي " (٢) . وقوله : " خُذُوا
عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ " (٣) . فقد علّمنا بالوسائل التطبيقية أيضاً مبدأ الصبر . فهو الذي قاسى أمرَّ
أنواع المحن في سبيل الدعوة الإسلامية ، ليقول بلسان حاله لجميع الدعاة من بعده ؛ اصبروا
كما رأيتموني أصبر . وليبيّن أنّ مبدأ الصبر على الشدائد من أهم مبادئ الإسلام التي بعث
بها إلى الناس كافة .

إحدى عشرة سنة والرسول صلى الله عليه وسلم يعاني من غربة هائلة بين قومه
وجيرانه والقبائل المحيطة به ، فلا ييأس ولا يضجر . إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر
المتواصل في سبيل الله وحده ، يؤخذ منها الدرس العظيم عن الصبر وفن الصبر على جميع
الشدائد والمكاره في سبيل الله عز وجل .

« إن ما يلاقيه الدعاة إلى الله سنة إلهية تقتضيها حكم ثلاث :

أ - صفة العبودية الملزمة للإنسان .

ب - صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية .

ج - إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين . فلو ترك الناس لدعوى الإسلام

(١) الحب بين العبد والرب ، ص ٥٨ و ٦٠ .

(٢) فيض القدير للإمام المناوي : ٧٠١٥ . ومسند الشافعي ، الباب السابع : ٣١٩ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي : حرف الباء ٤١٢٤ .

ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط لاستوى الصادق والكاذب ، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق من الكاذب ، وصدق الله القائل في محكم كتابه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ _ آل عمران / ١٤٣ _ . . . »^(١) .
 فالصبر إذن من الفضائل التي يعتصم بها المؤمن فتخفف من آلامه حين يرى وقاحة الطغيان وغلبة الشهوات . من أجل كل هذا ذكر الصبر في أكثر من سبعين موضعاً من القرآن ، ووعد المتحلّين به بأجر عظيم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ _ النحل / ٩٦ _ .

ثانياً - ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ والمصابرة هي مفاعلة من الصبر؛ مصابرة هذه المشاعر كلها ، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلّوا من صبر المؤمنين ، فلا ينفذ صبر المؤمنين على طول المجاهدة ، بل يظلّون أصبر على أعدائهم وأقوى ، أعدائهم من كوامن الصدور ، وأعدائهم من شرار الناس . وإذا كان الباطل يصبر ويمضي في الطريق ، فما أجدد الحق أن يكون أشد إصراراً وأعظم صبراً على المضي في الطريق . فغالبوا أهواءكم ، وجاهدوا نفوسكم الأمارة بالسوء ، وأخضعوها لأمر الله .

ثالثاً - ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ المراقبة ؛ هي الإقامة في مواقع الجهاد وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء . وقيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه ؛ مرابط ، وإن لم يكن له مركب مربوط . وقد وردت الأخبار بدعوة الإسلام إلى اليقظة والتنديد بالغفلة ، والتحذير من الركون إلى الأعداء . روى سهيل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رباطٌ يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها " ^(٢) .

وثمة أحاديث أخرى في هذا المعنى ، وفي مجموعها تحذير لنا من الفئات المستغلة

(١) فقه السيرة ، د . محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ١١١ .

(٢) البخاري في الكتاب ٦٠ ، باب ٧٢ ، حديث : ٢٧٣٥ . وحديث رقم : ٣٠٧٨ .

بشتى أنواع الاستغلال في العالم قديماً وحديثاً ، والمتمثلة اليوم بالمستعمرين وأذئابهم ، لا يقض مضجعهم ويقطع دابر جبروتهم وسيطرتهم واستغلالهم إلا الإسلام ، بما يحمله من عدل وقيم ومثل ، لذلك فهم في حرب ضروس دائمة ضده .

يقول الدكتور فتحي الدريني : « إزاء هذه الحرب التي يشنها أعداء الإسلام عليه ، قضت حكمة الله عز وجل بتشريع الجهاد والمرابطة . فإذا كان للمسلمين جند مرابطون يحمون حدودهم ويحرسون ثغورهم ، ردّوا كيد أعدائهم في نحورهم ، وصانوا أرضهم من رجس الغادرين . وإن هذه الحماية التي يقوم بها الجند المرابطون تبعث الطمأنينة في النفوس المؤمنة ، فيشعر كل مواطن أنه في مأمن على دمه وماله وعرضه ، وعندها تنتشر السعادة ، ويسود الاستقرار ، وتزدهر الأوطان . والمرابطة اليوم لم تعد تقتصر على حماية الحدود مع العدو من قبل الجنود ، بل أصبحت تتناول أيضاً ذلك الموظف أو المجند الذي يراقب أجهزة (الرادار) حتى لا تنتهك حرمة سماء الوطن طائرة معادية . والمقاتل الذي يجلس في قاعدة الصواريخ ينتظر الأوامر ليقذف حممه على العدو فيذهب بصلفه وكبرائه وأمثال هذا وذاك من حراس الوطن وحماة العقيدة ، كلهم أضحووا في عداد المرابطين . »^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط " ^(٢) . وهذا الكلام في الرباط لا يعارض ما ذكر أعلاه عن الرباط ما دام في ذلك طاعة لله وامثال لأوامره .

رابعاً- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم وأحوالكم ، واحذروا إتيان ما يغضب الله عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ في دار البقاء ، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المرابط في سبيل الله في منجاة من العذاب فقال : " عينان لا تمسهما النار ؛ عين بكت من خشية الله ،

(١) التربية الإسلامية للصف الثالث الإعدادي ١٩٧٩ / ١٩٨٠ .

(٢) صحيح مسلم : ٤١ / ٢٥١ .

وعين باتت تحرس في سبيل الله" (١).

وروى سلمان الفارسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعملهُ وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان" (٢).

وقال أهل المعاني في معنى هذه الآية : يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي ، وصابروا على نعمائي ، ورابطوا على مجاهدة أعدائي ، واتقوا محبة سوائي ، لعلكم تفلحون بقلائي .

الأقوال كثيرة في هذا الباب ، وقد حصر أحدهم إرشادات الآية بقوله : اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة ، واتقوا ما يعقبكم الندامة ، لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة .

(١) أخرجه الترمذي عن ابن عباس برقم: ١٦٩٠ ، والجامع الصغير عن أنس برقم: ٥٦٤٧ .

(٢) صحيح مسلم: ١٩١٣ .

الداء التاسع عشر: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذهَبْنَ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

— النساء/ ١٩ —

لقد اختلفت النظرة إلى المرأة عبر التاريخ ، ومن أمة إلى أخرى ، كما اختلفت النظرة إلى الإنسان ودوره وأهميته في الحياة . وتأرجحت النظرة إلى العلاقة بين الجنسين كما تأرجحت النظرة إلى المرأة بين اعتبارها كائنًا منقطعًا أشبه بالأشياء منه بالأحياء ، إلى اعتبارها شيطانًا يوسوس بالشر والخطيئة ، إلى اعتبارها سيدة المجتمع ، إلى اعتبارها عاملة عليها أن تكافح وتشقى لتعيش ، ثم تحمل ، وتضع ، وتربي . .

جاء الإسلام و عني بتصحيح النظرة إلى المرأة ، وبإقامة العلاقة بين الجنسين على أساس من حقائق الفطرة ، وبتوضيح هذه العلاقة في كل فرع من فروعها النفسية والعملية ، بحيث لا تضطرب ولا تتأرجح ولا يكتنفها الغموض في زاوية من زواياها . . عني أولاً بوحدة الزوجين ، وتساويهما (من الناحية الإنسانية) ليقضي على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم أن المرأة جنس منقطع بذاته عن الرجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . . ﴾ النساء/ ١ — .

وعني ثانياً ببيان وحدة الزوجين وتساويهما من ناحية علاقتهما بربهما وجزائهما عنده : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ

بعض . . ﴿آل عمران/ ١٩٥﴾ .

وعني ثالثاً بيان نوع الصلة بين شِقَيِّ النفس الواحدة ، وأهداف هذه الصلة المتنوعة ، سواء ما يختص منها بالزوجين ، أو بالمجتمع الإنساني كله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ _ الروم/ ٢١ .

وعني رابعاً بتنظيم الصلة بين الجنسين في كل أحوالها وأطوارها ، وما يشتركان فيه ، وما ينفرد به كل منهما وفقاً لتكوينه الفطري ووظيفته في المجتمع الإنساني القائم عليهما كليهما . فبينَ حقَّهما معاً في أصل الملكية والكسب والميراث . . وبين نظام قيام الأسرة ، ونظام التعامل بينهما في الأسرة ، وحقوق كل منهما على الآخر ، وحقوق الأطفال الناشئين ثمرة التقائهما كذلك . . . فالعلاقة تبدأ بمهر . . والمرأة لا تورث كالماتع ، ولا تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها لتفتدي نفسها من أهل الزوج ، ولا تمسك بعد الطلاق ضراراً حتى تفتدي نفسها من الزوج ، كما هي الحال في الجاهلية . . .» ^(١) .

وللإقلاع عن هذه العادة الجاهلية وتقاليدها السيئة التي تدل على احتقار للمرأة وعدم اعتراف لها بالحقوق الإنسانية ، فتنزل بها إلى درجة أشبه ما تكون بالسلعة منها بالإنسان ، للإقلاع عن هذه المعاملة السيئة جاء هذا النداء الإلهي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ فبينَ أنها ليست متاعاً يورث . فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زوَّجوها ، وإن شاؤوا لم يزوَّجوها ، وهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج أيضاً عن السدي قال : إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فالقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه ، أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهم أحق بنفسها ، وعلى ذلك يكون المعنى : لا يحل لكم أن ترثوا آباءكم وأقاربكم نكاح نسائهم وهنّ لذلك

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ٥٧-٥٨ .

كارهات . وهذه هي النعمة الأولى .

النعمة الثانية : كانوا إذا تزوج أحدهم امرأة ، وكرهها ، حبسها ، وعضلها ، حتى تفتدى منه . فنهوا عن ذلك ، إلا أن تأتي بفاحشة مبيّنة ، فيجوز حبسها . وقيل عن الفاحشة هي الزنا . وقيل : هي النشوز . والأولى أن تعم ذلك .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قوله ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ يقول : لا تقهروهن ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ يعني الرجل يكون له المرأة وهو كاره لصحبته ، ولها عليه مهر ، فيضربها لتفتدي . وقال آخرون : الذين نهوا عن العضل هم أولياء الميت الذين يرثون زوجته ، ويمنعونها من الزواج حتى تموت فيرثونها . والعضل : الحبس والتضييق . ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ فيجوز حبسها ، وقيل : الفاحشة هي الزنا ، وقيل : هي النشوز ، والأولى أن تعم ذلك .

النعمة الثالثة : كان الرجال يسيئون عشرة النساء ، فيغلظون لهن القول ، ويضاروهن ، فقال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي صاحبهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ، لبناء أسرة متفهمة لمسؤوليتها في الحياة . ولو عمل المسلمون بهذا الأمر لسعدت الأسر ، لأن أكثر أسباب شقاء الأسر ترجع إلى سوء العشرة و تعدي الرجل على المرأة في حقوقها . فالإسلام وضع لكل من الزوج والزوجة حدوداً واضحة يتميز فيها حق كل واحد تجاه الآخر ، وهي حقوق متكافئة تقوم على دعامتين أساسيتين : العدل والحب . فالعدل هو دعامة التشريع الإسلامي في كل الأمور . والحب هو روح المعاشرة الزوجية ، بل روح التربية الإسلامية السليمة . فأية الروم/ ٢١ التي ذكرناها قبل قليل توحى بوجود نسب روحي يربط بين المرأة والرجل ، وينتج عن ذلك السكن النفسي والحب القلبي اللذين يثمران الحب والمودة والرحمة . وهذا يقتضي أن يفهم كل من الزوجين شخصية الآخر بحيث يتغاضى عن بعض السلبيات ، وينمي الإيجابيات في شخصية صاحبه ليدوم الود ، فلا تعصم عرى الزوجية لأول نزوة . وما أعظم قول عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه لرجل أراد أن يطلق زوجته لأنه لا يحبها : (ويحك ، ألم تُبْنِ البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية ، وأين الذمم ؟).

﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ ﴾ فلا تفارقوهن للكرامة وحدها ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ كأن يعطفكم عليهن فيجعل منهن لكم زوجات راضيات ، أو يرزقكم منهن بأولاد صالحين تقر بهم عيونكم . ورد في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يفرّك (لا يبغض) مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر " .^(١)

النعمة الرابعة : قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا . ﴾ النساء / ٢٠ - أي إن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها فلا يباح لكم أن تأخذوا من المهر المدفوع شيئاً ، فقد ثبت حقهن بعقد النكاح الذي أباح الله لكم بموجبه الاستمتاع بالمعاشرة الزوجية .

« أخذ بعض الفقهاء من هذه الآية دليلاً على جواز المغالاة في المهور . روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر : أيها الناس ! لا تغالوا في مهور النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية . فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر : يعطينا الله وتحرمنا ! يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ فقال رضي الله عنه : أصابت امرأة وأخطأ عمر »^(٢) . إلا أن كثيراً من الناس أخذوا يغالون في المهور ، مع أن خير المهور أيسرها وأسهلها ، والله أعلم .

(١) صحيح مسلم ، ١٤٩٦ .

(٢) صفوة التفاسير : ١ ص ٢٦٨ (عن الكشف / ١ / ٣٧٩) .

النداء العشرون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾
النساء/ ٢٩

درس آخر من دروس التربية الإسلامية ، يخاطب الذين آمنوا لتطهير نفوسهم من
رواسب الجاهلية ، ويستفز ضمائرهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا﴾ ، ويدخل
تحت الأكل جميع التصرفات التي تجلب المال للاستفادة منه ، وإنما خص الأكل بالذكر
لأنه من أهم ما يستفيد به الإنسان من الأموال ، وبدونه لا تستقيم الحياة . ﴿أَمْوَالَكُم﴾ التي
ملكها الله لكم ، و لكل إليكم أمر استخراجها والتصرف فيها ﴿بَيْنَكُم﴾ بأن يضع أحدكم
يده على مال الآخر ﴿بالباطل﴾ والباطل ؛ الزائل ، الزائل ، والمراد منه غير وجه الحق .
فيكون المقصود : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بطريق غير
مشروع ، وهو كل طريق لم تبحه الشريعة : « كل طريق للسعي وجمع المال حلال ، إلا ما
كان عن ثلاث طرق : أ- الظلم . ب- الغش ؛ فلا يباح جمع المال عن طريقهما ، ولذا
حرم الإسلام الربا والقمار والاحتكار والغصب والسرقة ، وما أشبهها لأنها ظلم ، كما حرم
التغريب والربح الفاحش وإخفاء العيب في السلعة ، والكذب في رأس المال وغير ذلك من
البيوع المحرمة ، لأنها غش .

ج- الإضرار بالمجتمع ؛ كالاتجار بالخمر والاتجار مع العدو ، والربح عن كل طريق
يفسد الأخلاق العامة »^(١) . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ استثنى
العمليات التجارية التي تتم بين البائع والشاري . فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة

(١) الأحوال الشخصية في الأهلية والوصية والتركات : ص ٤٠٨ .

والمستهلك ، تقوم بترويج البضاعة وتسويق ، ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها معاً ، وهي خدمة للطرفين ، وانتفاع عن طريق المهارة والجد ، ويتعرض في الوقت ذاته إلى الربح والخسارة . وهذان شرطان للأموال التي يؤكل منها ؛ أحدهما أن تكون مشتركة بينكم ، ولا تعلمون إن كانت رابحة أو خاسرة . وثانيهما ؛ أن يكون الأكل من مال التجارة حاصلًا عن تراض بين الأطراف المعنية بهذه التجارة .

« والتجارة تشمل عقود المعاوضات المقصود الربح ، وخصها بالذكر من أسباب الملك لكونها أغلب وقوعاً في الحياة العملية ، ولأنها من أطيب وأشرف المكاسب . . وأخرج الأصبهاني عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يطلوا ، وإن كان لهم لم يعسروا " ^(١) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قتلاً حقيقياً بالانتحار ، أو مجازاً بقتل بعضكم بعضاً ، لما يؤدي إليه من المطالبة بالتأثر والمقابلة بالمثل والقصاص . وقيل : لما كان المال شقيق الروح من حيث أنه سبب قوامها وبه صلاحها ، حسن الجمع بين التوصية بحفظ المال والتوصية بحفظ النفس . وهناك رأي آخر ؛ أن في هذا النهي إحياء بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة . إنها عملية قتل ، يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها حين ينهاهم عنها ، وإنها لذلك ، فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة بالربا والغش والقمار ، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها وتردّي في هاوية الدمار . والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ في تشريع ما يحفظ أموالكم ودماءكم .

فالداء المذكور يستفاد منه في ثلاثة أمور رئيسية :

(١) التفسير المنير : ج ٥ ، ص ٣١ ، وحديث التجار ذكره في زيادة الجامع الصغير برقم : ٨٠٥ .

١- عدم الاعتداء على أموال الآخرين وممتلكاتهم ، ولئن كان المال في الحقيقة هو الله تعالى لقوله : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾_المائدة/ ١٢٠_ ، وإنما يملكه الإنسان مجازاً ، فهو مؤتمن عليه لقوله تعالى : ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ .
ويترب على هذا أن الإنسان ملزم بالتقيد بأوامر الله سبحانه في التملك بحسب ما يريده صاحب الملك .

«إن نظام الإسلام الاقتصادي والاجتماعي يمنح الفرد قدراً من الحرية بحيث لا يطغى على كيان الآخرين ، ويمنع المجتمع أو الدولة التي تمثله سلطة واسعة في تنظيم الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أساس من الحب المتبادل بين الفرد والجماعة لا على أساس الحقد وإيجاد العداوات بين الناس . . . ولكنه لا يعطي المالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أي قيد ، فهو لا يسمح بالربا والاحتكار ، ولا أن تكون الملكية سبيلاً للاستغلال والظغيان . . . وبعبارة أخرى : لا يمنع الإسلام الملكية الفردية مطلقاً ، ولا يطلقها بلا حدود ، لقوله تعالى : ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : "كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه"^(١) ، وقوله أيضاً : "لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه"^(٢) . وعلى هذا فيحرم التعدي على ملكيات الأفراد ما دامت مشروعة . لذلك قرر الإسلام عقوبات على السرقة ، والغصب ، والنهب ، والسلب ، والغش . وطالب بضمان الأموال المتلفة . وأما الملكية غير المشروعة فيجوز للدولة التدخل في شأنها لرد الأموال إلى أصحابها ، بل إن لها الحق أحياناً في مصادرتها ، سواء كانت منقولة أو غير منقولة . . .»^(٣) .

(١) رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة .

(٢) زيادة الجامع الصغير/ ٣٨٩١ عن خيفة الرقاشي ، وأخرجه الدارقطني في سننه بلفظ : لا يحل لامرئ من مال أخيه شيء إلا ما طابت به نفسه .

(٣) الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد ، ص ٣٣٩ و ٣٤٠ .

٢- التشجيع على التجارة وأساليبها المشروعة من بيع وشراء وعقود وشركات العنان وأمثالها مما يكون بتراضي الأطراف المعنية بالتجارة .

٣- النهي عن قتل النفس ؛ كأن يقتل الإنسان نفسه في حال غضب أو ضجر ، أو يقتل غيره . فقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً"^(١) .
فمن لحقه من الغم والأذى أو الخسارة المادية ما يظن معه أن الانتحار عليه أسهل فقد ارتكب ما حرم الله ورسوله ، ومجرد التفكير في هذا الأمر فيه دلالة على ضعف الإيمان .
ولكن جمهور المفسرين على أن المعنى : لا يقتل بعضكم بعضاً ، وإنما قال (أنفسكم) مبالغة في الزجر . وقد ورد في الحديث : "المؤمنون كالنفس الواحدة" . «ولا مانع من أن تكون الآية نهياً عن قتل أنفسهم ، وعن قتل بعضهم بعضاً ، وعمّا يؤدي إلى ذلك كتناول المخدرات ، واستعمال السموم الضارة بالجسم ، والمجازفة فيما يخشى منه الهلاك»^(٢) .

(١) صحيح البخاري/١٢٩٧ ، وصحيح مسلم/١٠٩ .

(٢) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ٨٧ و٨٨ .

النداء الحادي والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

— النساء/ ٤٣ —

هذا النداء حلقة في سلسلة التربية الربانية للمسلمين الأوائل الذين أنقذهم الله تعالى من ضلال الجاهلية ، حيث كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي قبل الإسلام ، وتكاد تكون ظاهرة مميزة لهم ، كما تميّز بها المجتمع الروماني ، وكذلك المجتمع الأوربي والأمريكي ، ولم تفلح بعض المحاولات في القضاء على هذه الظاهرة ومثيلاتها . أما الإسلام فقضى عليها ببضع آيات من القرآن الكريم . والشواهد كثيرة على اعتناق العرب للخمر في الجاهلية ، وقد أوردوها بعضهم في أشعارهم أو مقالاتهم وندواتهم . لذا حين جاء الإسلام استعمل مع شاريها المنهج التربوي الذي عرفناه عن القرآن الكريم ، فقد لجأ الإسلام إلى تحريمها بآيات قرآنية تنزل بين كل فترة وفترة تكشف عن آثام الخمرة وعن آثارها السيئة ومضارها الخلقية والاجتماعية والدينية . فأول ما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ — النحل/ ٦٧ — ، فقابل بين السكر والرزق الحسن ، ليشعر أهل العقول الراجحة أن الخمر شيء والرزق الحسن شيء آخر ، حتى تتنبه أحاسيسهم على التحريم فيما بعد . وظل عمر بن الخطاب يشرب الخمر في الإسلام حتى نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

نفعهما ﴿البقرة/ ٢١٩﴾ . وكانت هذه هي الطريقة الأولى التي رجّحت جانب الإثم على جانب النفع التجاري لتزحزح النفس عن عاداتها المستحكمة فيها . فما دام إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما فهذا مفرق الطريق ، ولكن الأمر كان أعمق من هذا . وقال عمر رضي الله عنه : (اللهم بين لنا بيناً شافياً في الخمر) . ثم حدثت أحداث تذكر واحداً منها على سبيل المثال : فقد روى أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا ، وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة ، فقدموا فلاناً ، قال : فقرأ قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ، ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ «وعلى هذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه بوجوب معرفة اللغة العربية على كل مسلم لفهم ما يقوله المسلم في الصلاة ، خشية أن يقع في التغيير أو التحريف والتبديل في آيات القرآن . يؤيد هذا ما روي في حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه " .^(١)

وهذا النداء هو المرحلة الوسيطة بين التنفير من الخمر ، وبين التحريم القطعي الذي جاء في الآية (٩٠/ المائدة) ، وسيرد ذكرها في نداء آخر بإذن الله .

إذن كانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة ؛ ذكر أثر الخمر السيئ على العقول ، عدا عن تحذير المؤمنين من أن يكون السكر وصفاً لهم عند إقبالهم على الصلاة . وامثال هذا النهي إنما يكون بترك السكر في وقت الصلاة ، أو فيما يقرب من وقتها . وبما أن أوقات الصلاة موزعة على مدار النهار ، والفترات التي بينها لا تكفي للشرب ، ثم الإفاقة من

(١) تفسير الخطيب، ج ٥، ص ١٩ . والحديث ذكره البخاري في باب الوضوء/ ٢١٠ . وذكره مسلم في صلاة المسافرين/ ٧٨٦ .

السكر ، حتى يعلموا ما يقولون ، فضلاً على أن للشراب أوقاتاً ومواعيد خاصة صباحاً ومساءً ، وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة . وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة ولذة الشراب . وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الدين . ومع ذلك فقد قال عمر رضي الله عنه : (اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر) حتى نزلت آية التحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنُبًا ﴾ نهي عن الصلاة في حال الجنابة ، حتى يغتسلوا . ولما كان دخول المسجد من مقدمات الصلاة استثنى الله المار بالمسجد بغير قصد الصلاة فقال : ﴿ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ مجرد عبور دون قصد أداء الصلاة ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ بالماء ، إذ الغسل من الجنابة شرط لصحة الصلاة . ولما كان الغسل بالماء قد يتعذر وينتهي وقت الصلاة المفروضة ، والشارع الحكيم لا يسمح بتركها ، فقد رخص الله للمؤمنين باستعمال التراب بدلاً من الماء في أربع حالات وهي :

- الحالة الأولى : ما يضر فيها استعمال الماء : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ﴾ مرضاً يقرر أهل الخبرة أنه يؤدي إلى إلحاق ضرر بكم .

- الحالة الثانية : عند تعذر البحث عن الماء : ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ لما في الوضوء في هذه الحالة من المشقة التي خول الله له بسببها القصر والجمع في الصلاة ، والإفطار في شهر رمضان ، فترك الغسل والوضوء من باب أولى ، إذا تأكد المسافر عدم وجود الماء على مسافة قريبة منه .

- الحالة الثالثة : قيام حدث أصغر ؛ ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ والغائط ؛ مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه ، فكفى عن الفعل بالمجيء من مكان الفعل .

- الحالة الرابعة : قيام حدث أكبر ، والمراد به الجنابة ، وكفى عنها بقوله : ﴿ أَوْ لَا مَسْتَمُ السَّاءِ ﴾ وفي تفسير الملامسة أقوال : قيل إنه كناية عن الجماع فهو يستوجب الغسل . وقيل إنه يعني حقيقة اللمس ، لمس أي جزء من جسم الرجل لجسم المرأة ، وهو يستوجب الوضوء في بعض المذاهب ولا يستوجب في بعضها ، (وفي كتب الفقه تفصيلات

لهذه الحالة ولكل سنده من أفعال أو من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمرجح في معنى ﴿لَمْ يَسْتَمِمْ النِّسَاءُ﴾ كناية عن الفعل الذي يستوجب الغسل .

وفي الحالات التي ذكرناها حين يكون الماء مفقوداً ، أو موجوداً ولكن استعماله يكون ضاراً أو غير مقدور عليه يغني التيمم عن الغسل والوضوء لقوله تعالى : ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ أي فاقصدوا الأرض الطاهرة التي خلقت منها ، والتي لا تكاد تفقد في جميع البلاد وفي جميع الأوقات . وخشية أن يفهم الناس من هذا أن المراد استعمال الصعيد بمثل ما كانوا يستعملون الماء ، أوضح المراد من التيمم وكيفيته بقوله : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ منه ، أي يكفي في استعماله بالقدر الذي يؤدي الغاية من الوضوء والغسل من إظهار الطاعة والحرص على المواظبة في أداء واجبات الوضوء والغسل أو ما ينوب عنهما ، وهو ما كان من جنس الأرض من تراب أو حجر أو حائط . ويكفي خبطة واحدة بالكفَّين على الصعيد الطاهر ، ثم نفضهما ، ثم مسح الوجه ، ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما . وإما خبطتان (ضربتان) خبطة يمسح بها الوجه ، وخبطة يمسح بها الذراعين (خلاف فقهي) ، فالدين يسر ، وفي مشروعية التيمم ما يؤكد معنى التيسير ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ يعفو عما كان منكم من قيامكم للصلاة وأنتم سكارى ، ويسترد ذنوبكم فلا تعودوا لمثلها فيعود عليكم إثمهم وعذابه . إنه التعقيب الموحى بالتيسير والمغفرة في حال التقصير .

أخيراً يستشف من النداء المذكور حكمة جليلة من حكم التشريع الإلهي ، وهي أن العبرة في العبادات بمقاصدها . ولذلك لم يشترط استعمال الماء للوضوء والغسل في حال قيام المانع ، وأمر بالعدول عن ذلك إلى استعمال التراب لينتفي بذلك ما قد يتوهم من أن القصد منهما هو مجرد النظافة . ليفهم الناس بأن الغاية الحقيقية من الوضوء أو الغسل إنما هي طاعة الله والخضوع لأوامره . وفي هذا قطع لدابر المماحكين الذين يحاولون أن يوجدوا تعليلاً لكل عبادة . فما ذكره البعض عن حكمة الصلاة أو غيرها قد يكون مقصوداً ولكن الجزم يتجاوز المنهج السليم والحد المأمون ، والله أعلم .

النداء الثاني والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

النساء/ ٥٩

الأصل في الطاعة ؛ الانقياد ، وهو امتثال الأمر . فطاعة الله امتثال أوامره فيما أمر ، والانتهاة عما نهى عنه . وهي واجبة على كل الخلق . وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا النداء قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ _الذاريات/ ٥٦_ . وهذه العبادة في معانيها وأركانها تناولها كتابنا (الإعجاز في القرآن/ طريق إلى الإيمان) . وثاني ما يتبادر إلى الذهن ضرورة العمل بكتاب الله تعالى الذي ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ، فهو المنهج الذي لا محيد عنه ، وفيما تضمنه نداءات كثيرة للذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتتجلى طاعة الله ورسوله بالاستجابة لهذه النداءات عملاً صادقاً لا تلاوة للتبرك فقط .

فالفقرة الأولى من النداء المذكور أعلاه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ تعني الاستجابة إلى منهج الله عقيدة وعملاً مخلصاً ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ _البينة/ ٥_ .

أما الفقرة الثانية من النداء : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فهي دعوة عباد الله إلى طاعة رسول الله في كل ما يأتي به من قول أو فعل أو تقرير ، لتوضيح ما أشكل فهمه من القرآن ، وتفصيل مجمله . وفي تكرار لفظ (الطاعة) إشارة إلى أن السنة أصل من أصول الشريعة الإسلامية بعد القرآن ، ولدفع ما يوسوس به الشيطان إلى قلوب بعض الناس من أنه إذا

كانت طاعة الله واجبة باعتباره مالك الملك ، ما علاقة الرسول بذلك ؟ من أجل دفع هذه الوسوسة كرر تعالى كلمة الطاعة فقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فالقرآن هو المنهج ، والرسول هو المكلف بتبليغ هذا المنهج وبيان المراد منه ، وما يحتاج إلى توضيح ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ _ النحل / ٤٤ _ ، فالعبادات من صوم وصلاة وحج وزكاة ونظام الأسرة وغيرها قد جاءت في القرآن بشكل مجمل ، تولّى النبي ﷺ الله عليه وسلّم بيانها وتحديد جزئياتها . وسنزيد هذا المعنى إيضاحاً في دعوة أخرى من الله لطاعة رسوله .

الفقرة الثالثة من الطاعة المطلوبة في هذا النداء : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وطاعة أولي الأمر تستوجب قبل كل شيء الرجوع إلى الآية التي سبقت هذا النداء ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ _ النساء / ٥٨ _ ففي مضمونها توجيه أولي الأمر بأن يؤدّوا الأمانات ، وأن يحكموا الناس بالعدل . والأمانات كثيرة في شرع الله ، منها الأمانة الكبرى التي أناط الله بها فطرة الإنسان وهي أمانة الهداية والمعرفة ، ومنها أمانة التعامل مع الناس والمحافظة على حرمة الجماعة وأموالها ، ومنها الحكم بين الناس بالعدل لأن العدل أساس الملك . فالنداء يوجه الرعية نحو طاعة الله أولاً وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويوجه نحو طاعة الرسول ثانياً فيما أمر به أو نهى عنه ، ثم طاعة أولي الأمر فيما لا يخالف أمر الله ورسوله ، وهذا رأي جمهور العلماء . وروي عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما أن المقصود بأولي الأمر ؛ العلماء الذين يفتون في الأحكام الشرعية ويعلمون الناس أمور دينهم . « ويرى الفخر الرازي أن المراد من أولي الأمر ؛ أهل الحل والعقد ، ويريد من ذلك أن يستدل على حجية الإجماع ، وهو يدعم رأيه بأن الله تعالى ذكر ثلاثة واجبة طاعتهم ؛ الله ، ورسوله ، وأولو الأمر . والله ورسوله مقطوع بعصمتهم ، فوجب أن يكون أولو الأمر كذلك ، ولا تجد من أولي الأمر على ما ذكره المفسرون من هو واجب العصمة إلا أهل الحل والعقد عند

اجتماعهم على أمر من الأمور ، "لن تجتمع أمتي على ضلالة" فينبغي أن يكون المراد من أولي الأمر أهل الحل والعقد ، ويكون ذلك دليلاً على حجية الإجماع^(١) .

وقد يختلف أهل الحل والعقد في الحكم الواحد ، لذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وذلك بعرض الموضوع على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله من القواعد العامة والسنن المطردة ، بطريق القياس على الأشباه والنظائر ، فما كان موافقاً لها يعدّ قاطعاً ويجب الأخذ به .

روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، ويؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " ^(٢) .

وفي رواية عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية . ومن قاتل تحت راية عمية ، يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة ، فقتل ، فقتله جاهلية . ومن خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفى لذي عهد عهده فليس مني ولست منه " ^(٣) . ومما يرشد إليه هذا الحديث أنه « جاء من أجل استمرار الوحدة التي أنعم الله بها على العرب بعد أن كانوا في حالة يندي لها الجبين من الفرقة والانقسام . فحذّرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من العودة إلى أساليب الجاهلية المقيتة التي لا يحصد المجتمع من ورائها

(١) تفسير آيات الأحكام : ٢ ص ١١٧ .

(٢) أنظر صحيح البخاري ج ٢ ، باب ١٠٧ ، حديث ٢٧٩٦ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة / ١٨٥١ . والراية العمية ؛ القتال تحت راية اجتمع أهلها على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل . أما عصبة الرجل فأقاربه ؛ أي ينتصر لقراية أو جماعة من غير حق .

إلا الذلة والهوان . فكان مما حذر منه ؛ الخروج من الطاعة ، ومفارقة الجماعة . فالخروج من طاعة الحاكم العادل ، والانشقاق عن جماعة المسلمين يعرض كيان الدولة للانهار ، ويجعل الفرصة سانحة أمام أعداء الأمة للنيل منها والاعتداء على حرمتها ومقدساتها وحدودها . لهذا فقد أكد التشريع التزام الطاعة لولاة الأمور . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، ما أقام كتاب الله فيكم " ^(١) . وأوجب على الأمة مناصرة الحاكم الملتزم لحدود الله ، والقضاء على فتنة الخارج عليه ، المفتت لوحدة الأمة . . . " ^(٢) .

عن أبي هنيذة وائل بن حجر قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ؛ أ رأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم سأله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حمّلتم " ^(٣) .

بالمقابل فإن الله تعالى يحث السلطان أو الحاكم على أن يحكم بالعدل ، وأن يتخذ بطاقة صالحة ، ويؤدي الأمانة . ولكن السؤال الذي قد يخطر على البال : ماهو مقياس الأمانة والعدل في كل مجال في الحياة ؟ هل هو العرف أو العقل أو الأهواء ؟ لا بد من ميزان ثابت ترجع إليه العقول فتعرف مدى الخطأ والصواب في أحكامها ، والله تعالى وضع هذا الميزان للأمانة والعدل ولسائر القيم ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فردّ ما يتنازع فيه إلى الله ورسوله من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ خير في الدنيا ، وأحسن مآلاً في الآخرة كذلك ، لأن من مزايا المنهج أن صانعه هو صانع الإنسان الذي يعلم حقيقة فطرته وحاجياته .

(١) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه برقم : ٦٧٢٣ .

(٢) د . فتحي الدريني ، التربية الإسلامية للثالث الإعدادي ، عام ١٩٧٩ / ١٩٨٠ م .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ١٨٤٦ / ٤٩ .

فالنداء يؤخذ منه التالي :

« ١- حصر الله تعالى مهمة الحكام في تنفيذ أوامر الله ، ومراعاة واجب العدل بين الناس ، مقابل طاعة الناس لهم ما أطاعوا الله .

٢- على الحاكم الرجوع إلى ذوي الرأي والعلماء ، كل في دائرة اختصاصه ومعلوماته ، حيث يقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ _ الأنبياء / ٢٧ _
فإجماع أهل الاختصاص مصدر من المصادر التي يرجع إليها الحاكم .

٣- مصادر التشريع الأصلية أربعة وهي : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . . . » ^(١) .

(١) التفسير المنير، ج ٥ ص ١٢٩ .

النداء الثالث والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾

النساء/ ٧١ _

لقد أكثر الله تبارك وتعالى من ذكر الآيات التي من شأنها أن تقوي الروح المعنوية في قلوب المؤمنين ، وتجعلهم لا يهابون الموت لأنه أمر لا بد منه ، لأن الحرب من ضمن الوسائل التي قد يلجأ إليها المؤمن مضطراً في سبيل صد أعداء الله وتحقيق مقاصد الإسلام السامية ، ولذلك فمن الخير لهم أن يموتوا في ساحة الشرف من أن يموتوا حتف أنوفهم وعلى فراشهم وقد رسمت بعض آيات المنهج القرآني الخطط العامة للمسلمين ، فأية حضت على قتال العدو الأقرب لحدود البلاد ، وعلى بذل الجهد في هذا القتال فقالت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ . . .﴾ التوبة/ ١٢٣ . وآية حذرت من التقاعس أو التردد إذا دعا داعي الجهاد : ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً . . .﴾ التوبة/ ٣٩ . وفي هذا النداء يأتي التوجيه الإلهي بضرورة أخذ الحذر واتخاذ الاستعدادات المادية والمعنوية . وفي سورة الأنفال جوانب أخرى من التوجيهات العسكرية ، من ذلك : ﴿فَإِذَا تَنَقَّضَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ الأنفال/ ٥٧ .

وهكذا نجد القرآن الكريم لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ، ولا الآداب والأخلاق فقط ، كما يتصور بعض الناس ، إنما هو يعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملاسبات واقعية .

وها هو في هذا النداء يرسم جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة المناسبة لوجودهم بين عداوات كثيرة تتربص بهم الدوائر من الخارج ، ولوجود المنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل . وحين انطلقت الدعوة الإسلامية كانت عداوات الفرس والروم وحلفائهم من

الخارج ، واليوم نرى عداوات تتخذ أشكالاً مختلفة . لذا فالخطاب موجه للمسلمين في كل الأزمنة ، ما دام هناك أعداء يسعون للنيل منهم ومن الشريعة الإسلامية . من أجل كل هذا حذّره ابتداء بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ والحذر بمعنى التيقظ من المخاوف . أو احترزوا من العدو بأخذ الأهبة والاستعداد من الناحيتين المادية والمعنوية . وهذا يجب أن يكون مفهوماً ضمناً لدى المؤمنين الذين جاءهم القرآن بالقواعد الكلية ، وترك الإحاطة بالجزئيات إلى أفهام رجال العلم والعقل مع إرجاعها إلى تلك القواعد . وقد أحاط علماء الإسلام وفقهاؤه بكثير من الجزئيات التي دعت إليها حاجة كل عصر ، وسدّوا حاجة زمانهم .

فالاستعداد المعنوي يتم بتغذية الروح والنفس بالعبادات الصادرة عن العقيدة التي ارتضاها الله لخلقه ، وثقيف الجند وبيان معنى الصبر والمصابرة وأثر ذلك في تحقيق النصر على الأعداء . وقد مرّ معنا النداء الداعي إلى الصبر والمصابرة والمرابطة . ومن التربية النفسية أيضاً بيان أن النصر ليس بكثرة العدد والعدد لقوله تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة ٢٤٩ . وكذلك يكون الإعداد المعنوي ببيان الهدف من اتخاذ الحيلة والحذر ، وبيان الهدف من الجهاد وثمرته .

أما الاستعداد المادي فيكون بتربية الأجسام والعناية برياضتها ، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خيرٌ " (١) . وكذا يكون بسلوك طريق الجد في الحياة ، لأن الحرب لا يستطيع ممارستها المائعون المترفون . ويكون الحذر أيضاً بحشد السلاح الذي يتفق وروح العصر ، وتهيئة المال لإمداد الجند بالغذاء والتموين اللازم والسلاح ، وتوجيه عدد من أبناء الأمة لدراسة العلوم العسكرية والتخصص فيها لوضع الخطط اللازمة للحرب النفسية والدفاعية والهجومية . .

(١) صحيح مسلم : ٢٦٦٤ / ٣٤ .

هذا الحذر ، وهذه الإجراءات لا تمنع من أن يرافقها لجوء إلى أساليب الدبلوماسية السياسية والوساطات الدولية التي يمكن أن تؤدي إلى التفاهم وحقن الدماء . فالإسلام ليس دين بطش وحقد على الآخرين كما أشاع بعض أعدائه ، بل هو دين عقيدة ومحبة ومسألة لمن سالم المسلمين ، ولمن لم يعترض سبل إقامة المجتمع المسلم بكل ما يتطلبه من النظم والمبادئ الإسلامية . ومع اتخاذ أسلوب المباحثات يجب أخذ الحذر من المندسين في الصفوف من المثبتين للهمم والعزائم وأمثالهم . ويجب التعرف على حال العدو ، ومدى استعداده ، ونواياه . فكل ذلك مما يحمل العدو على عدم التفكير في قتالنا أو التعرض لنا بسوء . والمشهور من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام أنه كان يتخذ الأسباب ولا يهملها قبل النبوة وبعدها . فهو الذي تاجر طلباً للرزق ، وهاجر من مكة إلى المدينة من أذى المشركين ، واتخذ في السلم والحرب كل ما يلزم من الأسباب ، حتى إذا جاء أمر أحكم الحاكمين : ﴿ فأنفروا ﴾ هبّ الجميع بمعنويات قوية ، ونفوس مؤمنة صادقة ، و ﴿ ثبات ﴾ ، وهي من ثبت على الأمر ؛ إذا داومه وواظب عليه ، فهو ثابت لا يتزعزع ، والثابت ؛ الشجاع الصادق الحملة . وقيل : ثبات ، جمع ثبة ، أي مجموعة ، والمقصود : لا تخرجوا للجهاد فرادى ، ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ الجيش كله ، حسب طبيعة المعركة ، ذلك أن الأحاد قد يتصيدهم الأعداء المبتوثون في كل مكان ، وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبئين في قلب المعسكر ، كما كان اليهود وبعض المنافقين في قلب المدينة المنورة .

جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية : (هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يأمرهم به بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله وحماية الشرع ، وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم ، ويعلموا كيف يردون عليهم ، فذلك أثبت لهم . . .) هـ .

وأضاف الدكتور وهبة الزحيلي قائلاً : « وأمر لهم بجهاد الأعداء ، وحماية الشرع

وديار الإسلام ، وتخليص المستضعفين ، وألا يقتحموا على عدوهم حتى يستطلعوا ماعنده من قوى وعدد وعُدَد ، لذا قال لهم ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ، وهو تعليم لأسلوب مباشرة الحروب . ولا ينافي أخذ الحذر التوكّل على الله ، بل هو مقام عين التوكّل ، لأن التوكّل ليس معناه ترك الأسباب ، وإنما هو الثقة بالله ، والإيقان بأن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيّه في السعي فيما لا بدّ منه من الأسباب ، وتحرز من عدوّ أو إعداد أسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله المعتادة . . ودلّت الآية على قاعدة من قواعد الحرب أو سياسة من سياسات المعركة وخطّتها ، وهي النهوض لقتال العدو إذا دعا الإمام الناس إلى النفير . . . »^(١) .

ولا تخرج السرايا _ كما ذكرت التفاسير _ إلا بإذن الإمام ليكون متحمّساً لهم ، عضداً من ورائهم ، وربما احتاجوا إلى درئه . إنها حكمة التشريع التي يجب الحرص عليها للحصول على الخير دنیا وآخره .

(١) التفسير المنير ج ٥ ، ص ١٥٥ .

النداء الرابع والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

— النساء/ ٩٤ —

ورد في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة، ولكنها متشابهة في العرض والهدف، وإن اختلفت أسماء الرواة أو الأشخاص الذين نزلت بحقهم. ومن هذه الروايات: « قال ابن عباس: نزلت في رجل من بني ضمرة بن عوف، لم يسلم من قومه غيره، فسمعوا بسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريد، وكان على السرية رجل يقال له: (غالب ابن فضالة الليثي)، فهربوا منه، وأقام ذلك الرجل المسلم، فلما رأى الخيل خاف أن لا يكونوا مسلمين، فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل، وصعد هو الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون، فعرف أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكرر ونزل وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم. فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله، واستاق غنمه. ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبروه الخبر. فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجداً شديداً، وكان قد سبقهم الخبر. فقال الرسول: "أَقْتُلْتُمُوهُ إِرَادَةً مَا مَعَهُ؟" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أسامة ابن زيد هذه الآية. فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فقال: "كيف أنت بلا إله إلا الله يقولها ثلاث مرّات؟" قال أسامة: فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها حتى وددت أنني لم أكن أسلمت إلا يومئذ. ثم استغفر له الرسول وقال: "اعتق رقبة". وروى أبو ظبيان عن أسامة قال: قلت يا رسول الله: إنَّما قالها خوفاً من السلاح. فقال: "أَفَلَا

شَقَّقَتْ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا خَوْفًا أَمْ لَا" ^(١) .

إِذَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْنَاكُمْ ﴾ يَعْنِي ؛ إِذَا سَلَكَتُمْ طَرِيقًا مِنَ الطَّرِيقِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِ دِينِهِ ، أَوْ نَشْرَ دَعْوَتِهِ ، فَتَبَيَّنَتْ حَتَّى تَعْرِفُوا الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ ، وَتَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ الَّذِي تَقْدُمُونَ عَلَيْهِ . ﴿ وَلَا تَقُولُوا ﴾ حَتَّى فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ ﴿ لَمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾ فَحِيَاكُمْ بِهَذِهِ التَّحِيَّةِ وَأَظْهَرِ الْإِسْلَامَ ﴿ لَسْتُ مُؤْمِنًا ﴾ أَيْ لَا نَصْدُقُ إِيْمَانَكَ ، فَلَا تَوْجِدَ قَرَائِنَ تَنَاقُضَ كَلِمَةَ اللِّسَانِ ، أَوْ أَنَّهُ قَالَ التَّحِيَّةَ تَعَوُّدًا أَوْ مَخَادَعَةً . ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَيْ تَطْلُبُونَ بِقَوْلِكُمْ هَذَا الْغَنِيمَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا سَرِيعَةِ النِّفَازِ وَالذَّهَابِ ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ خَيْرٌ مِمَّا تَطْمَعُونَ فِيهِ مِنْ سَلْبٍ مِنْ تَنْكُرُونَ عَلَيْهِ إِسْلَامَهُ .

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا شَرَعَ أَحَدُكُمْ الرَّمْحَ إِلَى الرَّجُلِ فَإِنْ كَانَ سَنَانُهُ عِنْدَ نَقْرَةِ نَحْرِهِ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَلْيَرْفَعْ عَنْهُ الرَّمْحَ " ^(٢) .

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ : إِذَا رَأَى الْغَزَاةَ فِي بَلَدٍ أَوْ قَرْيَةٍ أَوْ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ شَعَارَ الْإِسْلَامِ يَجِبُ أَنْ يَكْفُتُوا عَنْهُمْ ، وَلَا يَغْيُرُوا عَلَيْهِمْ ، لِمَا رَوَى عَنْ عَصَامِ الْمُرَزِيِّ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ جَيْشًا أَوْ سَرِيَّةً يَقُولُ لَهُمْ : " إِذَا رَأَيْتُمْ مَسْجِدًا أَوْ سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَلَا تَقْتُلُوا أَحَدًا " ^(٣) . فَيَكُونُ الْمَعْنَى إِذَنْ :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا سَرَّكُمْ سِيرًا اللَّهُ تَعَالَى فِي جِهَادِ الْكُفَّارِ ، وَرَأَيْتُمْ مِنْ تَشَكُّونَ أَهْوَسَ لَكُمْ أَمْ حَرْبٍ ، فَاطْلُبُوا بَيَانَ أَمْرِهِ وَلَا تَعْجَلُوا بِقَتْلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ اسْتَسْلَمَ لَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا ، أَوْ لِمَنْ أَظْهَرَ إِلَيْكُمُ الْإِسْلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا . تَبْتَغُونَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ مِنْ رِزْقِهِ وَنِعْمَتِهِ فَالْتَمَسُوهَا بِطَاعَتِهِ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ .

(١) تَفْسِيرُ الْخَازَنِ ، ج ١ ص ٣٨٤ . وَالحديث ذكره مسلم برقم ٩٦/١٥٨ .

(٢) زِيَادَةُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ لِلْسَيُوطِيِّ : ٢٥٩ .

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ / ٢٦٣٥ ، وَالتِّرْمِذِيُّ / ١٥٤٩ .

﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ كهذا الذي كان مستخفياً بالإسلام من قومه ، ولما وجدكم أظهر لكم دينه ، وكنتم من قبل مستخفين بدينكم من كفار قريش فمن الله عليكم بإعزاز دينه وتقوية شوكة الإسلام ، فأظهرتم دينكم ، فتبينوا أمر من أشكل عليكم أمره .^(١)

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فلا يخفى عليه إن كان الحكم الذي تصدرونه لكفر أحد أو قتله صادراً بعد تثبت وبقين ، أم هو مبني على مجرد الظن ، أو لغاية شخصية وعرض دنيوي ، أو تحت ضغط أثر من آثار الجاهلية .

فالله _ سبحانه _ يذكر الذين آمنوا بما كانوا عليه في جاهليتهم من تسرع ورعونة وطمع بالغنيمة ، ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم ، فلم يعودوا ينفرون ابتغاء عرض من أعراض الدنيا الزائلة . وبهذا التذكير يلمس المنهج القرآني القلوب لتحيا وتذكر نعمة الله عليها . وعلى هذه الحساسية والتقوى يقيم الشرائع والأحكام بعد بيانها وإيضاحها . ففي آية واحدة أرشدنا إلى التالي :

١- أن الإنسان المؤمن يجب أن يتمهل في إصدار أحكامه على الآخرين ، ولا يتسرع ، ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة .

٢- أن تتحرر القلوب المؤمنة الخارجة للجهاد من كل شائبة من طمع أو غنيمة أو الحصول على عرض من أعراض الدنيا فما عند الله من أجر وثواب أعظم وأبقى مما يحصل عليه الإنسان في الدنيا من مكاسب ومغانم .

٣- لا يحق للإنسان أن يبنى أحكامه على الظنون ، ولا سيما فيما يتعلق بالأنفس ، فإن بعض الظن إثم . ويكتفى في الحكم على الشخص بالإسلام بالنطق بالشهادتين ، أما استبطان الحقيقة وما في القلوب ، فذلك ليس من شأن العباد ، وإنما هو متروك لرب العباد والله أعلم .

(١) تفسير آيات الأحكام ٢ ص ١٢٧ .

النداء الخامس والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

— النساء/ ١٣٥ —

عرفنا أنَّ من خصائص الإسلام أنه دين شامل عالِج جميع المشاكل ، وشرَّع لكل النواحي التي يحتاج إليها الإنسان . وأتينا في نداء سابق على أهمية العدل بين الناس في المعاملات وفي الحكم . وبما أنَّ قوام المجتمع لا يكون إلَّا بالعدل وحفظ النظام ، فقد عبَّ الله تعالى بهذا النداء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إذا أردتم أن تعلموا مني ما ينفعكم ويصلح كافة شؤونكم العامة في الحياة الدنيا ، فإني أرشدكم إلى أساس متين ، إذا عملتم به وحرصتم على عدم تجاوزه في السر والعلن ، نلتم الثقة بين الناس واستطعتم أن تكسبوا ودَّ الجميع ، وتعيشوا معهم في أمن وسلام دائم ، ذلك الأمر : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ ﴾ قَوَّامِينَ ؛ جمع قوام ، وهو المبالغ في القيام بالشيء ، والقيام بالشيء هو الإتيان به على أكمل وجه . فيكون المعنى : تحرَّوا ذلك بدقَّة تامَّة ، حتى يكون ذلك ملكة راسخة في نفوسكم . ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ أي العدل على إطلاقه ، في القول والعمل وفي كل حال ، وفي كل مجال ، والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ، ويتساوى الأصدقاء في ذلك والأعداء ، والأغنياء والفقراء . ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ أي اعتبروا أنفسكم شهوداً لله في كل أمر ، بحيث إذا طلب منكم أن تؤدِّوا الشهادة فعليكم أن تقرروا الحق لا

لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم ، ولا لمصلحة فرد أو جماعة ، ولا تعاملًا مع الملبسات المحيطة بأي عنصر من عناصر القضية . ولكن شهادة لله ، وتجرداً من كل ميل ، ومن كل هوى ، ومن كل مصلحة ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ بأن تعترفوا بالواقع كما هو ، دون خوف أو وجل ، ولو أدى الأمر إلى إلحاق ضرر بكم . وهنا يحاول المنهج القرآني تجنيد النفس في وجه ذاتها ، وهي محاولة شاقة ، أشق من نطقها باللسان . إن مزاولتها عملياً شيء آخر غير إدراكها عقلياً ، ولكن المنهج القرآني يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة ، ثم يجند النفس في وجه عواطفها ﴿ أَوِ الْوَالِدَيْنِ ﴾ اللذين أوجب الله عليكم البرّ بهم فقول الحق مقدم على برّ الوالدين ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ كالأولاد والإخوان من باب أولى ، فلا تمنعكم صلة الرحم ولا المنفعة عن أداء الشهادة دون محاباة حتى لا تضيع الحقوق أو يشيع الظلم والعدوان ، وتسوء حال المجتمع .

ثم يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية ، حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ، تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية والاجتماعية ، وحين يكون المشهود له غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته .

فالمنهج القرآني يجند النفس تجاهها كما جندتها تجاه حب الذات وحب الوالدين والأقربين ، فقال : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾ أي فلا تجعلوا للمادة سبيلاً للتلاعب في الشهادة بأن تجاملوا الغني طمعاً في بره ، أو تتحاملوا عليه لحقدكم في نفوسكم منه ، وكذلك الحال مع الفقير . ﴿ فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أخرى وأقدر منكم على الانتصار لصاحب الحق منهما ، وإن كانت هذه محاولة شاقة لا تقع إلا في ظل المنهج الإلهي القويم . ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ والهوى صنوف شتى ، منها حب الذات ، وحب الأهل والأقربين ، والعطف على الفقير في موطن الشهادة والحكم مجاملة للغني . وهذه صنوف ذكرتها الآية ، ومنها صنوف أخرى كالتعصب للعشيرة أو القبيلة وكرهة الأعداء . . فلا بدّ من العدل في الشهادة . وأخيراً يجيء التهديد والإنذار من تحريف الشهادة ﴿ وَإِنْ تَلَوُّوا ﴾ ألسنتكم ، أي تحرفوا

الشهادة وتغيروها ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ بكتمان الشهادة وتركها، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يعلم انحرافكم عن الحق وإعراضكم عن الشهادة، فيجازيكم على ما اقترعتم .

« هذه الآية أمرة أمراً صريحاً قاطعاً بشيئين : الأول ؛ المبالغة في إقامة العدل والتعاون فيه دون تهيب ، ولا انحراف ولا تردد في القضاء به ، ولقد كان السلف الصالح مضرب المثل في التزام شريعة العدل في كل الأقضية حتى مع الأعداء ، ولو كان المسلمون هم المقضي عليهم ، ولهم في ذلك روائع الأمثال والقصص . . .

الثاني ؛ أداء الشهادة بالحق ، ولو على النفس ، أو الوالدين ، أو الأقربين ، لأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه ، ولأنه أحق أن يُتبع ، ولأن الاستعلاء على مصالح النفس ومراعاة حظوظها هو أمارة الإيمان الصحيح بالله ، ولأن بر الوالدين وصلة الأرحام والأقارب إنما يكونان ضمن دائرة الحق والمعروف ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فالشهادة ينبغي أن تكون خالصة لله . . ولا حاجة لمراعاة غني أو فقير ، فالله وحده يتولى أمورهما ، وهو أولى بكل واحد منهما . . »^(١) .

(١) التفسير المنير ج ٥ ص ٣١٥ .

النداء السادس والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

—النساء/ ١٣٥—

في بداية سورة البقرة أكد سبحانه وتعالى أن ﴿ذلك الكتاب﴾ الذي نزل به سيدنا جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن الكريم ﴿لَارِيبَ فِيهِ﴾ أنه من عند الله، أنزله ليكون ﴿هُدًى﴾ لما حواه من أدلة ساطعة تقنع كل عاقل بوجود إله واحد متصف بالكمال. إنه سبيل هداية ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين تتوفر فيهم صفتان رئيسيتان: الإيمان بالغيب، والتصديق بما أنزل الله على الرسل من كتب تبين أحكام الله وما فيه نفع البشر دنيا وآخرة. وقد ختم — سبحانه — السورة المذكورة بشهادة منه للمؤمنين بالتسليم والانقياد والطاعة فقال ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ عن طريق الوحي ﴿مَنْ رَبِّهِ﴾ فاهتدى بهديه وتخلّق بخلقه، ونفذ أحكامه، ودعا بدعوته، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ﴾ منهم أيضاً ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أنه الواحد الأحد، والمتفرد بالألوهية الذي لا يستحق العبادة أحد سواه ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ دون تفريق بين الرسل.

في هذا النداء تأكيد وأمر بالإيمان بالله وكتبه ورسله «فإن كان الخطاب لمؤمني أهل الكتاب فيراد به الأمر بالإيمان بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام وبالقرآن كالأنبياء السابقين والكتب المنزلة قبل القرآن. فقد روي أن هذا خطاب لمؤمني اليهود. قال ابن عباس وكذا الكلبي: (إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام، وأسد وأسيد ابني كعب،

وثعلبة بن قيس ، وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام ، ويامين بن يامين ، إذ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: نؤمن بك وبكتابك ، وبموسى وبالتوراة وعُزير ، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بَلْ آمَنُوا بِاللَّهِ ورسوله وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله" فقالوا: لا نفعل . فنزلت الآية . قال : فَأَمَنُوا كُلَّهُمْ^(١) .

وإن كان هذا الخطاب للمؤمنين فيكون المعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بربوبية الله من أتباع سائر الرسل ، هل أدلكم على الدين الحق الذي تستقيم به أموركم في الدنيا والآخرة؟ ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ ﴾ إلهاً واحداً لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ندد ، ولا ضار ولا نافع سواه . ﴿ ورسوله ﴾ محمد بن عبد الله الذي أرسله الله إليكم ليهديكم سواء السبيل ، ﴿ والكتاب الذي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ وهو القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم نبياً واضحاً جلياً ، مبيّناً للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة بأسلوب محكم وبيان معجز خارج عن طوق البشر . نزل على رسوله ليربطكم أيها المؤمنون بالمنهج الذي اختاره الله لحياتكم ، ويبيّن لكم في هذا الكتاب ، والأخذ بكل ما فيه . وقال هنا (نَزَلَ) لأنه نزل مفرقاً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والكتاب الذي أَنزَلْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ على الرسل السابقين ، والذي جاء محمد صلى الله عليه وسلم مصدقاً ومؤيداً له .

ولما كان هذا الإيمان بتفصيل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من أركان الشريعة الإسلامية الخمسة ، وإلّا عدّ كافراً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الذي يكون فيه الحساب والعقاب والجنة والنار ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ ، لأن عقيدة الإسلام إنما تقوم على الاعتقاد بجميع ما ذكر .

(١) تفسير الخازن ، ج ١ ، ص ٤٠٦ . والكشاف ١/ ٤٣٠ . والتفسير المنير ج ٥ ص ٣١٣ .

فالإيمان أعظم شيء ، وثوابه أعظم شيء ، والكفر أخطر شيء ، وعقابه أسوأ شيء .
ذلك لأن الإيمان يبنى عليه كل طاعة ، والكفر لا يقبل معه طاعة ، ولا يصح مع الإشراك
عمل . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ _ النساء / ١١٥ . وقال
أيضاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ _ النساء / ٤٧ . فالشرك انقطاع بين الله والعباد ، فلا يبقى لهم معه أمل
في مغفرة إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون ، مقطوعي الصلة بالله رب العالمين .
فالذي يكفر بالله الذي تؤمن به الفطرة في أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعي فيها ،
ويكفر بملائكته حتى لا يقال عنه رجعي بسبب إيمانه بالغيبيات ، والعلم إنما يستند على
الماديات والمحسوسات _ حسب زعمه _ وما شابه من هذه الأقوال المدسوسة بين كثير من
شباب هذا الجيل ، والذي لا يؤمن باليوم الآخر استمداداً من كفره بالحقيقة الأولى ؛ إنما
تكون فطرته قد بلغت به من الفساد والتعطل والخراب الحد الذي لا يرجى معه هدى .

فالنص أو النداء موضوع بحثنا قد دلّ على أمور رئيسية أبرزها :

- ١- أن الأديان في أصولها تدعو إلى مبدأ واحد ، وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له .
- ٢- أن أركان الإيمان خمسة وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم
الآخر . ولا شك أن أعلى أنواع الخير وأعظمها بالنسبة إلى أعمال القلب ؛ الإيمان بالله
تعالى ، ودون هذا النوع درجات كثيرة أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو
هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإيمان بضع وستون شعبة
أو بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق" ^(١) .
- ٣- التهديد على الكفر بعناصر الإيمان مع التفصيل في موضع البيان قبل العقاب ،
والتعبير بالضلال البعيد ، غالباً ما يحمل معنى الإبعاد في الضلال الذي لا يرجى معه هدى ،
ولا يرتقب بعده مآب ، والله أعلم .

(١) أخرجه الخمسة ، وهذا لفظ مسلم ، كتاب الإيمان / ٦٣ .

النداء السالِع والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

النساء/ ١٤٤

في هذا النداء ينبه الله تعالى عباده الذين آمنوا بأن الله وليّ المؤمنين وناصرهم ، من أن يفعلوا فعل المنافقين من تذبذب وتحير بين الإيمان والكفر فيقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تتخذوهم نصراء وأعواناً تصاحبونهم ، وتصادقونهم ، وتناصرحونهم ، وتسرون إليهم بالمودة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ _آل عمران/ ٢٨_ . ولا بدّ أنه كانت هناك حاجة إلى مثل هذا التوجيه في المجتمع الإسلامي الجديد ، حيث كانت الصلات ما تزال قائمة في المجتمع بين المسلمين واليهود في المدينة ، وبين بعض المسلمين وقرابتهم من مشركي قريش ، ولو من الناحية النفسية . ونقول بعض المسلمين ، لأن هناك البعض الآخر الذي فصم عرى العلاقات مع المجتمع الجاهلي ، حتّى مع الآباء والأبناء ، وجعل العقيدة وحدها هي آصرة المجتمع ، ووشيجة الرحم ، كما علّمهم الله تعالى . وذلك البعض هو الذي دعت الحاجة إلى تنبيهه وتحذيره من التعرض لغضب الله . ولكن هذا التوجيه لم يأت لينبّه أولئك الذين كانت لهم صلات باليهود والمشركين فقط . بل له صفة العموم والدوام . وفيه تحذير للذين يوالون الكافرين وأعداء الأمة الإسلامية ، ويطلبون النصرة منهم مهما اختلف الزمان والمكان . فها نحن نرى بعض ولاية الأمور في البلاد العربية والإسلامية يتولّون من يخطط

لنهب خيرات الأمة العربية والإسلامية بوسائل يصعب حصرها ، وبشكل مباشر وغير مباشر . ويساعدهم أعوانهم الذين يشيعون بأن العرب أمة ضعيفة غير قادرة على حماية نفسها بنفسها ، ويطلقون أبواق الضلال والسنة السوء لتحطيم إمكانية الأمة والنيل من عزيمة أبنائها . ويصورون لنا أن الخير فيما يقدمونه لنا . هؤلاء المطايا هم المنافقون الذين وعدهم الله تعالى بأن يكونوا بالدرك الأسفل من النار ، لأنهم يتولّون من يحارب العروبة والإسلام ، ولأنهم وراء العديد من الجرائم في عدد من الأقطار العربية ودول العالم .

« أما تولّي الذمّيين الوظائف العامة في الدولة الإسلامية ، فليس بمحظور ، فإنهم اشتغلوا في عصر الصحابة في الدواوين ، وكان أبو إسحاق الصابي وزيراً في الدولة العباسية . »^(١) . فالإسلام لا يمنع أن يتعامل بالحسنى مع من لا يحاربه في دينه ، وحالة العداء بين المسلمين وغيرهم لا تقوم شرعاً بسبب عدم إسلامهم ، وإنما بسبب ما يبدو من بعضهم من مواقف عدائية وعدوانية ضد المسلمين . فموالاتهم ومناصرتهم من علامات النفاق ، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان " ^(٢) . ولهذا الحديث أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية هامة في الصدق في الكلام والتصريحات . والوفاء بالوعود ضروري ومطلوب في حياة الأفراد والمؤسسات ، فالحياة والإنتاج والسياسة والاقتصاد كلها أمور متكاملة ، والعمل هو أساس ذلك كله ، والنية هي أساس العمل ، والمطلوب اليوم في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وفي كل انحاء الأرض نيات حسنة وآمال طيبة على كافة الأصعدة كي تسعد المجتمعات دنيا وآخره .

﴿ أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سُلطاناً مَبِيناً ﴾ أتريدون أن تقيموا حجة الله عليكم باستحقاقكم لعذابه إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين ، وهو جلّ وعلا لا يريد هذا

(١) التفسير المنير، ج ٥، سورة/ ٤، آية/ ١٤٤ .

(٢) مسلم/ ١٠٧ والبخاري/ ٣٣ . وذكره الترمذي في سننه ، وكذا النسائي .

منكم ، وقد وعدكم بنصر وعزة في الدنيا ، وهناءة ونعيم في الآخرة ، إذا حصرتم ثقتكم فيه ولم تؤمّلوا النصر من سواه .

نلاحظ في هذا النداء تحريك النفس المؤمنة بهذا التعبير الذي جاء في صورة الاستفهام ، ومجرد التلويح بالاستفهام يكفي في خطاب المؤمنين ليفهموا أن موالة الكافرين دليل على النفاق .

ثم تأتي طريقة أخرى على هذه القلوب عن طريق التلويح في الآية التالية ، طريقة تقرر المصير المفزع المهيّن للمنافقين : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ ينقذهم من عذابها ، أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها يوم القيامة ، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ، وَأَصْلَحُوا ، وَاعْتَصَمُوا بِاللّهِ ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّهِ ، فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فباب التوبة مفتوح لمن اغترّب بموالة أعداء الأمة العربية والإسلامية من الكافرين ، أو استعان بهم على تثبيت دعائم ملكه . وليسرع بالتوبة حتى لا يقيم حجة الله عليه باستحقاقه عذاب الآخرة ، وهو يرى كيف تقوم قيامة حلفاء الصهيونية حين تقتل المقاومة _ المشروعة ديناً وقانوناً وعرفاً _ جندياً إسرائيلياً تخطف الحدود الدولية . ولا يتحرك ساكن إذا قصفت الطائرات الإسرائيلية الآمنين في المدن والقرى . ورغم كل هذا وذاك نرى بعض الأنظمة العربية تعمل على إقصاء المسلمين عن الحياة العامة ، وتقيم علاقات مع (إسرائيل) أكثر دفئاً مما عليه مع أقطار عربية وإسلامية أخرى . ونرى بنفس الوقت الحركات الإسلامية غير قادرة على التلاقي أو التعاون المشترك في الأطر العامة . وتوطد الإمبريالية الغربية أقدامها في العالم العربي والإسلامي ، وتساهم في تكريس تجزئة الوطن العربي ، وتؤثر على الصعيد النفسي في الجيل الجديد حتى تقلص آفاق الذكاء وتضيّق ، ويصبح مستحيلًا الارتفاع بمستوى العقل والروح ، ويحتقر التعليم أو على الأقل يهمل ، وتكاد روح البطولة تنطفئ . كما تؤثر على الصعيد الموضوعي بالانحلال السياسي ، وعلى الصعيد الذاتي بفقدان الإيمان ، مما أدى إلى بروز شعارات وتخطيطات شكلية ، وتعصب باطل إلى جهة تتمثل في شيخ أو جماعة ، أو إلى تعلق بالدنيا المتمثلة بسائر الشهوات التي تميل إليها

النفس . وبذلك تخلف المسلمون ، وجاء من يوهم الناس بأن الإسلام يدعو إلى التخلف . وبعضهم نسوا أو تناسوا أن أصل الانحراف الاجتماعي والسياسي أو التخلف عامة ليس في الإسلام ، بل في المسلمين الذين لم يتمكن العلم والإيمان منهم ، فوقعوا فريسة خطط تأمرية مرسومة ضد المسلمين من رسل الاستعمار الصهيوني وحلفائه . نسوا أو تناسوا أن الإسلام في جوهره كان وما يزال سليماً ، لكن فهم المسلمين له كان خطأ . وما نراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الإسلام ، بل من جهل المسلمين الذين غرتهم الحياة الدنيا أو اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فوقعوا فريسة الاستغلال الأوربي بأشكاله المختلفة والمتطورة باستمرار . وابتعدوا عن منابع الإسلام ومصادره إلى واقع أهله الحالي .

يقول الدكتور مصطفى محمود إجابة على سؤال : إن الغرب تقدم بالكفر ، وإننا تأخرنا بالدين ، وإن الدين صفة العاجزين المتأخرين ، فمن أين نأخذ علومنا ؟ أليس من الغرب الملحد ؟ يقول في إجابته على السؤال المذكور : «أولا تظلمنا إذا تصورت أننا متدينون ؟ تظلمنا وتظلم الدين ، وتظلم الواقع . فالحق أننا كسالى متواكلون ، مدعون ، ليس لنا من الدين إلا اسمه ، الدين الذي يأمرنا بالعمل أمراً ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ . نحن متأخرون لأننا لا نعمل بديننا وليس لأننا متدينون . لن تكون متديناً إلا إذا أنكرت ذاتك وأصبح عملك من أجل الآخر وحياتك محبة وعطاء وعملاً متصلاً بلا طمع إلى أجر وبلا حقد وبلا حسد وبلا كراهية وبلا تواكل . لن تكون متديناً إلا بالعلم ، فالله لا يُعبد بالجهل ، ولم يكن (آينشتاين) جاهلاً حينما قال : إن الله موجود .»^(١) .

وحول الموضوع ذاته والادعاء بأن الدين يعوق عن ركب العلوم ، يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : «أبعد أن أصبح إسلام المسلمين سجيناً عن الانطلاقة والعمل ، بعيداً عن القيادة والدفع ، يحمل تبعه تخلف الأمة عن ركب العلم والحضارة

(١) القرآن محاولة لفهم عصري ، ص ٢٦٤ .

والاختراع ، وقد كان بالأمس القريب يمتنع أهله بما لم يشهده التاريخ . . . هل اجتمعت كلمة الخصوم المتدابرين على شيء كما اجتمعت على الكيد للإسلام والعمل على شلّ حركته وإنهاء قوته؟^(١) .

وهكذا أفعال الخصوم وسيطرتهم تتنامى إما عن طريق التصنيع والتقانة التي لا يستطيع تقديمها وصيانتها إلا الغرب . أو عن طريق تقبل الاستثمارات الأمريكية وقروض المصرف العالمي ، وتزداد التبعية بوعي وبغير وعي ، ويتعزز كل ذلك بفعل المصادر الإعلامية التي تتركز من حيث الإنتاج والتوزيع بكافة أشكاله في نفس الدول التي تحتكر مصادر القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية ومصادر الثروة . أما نحن فنعيش على استقبال ما تنتجه تلك الدول . وكيفنا مثال واحد للتذكير بأمور شتى ، هو أن محطات التلفاز العربي تستورد ما بين ٤٠ - ٦٠ بالمائة من برامجها من الدول الغربية ، ويحتل الانتاج الأمريكي ٨٠ بالمائة من البرامج المستوردة ، والكل يعرف مواقف الولايات المتحدة الأمريكية العدائية وبرامجها التي تكرس الانحلال الخلقي والسياسي واتفاقها مع الإعلام الغربي عامة على كل شيء فيه تشويه للإسلام وللعروبة . وفي غياب إعلام عربي إسلامي متماسك متكامل تبقى الساحة خالية أمام الإعلام الغربي الذي تخضع أكثر مؤسساته لسيطرة الصهيونية العالمية . والدلائل على ذلك كثيرة منها : صدور قانون في (إسرائيل عام ١٩٨٥م يحظر طرح أي فكرة حول يهودية الدولة أو إنكار الجرائم النازية ، ومن يطرح ذلك يسجن لمدة خمس سنوات . ولكن يبدو أن هذا القانون مطبق في العالم الغربي . ولذلك جرت محاكمة (روجيه غارودي) في فرنسا حين قام بتكذيب ادعاءات الصهيونية عن الإبادة الجماعية لليهود من قبل الألمان ، في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) .

يقول الدكتور مأمون أبو الذهب : « ما تجرأ التلفزيون الإنكليزي مرة فتكلم عن العرب بخير عارضاً موقفهم في إذاعة تلفزيونية ، حتى رن الهاتف في شركة التلفزيون آلاف

(١) من الفكر والقلب ، ص ٢٦ .

المرات ليحمل احتجاجات ضد ذلك . وتكاد الحلقات الصهيونية تسيطر على إدارة كل ما يصدر في أوروبا . . .»^(١) .

و مما يؤسف له أن تتضافر عوامل أخرى في مساندة الإعلام الغربي وتحامله علينا ، منها : ١- انجراف بعض وسائل الإعلام العربية أو الإسلامية خلفه وترديد الكثير من أقواله .

٢- ممارسات بعض المسلمين الذين لا يراعون في تصرفاتهم حق الله وعباده ، عن قصد أو جهل ، متبجحين بفكرة نشرت في كتاب ، أو قيلت في حوار إعلامي لذيل من ذبول الاستعمار الساعي للتشكيك بالدين والوطن والأمة والنفس . .

٣- أساليب بعض الأنظمة العربية ، ونقص استعداد العرب ، وانقسامهم .

٤- والأهم من كل ذلك عدم الالتزام بالمنهج القرآني الذي حذر من الموالة والتبعية لليهود ومن والاهم .

ولكن حصر أسباب التخلف والتبعية بالصهيونية كما يدعي البعض ، هو اعتراف بفقدان الهوية والسيطرة على الذات ، فلا بد من الإحساس بالهوية العربية والإسلامية ، وحين تكون لدينا رؤية خاصة تغنيانا عن الآخرين تنكسر حلقة التبعية . وهذه الرؤية ، وهذا الإحساس يحتاج إلى تغيير في التربية وأسلوبها ، وتنمية الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية حتى نسير نحو الأفضل . فإذا تغير ما بنفس الإنسان _ سواء بجهد أو بجهد غيره _ فإن سلوكه لا محالة يتغير . فالشجاعة والجبن ، والإقدام والهزيمة ، كل هذا يتعلق بما في النفس ، فإذا تغير ما بالنفس تغير حالاً سلوك الإنسان . فالتغيير معلق على إرادة الناس ، وليس ثمة مذهب أدبي أو خلقي يمكن أن يذهب إلى أكثر مما ذهب إليه المنهج القرآني في تنبيه ضمير الفرد إلى تبعاته الشخصية ومسؤولياته في تحديد مستقبله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ _ الرعد/ ١١ _ . أما الغرب فلن يقدم لنا إلا ما يكرس فينا التبعية الاقتصادية وغيرها ، لأن هذا هو منطق الأشياء ، والله أعلم .

(١) الطغمة الصهيونية ، ص ٤٥ .

النداء الثامن والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتَلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .﴾

_____المائدة/ ١_____

لقد أقام المنهج القرآني ضوابط لعلاقة الإنسان مع خالقه ، وعلاقة الإنسان مع الناس من الأقربين والأبعدين . وقد حددها بدقة كي يكفل لها الاحترام الواجب . هذه الضوابط هي (المصلحة) ما دام أن الله تعالى هو الذي أقامها للناس . ولو رأى فرد ، أو رأت مجموعة ، أن المصلحة غيرها ، فالله يعلم والناس لا يعلمون . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل / ٧٤ .

هذه الضوابط يسميها الله في كتابه العزيز (العقود) ، لذا خاطبهم في هذا النداء قائلاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله عالماً بكل ما فيه مصلحتكم ، ونبذتم كل ما يدعو إليه الشيطان ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ، والعقد؛ ما يبرم بين الطرفين من اتفاق أو عهد . والعقود هنا؛ العهود المؤكدة الموثقة التي بينكم وبين الله والناس ، أي ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره ، فهي تشمل عقود الشرع فيما أحل وحرّم وفرض ، وعقود الناس بعضهم مع بعض في البيع والشراء والزواج وغير ذلك . فكل قول أو فعل يعدّه الناس عقداً يجب الوفاء به ما لم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام مما يثبت في الشرع . وألزم العقود عقد الإيمان بالله ، فهذا العقد يوجب على المؤمن السمع والطاعة والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ الذي يشمل كل ما أحل الله وحرّم ، سواء ما يختص منها بكل أمر وكل نهى في شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس في حدود شرع الله ، فكلها عقود ينادي الله الذين آمنوا أن يوفوا بها ،

ولا يأخذوا مقابل نقضها ثمناً من عرض الدنيا مهما عظم ﴿ ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ النحل / ٩٥ . « قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ يعني العهود ، يعني ما أحل الله وما حرّم ، وما فرض ، وما حدّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدّد في ذلك فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ الرعد / ٢٥ » ^(١) .

ثم نص النداء على ما يحل وما يحرم من المطعومات فقال تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ والبهيمة ؛ ما لا نطق له ، وخصها العرف بذوات الأربع من حيوان البر والبحر . والأنعام هي الإبل والبقر والغنم ، والمراد ما يماثلها أيضاً من البهائم الوحشية التي من شأنها أن تصاد كالظباء وبقر الوحش وحمورها ، وسائر الحيوانات الطيبة للأكل ، ما مشى منها على الأرض ، وما طار في الهواء ، وما سبح في البحر . ولما كان هذا الإطلاق يقتضي إحلالها على جميع الوجوه ، وفي سائر الأحوال ، استثنى الله تعالى من ذلك بعض حالات أشار إليها بقوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلا أن تتصف البهيمة بأحد الصفات التي تمنع من أكلها . وقد تضمّنتها الآية الثالثة من سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ، وَالدَّمُ ، وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ ، وَمَا أُهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ ، وَالْمَوْقُوذَةُ ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ . . ﴾ ^(٢) . أما من اضطر بسبب جوع شديد يخشى الإنسان منه التلف على حياته ، فله أن يأكل من هذه المحرمات مادام غير راغب بمقارفة الحرام ، على أن لا يتجاوز قدر الضرورة لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَحَلَّ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ بِشَرْطَيْنِ : الْأَوَّلُ : ﴿ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ١٣ .

(٢) عرضنا حكم الميتة والدم ولحم الخنزير في النداء (١٨) .

أي حال كونكم غير مستحلين صيدها في الأماكن التي حرم الله صيدها فيها، وهي أرض الحرم، ومتى حُرِّم صيدها فيها فأكلها لا يحل أيضاً.

الشرط الثاني: ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي محرمين بالحج أو العمرة، وإن كنتم خارج حدود الحرم، فيحرم عليكم الصيد والأكل مما صدتم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فلا محل للاعتراض بوجه من الوجوه في إباحة أكل بهيمة الأنعام، وتحريم أكل الميتة وما في حكمها. فالله يحكم وفق مشيئته، وحسبما يرى من الحكمة والمصلحة، لأنه الحكيم في أمره ونهيه.

ختاماً نقول: «إن الله تعالى دعا المؤمنين وناداهم بوصف الإيمان ليحثهم على امتثال ما يكلفهم به، وطلبهم بالوفاء بالعقود، أي بالتكاليف التي التزموا بها بقبولهم الإيمان الذي يعتبر تعهداً منهم بالعمل بمبادئه والوقوف عند حدوده. ومن هذه التكاليف؛ ما يعقد الناس بعضهم مع بعض من الأمانات والمعاملات..»

ويؤخذ من الآية وجوب الوفاء بالعقود التي يجريها الناس بعضهم مع بعض فيما هو مأذون فيه كالقيام بأداء المهور والنفقات في باب النكاح، والمحافظة على مال المستأمن ونفسه في باب الأمان، والمحافظة على الوديعة والعارية والعين المرهونة وردها إلى أصحابها سالمة، وما أشبه ذلك، ويؤخذ منها أيضاً حل ذبائح الأنعام من جهة الانتفاع بلحومها وجلودها وعظامها وأصوافها، وحرمة الصيد في حال الإحرام..»^(١).

(١) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ١٥٤ و ١٥٦.

نداء التاسع والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

المائدة/ ٢ _

نداء الله لمن آمن بالله وأراد معرفة الحلال والحرام والأحكام الإسلامية ، وخاصة في مجال المعاملات والعلاقات الاجتماعية . فخاطبهم قائلا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ ، والشعائر؛ جمع شعيرة ، وهي في الأصل ما جعل شعاراً على الشيء وعلامة عليه . والمراد بالشعائر هنا كما روي عن ابن عباس : مناسك الحج . وقيل : فرائض الله التي حدّها لعباده ، وهو قول عطاء . وقيل : الأحكام الإسلامية كلها ، فإن أدائها إمارة على الإسلام والتعبد بأحكامه ، وهو المعول عليه . « وإحلال الشعائر : استباحتها والإخلال بأحكامها ، وعدم المبالاة بحرمتها ، كاستعمال الطيب ، ولبس المخيط ، والصيد ، والقرب من النساء ، فإن ذلك يخل بواجبات الإحرام ، وكالوقوف بعرفة محدثاً ، فإن ذلك يخل بواجب الطهارة في الطواف . ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أي لا تحلّوه بالقتال فيه وعدم المبالاة بحرمته . وقال البعض : فسخ هذا الحكم بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا

المشركين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»^(١) . وقيل المراد بالشهر الحرام؛ هو شهر رجب الذي كانت تحترمه العرب في الجاهلية . والمتبادر أنه المراد به جنس الشهر الحرام، فيشمل بقية الأشهر الحرم الأربعة، وهي؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وذلك بأن تحلوا لأنفسكم بدء القتال فيه .

﴿ولا الهدي﴾ أي ما يتقرب المرء به من الأنعام ليذبح في الحرم، وهو من النسك .
﴿ولا القلائد﴾، جمع قلادة، وهي تطلق على ما يعلق في عنق المرأة للزينة، وعلى ما يعلق في عنق البعير أو غيره من النعم من جلد أو قشر شجر ليعلم أنه هدي فلا يتعرض له أحد بسوء، وإحلالها؛ بنزعها منه لما يؤدي إليه ذلك من جهل الناس بحقيقته وتعريضه للاعتداء عليه، وذبحه في غير محله .

﴿ولا آمين البيت الحرام﴾، أي ولا تستحلوا قتال الذين يقصدون البيت الحرام من أجل حج أو عمرة . وقيل: المعنى لا تحلوا لأنفسكم ترويع قاصدي البيت الحرام، ولو في غير الشهر الحرام، أو كانوا غير محرمين .

﴿يَتَّبِعُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي ماداموا مؤمنين بالله مبتغين فضله بالسعي لطلب الرزق ورضوانه بأعمال العبادة .

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إذا خرجتم من الإحرام أبيع لكم الصيد، وبالطبع يحل أيضاً كل ما كان مباحاً قبل الإحرام .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي لا يجعلكم بغضكم لهم بسبب منعكم عن المسجد الحرام عام الحديبية أن تعتدوا للانتقام منهم . ولا تقابلوهم بمثل عملهم فتصدوهم كما صدوكم، ما داموا قد جاؤوا مؤمنين، إذ الإسلام يجب ما قبله .

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أي تعاونوا معهم على ما جاؤوا به من رغبة في فضل

(١) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ١٥٦ .

الله ، وعلى اتخاذ وقاية تقيكم من متابعة الهوى ، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾ معهم ﴿على الإثم﴾ من المعاصي التي يَأْتُمُّ فاعلها ﴿والعدوان﴾ بتجاوز حدود الشرع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه ، وراقبوه في كل أمر . ولا تسيروا في الحياة إلا على منهج الله ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن أعرض عن هدايته وخرج عن منهجه .
وخلاصة القول فيما دل عليه النداء :

حرمة التعرض لمناسك الحج وتجاوز حدود الله فيما شرع ، فلا يجوز التعدي على معالم دينه ، وتلك المعالم هي شعائر الله . ومن المعالم : حرمة الشهر الحرام ، وهي أربعة . ومن المعالم أيضاً الهدى والقلائد .

وأخذ العلماء من ذلك عدم جواز الأكل من الهدايا التي تقدم للذبح في الحرم ، إلا هدي التطوع والقران والتمتع ، فإنه يجوز الأكل منها لصاحبها وللأغنياء ، لأنه دم نسك يقدم شكراً لله تعالى على ما أنعم به من التوفيق للعبادة ، فيجوز الأكل منه . . ودل قوله تعالى : ﴿يَتَغَوَّنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ على جواز ابتغاء الفضل أي الربح والتجارة . . « (١) .

(١) أنظر التفسير المنير ج ٦ ، ص ٧١ و ٧٤ .

النداء الثلاثون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَا مَسْتَمُ النَّسَاءِ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

المائدة/ ٦

هذا النداء يوضح ما تمتاز به صلاة المسلمين عن الصلاة عند غيرهم ، بما يسبقها من الطهارة من الحدثين الناشئ أصغرهما عن إدخال الطعام والشراب إلى المعدة ، إذ لولاهما لما كان البول والغائط ، وأكبرهما عن النكاح الموجب للغسل . ذلك لأن (مفتاح الصلاة الطهور).

« والمقصود بالدرجة الأولى تطهير السرائر ، إذ يستبعد أن يكون المراد بقوله صَلَّى الله عليه وسلّم : " الطهور شطر الإيمان " ^(١) عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء ، وإبقاء الباطن مشحوناً بالخبث ، فالصلاة لقاء مع الله ، ووقوف بين يديه ، ودعاء مرفوع إليه ، ونجوى

(١) فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي : ٩٦٦ . أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري (كتاب الطهارة برقم ٢٢٣) وأخرجه ابن ماجه في باب الوضوء شطر الإيمان بلفظ آخر (٦١ / ١) .

وأسرار، فلا بد لهذا الموقف من استعداد، لا بد من تطهير جسدي يصاحبه تهَيُّؤٌ روحي .
ومن هنا جعل العلماء للطهارة أربع مراتب :

المرتبة الأولى ؛ تطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار والفضلات .

المرتبة الثانية ؛ تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

المرتبة الثالثة ؛ تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والردائل الممقوتة .

المرتبة الرابعة ؛ تطهير السر عما سوى الله تعالى .

ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السالفة، فلا يصل إلى طهارة السرِّ

عن الصفات المذمومة ، ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم . . . » ^(١) .

ففي النداء لتعليم المؤمنين أن يطهروا ظاهرهم إذا أقبلوا على الصلاة، ومن البدهي أن

يستحي المصلي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه . وهو موضع نظر الخالق .

وتطهير الظاهر بالوضوء، وقد بين الله تعالى صفة الوضوء بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي إذا أقبلتم على الصلاة فأسيلوا الماء على الوجه

لإزالة ما عليه من وسخ أو غبار وغيره . وحدّ الوجه من أعلى سطح الجبهة إلى أسفل

اللحية طولاً، وما بين شحمتي الأذنين عرضاً، ويدخل ضمن الوجه ما يظهر من باطن الفم

والأنف، عملاً بأمر الرسول صلى الله عليه وسلّم وصحابته بالضمضة والاستنشاق،

وملازمته لذلك هو وصحابته . ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ من رؤوس الأصابع ﴿إِلَى الْمِرْفَاقِ﴾ والمرفق ؛

جمع مرفق، وهو أعلى الذراع وأسفل العضد . وقد اتفق العلماء على وجوب غسلهما ،

لأن النبي صلى الله عليه وسلّم كان يغسلهما، ولم يرد أنه ترك غسلهما، والالتزام المطرد

دليل الوجوب ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي بجانب منها بغير استيعاب ولا تحديد، فقد ورد

عن الرسول صلى الله عليه وسلّم أنه مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه،

ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه . ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بفتح اللام،

(١) موعظة المؤمنين، كتاب أسرار الطهارة: ص ٥١ و ٥٢ .

عطفاً على أيديكم ، أي واغسلوا أرجلكم ﴿ إلى الكعنين ﴾ وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين .

ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره فأدركنا وقد أرهقنا العصر ، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا ، قال : فنأدى بأعلى صوته : " ويلٌ للأعقاب من النار " مرتين أو ثلاثاً . وتواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ويلٌ للأعقاب من النار " وفي رواية : " ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار " ^(١) . هذا حكم الحدث الأصغر .

ثم انتقل خطاب الله تعالى إلى حكم الحدث الأكبر ، بقوله : ﴿ وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾ أي إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم على جنبه _ سواء بالمباشرة أو الاحتلام _ فعليكم بالاغتسال .

ثم انتقل خطاب الله إلى الرخصة في ترك الطهارة بالماء واستبدال التيمم بها . فمثّل لذلك بأربع حالات : اثنتين فيما يتعلق بوجود الماء وعدمه . واثنتين فيما يتعلق بنوع الحدث القائم بالإنسان .

فمثّل للحالتين الأوليين بقوله : ﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ مرضاً يمنعكم من استعمال الماء في البدن في حال وجوده ﴿ أو على سفر ﴾ طويل مهما كان سببه ، وشق عليكم وجود الماء لإدراك وقت الصلاة ، فهاتان حالتان لجواز استبدال التراب بالماء . وأما الحالتان اللتان تتعلقان بنوع الحدث القائم بالإنسان ، فقد مثّل للحالة الأولى بقوله : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ ، ومثّل للثانية بقوله : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ وشرحنا الحالتين في البيان الحادي والعشرين . فإذا فتشتم ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ ففي هذه الحالات لا يقرب المحدث _ حدثاً أصغر أو أكبر _ الصلاة حتى يتيمم ، لذا قال تعالى : ﴿ فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ أي يمكنكم في هذه الحالات العدول عن الماء إلى التراب أو ما هو من جنس الأرض طاهراً ، وذلك بضرب

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب ٣ ، حديث ٦٠ ، وذكره مسلم في باب الطهارة ، رقم : ٢٤١ .

الكفين ثم نفضهما ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ فيمسح الإنسان بكفيه الوجه ثم
اليدين إلى المرفقين بضربة أو ضربتين ، فهناك قولان . ولا حاجة لمسح الرأس أو الرجلين .
وفي ختام هذا النداء يجيء التعقيب : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي أن
الله تعالى لا يريد أن يجعل لكم فيما شرعه من احكامه أدنى ضيق أو مشقة ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بين طهارة الأجساد وتزكية النفوس وسلامتها ﴿لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه الظاهرة والباطنة

إنها الوحدة التي يحققها الإسلام في الشعائر والشرائع على السواء ، فليس الوضوء
والغسل مجرد تنظيف للجسد ليقول متفلسفة هذه الأيام إننا لسنا في حاجة إلى هذه
الإجراءات ، كما كان العرب البدائيون ، لأننا نستحم وننظف أعضاءنا بحكم الحضارة . إنما
هي محاولة مزدوجة لتوحيد نظافة الجسم وطهارة الروح في عمل واحد . وفي عبادة واحدة
يتوجه بها المؤمن إلى ربه . وجانب التطهر الروحي أقوى ، لأنه عند تعذر استخدام الماء
يستعاض بالتيمم الذي لا يحقق إلا هذا الشطر القوي . فلنحاول أن نتفهم أسرار هذه
العقيدة قبل أن نفتي فيها بغير علم ولا هدى ، والله أعلم .

النداء الحادي والثلاثون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هَوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

المائدة/ ٨

لما كان الظلم من شيم النفوس البشرية ، وكان هو أساس البلاء ، وأعظم باعث على الشقاق ، والانتقام والتحاسد والعداء ، جاء القرآن مليئاً بالآيات الداعية إلى العدل والمحبة ، وأمر المؤمنين بالعدل مع كل الناس ، العدل الذي لا يتأثر بقرابة أو مصلحة أو هوى في أي حال من الأحوال ، العدل الناجم عن الشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور ، ومن ثم فهذا النداء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ والقوام بالأمر برأي أكثر العلماء ؛ هو الحاكم المسؤول عن إدارة شؤون البلاد . وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كلُّكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيتها ومسؤولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلُّكم راع ومسؤول عن رعيته" ^(١) . والمقصود هنا أن يكون القائمون على شؤون البلاد حكاماً لله في الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، لا يراعون فيما يصدر من أحكام غير مرضاته تعالى الذي لا يخفى عليه شيء . وحتى غير الحكام فهم مطالبون في أماكن عملهم

(١) البخاري ، ٤٩٠٤ ، ومسلم ، ١٨٢٩/٣٣ .

وضمن حدود المسؤوليات المكلفين بها أن يكونوا قوامين بالحق لله عزّ وجلّ، لا لأجل الناس والسمعة، بل بالإخلاص لله في كل ما يعملون من أمر دينهم ودنياهم. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول في بيتي هذا: "اللهم من ولي من أمّتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقّقْ عليه، ومن ولي من أمّتي شيئاً فرّقْ بهم فارّقْ به" (١).

﴿شُهداء بالقسط﴾ أي مراعين العدل في كل شيء بلا محاباة ولا جور، سواء للمشهود له أو عليه. أي أدّوا الشهادة بالعدل، إشفافاً على خلق الله من الوقوع فيما يترتب على عدم إقامة العدل في الحكم والشهادة من طغيان الظلم وفساد النظام الاجتماعي.

﴿ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا﴾ ولا يحملنكم بغض قوم لكم أو عداوتهم لكم على أن تجوروا عليهم في معاملتهم وأن تظلموهم في محاكمتهم، أو أن تعتدوا عليهم في أنفسهم وأولادهم، بل استعملوا العدل مع كل الفئات أصدقاء كانوا أم أعداء، فالحق أحق أن يتبع، والحق يعلو ولا يُعلى عليه، كما ذكرنا في النداء الخامس والعشرين وأشرنا فيه إلى نهي الله لعباده الذين آمنوا أن يحملهم الشأن أو البغض على الاعتداء على الذين صدّوهم عن المسجد الحرام.

«قيل: نزلت هذا الآية في يهود بني النضير حين ائتمروا على الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلّم فأوحى الله إليه بذلك، ونجا من كيدهم، فأرسل الرسول إليهم يأمرهم بالرحيل من جوار المدينة، فامتنعوا وتحصنوا بحصونهم، فخرج الرسول بجمع من أصحابه وحاصرهم ست ليال اشتد الأمر فيها عليهم، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلّم أن يكتفي منهم بالجلاء، وأن يكف عن دمائهم، وأن يكون لهم ما حملت الإبل. وكان البعض من المؤمنين يرى لو يمثل النبي صلى الله عليه وسلّم بهم ويكثر من الفتك بهم، فنزلت الآية لنهيهم عن الإفراط في المعاملة بالتمثيل والتشويه. فقبل النبي صلى الله عليه وسلّم من

(١) البخاري/٤٩٠٤، ومسلم/١٨٢٨، والجامع الصغير/١٤٦٤.

اليهود ما اقترحوه .

وقيل : نزلت في المشركين الذين صدّوا المسلمين عن المسجد الحرام عام الحديبية ، وكأنه سبحانه وتعالى أعاد النهي هنا ليخفف من حدة المسلمين ورغبتهم في الفتك بالمشركين بأي نوع من أنواع الفتك»^(١) .

وهكذا نرى قمة في السماحة تحمل المؤمنين تكليفين : الأول ؛ إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء . والثاني أشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل مع المبعوضين المكروهين .

واتباع هذا الإجراء الإيماني يذكره أعداء المسلمين كما يذكره المسلمون ، وأمثله كثيرة ، لعلنا نكتفي بتلميح واحد من مواقف السلطان صلاح الدين الإنسانية والرحيمة ، بعد تغلبه على الغزاة الصليبيين ، التزاماً بوصايا الإسلام . في حين لم يترك الغزاة وجهاً من وجوه التنكيل إلّا قاموا به أثناء غزوهم : « لبث الصليبيون يقتلون أهالي القدس أسبوعاً ، فقتلوا جماعة كثيرة من أئمتهم وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، وهدموا المساجد ، وأحرقوا المصاحف . قال (ميشو) وقد ارتكب الصليبيون في فتح القدس أنواع التعصب الأعمى الذي لم يسبق له نظير ، حتى شكّا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يُكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاماً للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ، ويجرونهم في الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين»^(٢) .

ثم يقول تعالى : ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وأضمن لاتقاء عقاب الله وسخطه . ثم يعقب بما يعين عليه أيضاً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالحرص على أن تحكموا بين الناس بالقسط ، وعلى أداء الشهادة على وجهها الصحيح دون محاباة . وأنتم أيها المؤمنون تعلمون أن من

(١) التفسير المتبرج، ج ٦، ص ١١٦ . وتفسير آيات الأحكام : ٢/ ص ١٨١ .

(٢) خطط الشام ، محمد كرد علي ، ١/ ٢٥٤ .

يراقب الله ويقف عند الحدود التي أمركم بها يجعل له من كل همّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فالنفس البشرية لا ترتقي إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله ، حين تقوم لله متجردة عن كل ما عداه ، وحين تستشعر تقواه . وما من اعتبارات أخرى يمكن أن ترفع النفس البشرية إلى هذا المرتقى . وما من عقيدة أو نظام في الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء كما يكفله لهم هذا الدين . وبهذه المقومات التي نص عليها الدين الإسلامي كان الدين العالمي الأخير الذي يتكفل للناس جميعاً _ معتنقيه وغير معتنقيه _ أن يتمتعوا في ظله بالعدل ، وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه . ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ وبهذا القسط أدت الأمة تكاليفها يوم استقامت على الإسلام . أما الذين لم يؤمنوا بهذا الدين المتكامل فألف إعلان لحقوق الإنسان لا يهز ضمائرهم ، فليس المهم الكلام ، ولكن من وراء هذا الكلام ، فقد رأينا قبل قليل صورة من صور الغزو الصليبي ، كما رأينا ونرى صوراً من التي يمارسها أحفاد الغزاة في (عصر النور) ومطلع الألفية الثالثة من التقويم الميلادي ، ربما كانت أشد بأساً وأشد تنكيلاً ، تمارس مترافقة مع دعوات ضد الإرهاب ، ومع هتافات لتطبيق حقوق الإنسان الدولية . ولكن يسمع الناس الهتاف (من ناس مثلهم) بالمبادئ والشعارات _ مجردة من سلطان الله _ ولكن ما أثرها ؟! . إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم ، تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى ، فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس ، ولا يكون لها في كيانهم ولا في حياتهم إلا أضعف الأثر . ذلك لأن المنهج الرباني يأخذ الطبيعة البشرية بما يعلمه الله من أمرها ، ويهتف لها بما تفتتح له مشاعرها ، والله أعلم .

النداء الثاني والثلاثون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ﴾

المائدة/ ١١-

إنه نداء الخالق إلى عباده الذين آمنوا بأنه الكريم و الرزاق ، يذكّرهم بما أنعم عليهم
من خيرات ونعم لا تعدّ ولا تحصى ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ . أما النعمة
المقصودة هنا بشكل مباشر والتي خوطب بها المسلمون الأوائل فقد اختلفت الروايات
حولها ، ويرجح بعضهم أن المقصود هو الإشارة إلى حادثة المجموعة التي همّت يوم الحديبية
أن تغدر برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه ، فتأخذهم على غرّة ، فأوقعهم الله
أسارى في أيدي المسلمين .

«أخرج ابو نعيم في دلائل النبوة من طريق الحسن ، عن جابر بن عبد الله ، أن رجلاً
من محارب يقال له (غورث بن الحارث) قال لقومه : أقتل لكم محمداً . فأقبل إلى رسول
الله صلّى الله عليه وسلّم وهو جالس وسيفه في حجره ، فقال : يا محمد ؛ أأنظر إلى سيفك
هذا ؟ قال : "نعم" ، فأخذه فاستلّه ، وجعل يهزه ويهم به ، فيكبته الله تعالى ، فقال :
يا محمد : أما تخافني ؟ قال : "لا" ، قال : أما تخافني والسيف في يدي ؟ قال : "لا" ، يمنعني الله
منك" ، ثم أغمد سيفه وردّه إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية

قال القشيري : وقد تنزل الآية في قصة ثم ينزل ذكرها مرة أخرى لادِّكار ما سبق . «^(١) .
وأيّاً ما كان الحادث فإن عبرته في هذا المقام هي المنشودة في المنهج التربوي الفريد ،
وهي إماتة الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم في صدور المسلمين ، كي يعيش الجميع في طمأنينة
وسماحة وعدل . ويستحيي المسلمون أن لا يفوا بميثاقهم مع الله وهو يرعاهم ويكف
الأيدي المبسوطة إليهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، فإن تذكّر النعم
يستلزم العمل لها بما يقابلها بمثلها من شكر الله . وأبسط تلك النعم : ما كان منه جلّ وعلا
﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ﴾ وهم المشركون ﴿ أَنْ يَسُطُّوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بقصد إذلالكم وتفريق كلمتكم
وتحطيم دينكم ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ وحماكم الله منهم بعد أن همُّوا وعزموا على
البطش بكم « ولكن الله أيد رسوله ونصر دينه وأتم نوره ولو كره الكافرون . وحادثة
المحاربي المتقدمة مثيرة للانتباه والاهتمام ، وقد رويت بروايات كثيرة عدا ما ذكر في سبب
النزول . وهناك رواية أخرى يحسن ذكرها ؛ روى الحاكم عن جابر قال : (قام
_ غورث _ على رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال : من يمنعك ؟ قال : " الله " ،
فوقع السيف من يده . فأخذه النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال : " من يمنعك ؟ " قال : كن
خير أخذ . قال : " تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله " . قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا
أكون مع قوم يقاتلونك . فخلّى سبيله . فجاء إلى قومه وقال : جئكم من عند خير
الناس .) وقد حدثت حادثة الأعرابي هذا في غزوة ذات الرقاع ، واسم الرجل غورث بن
الحارث . والتذكير بنعم الله التي لا تعدّ ولا تحصى يستتبع التزام التقوى ، لذا أمر الله تعالى
بالتقوى «^(٢) ، فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ الذي أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم ، فإن
هذا مما يؤدي بكم إلى الثقة بالله ، والاتكال على نصره أكثر من اتكالكم على قوّتكم
﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى جانب تقوى الله وإعداد العدة التي أمرتكم بها

(١) التفسير المنير، ج ٦، ص ١١٧ . وحديث جابر أخرجه البخاري/ ١٣٩٣ ، ومسلم/ ٨٤٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢١/٦ .

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ فالإعداد دليل على المشي مع الأسباب ، وعلى الوعي والفهم في التفريق بين التوكل على الله ، وبين التواكل الذي يعني ترك العمل والقعود عن اتخاذ الأسباب اللازمة ، وعدم فهم حقيقي للإسلام الذي جاءت نصوصه صريحة بضرورة العمل والجد في شتى مجالات الحياة . أما التواكل فيتجلى بطلب النجاح من غير جد ، أو طلب الرزق من غير سعي ، أو طلب النصر من غير إعداد ، وهكذا . . . فالتواكل صفة يبغضها الله سبحانه لأنها تقتل طموح الإنسان وإقدامه ، والإسلام أجج في صدور المؤمنين جذوة الأمل وحب العمل وذكر الله وقدرته ونعمه خلال عمله واجتهاده . وحين يخاطب الله العبد فيقول له : ﴿إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فهذا يعني الثقة بالله والإيقان بأن قضاء الله ماض ، واتباع سنة نبيه في اتباع ما لا بد منه من الأسباب المادية والمعنوية ، كتهئية المطعم والمشرب ، والتحرز من العدو ، وإعداد العدة وغيرها . ولو كان فعل شيء من هذه الأسباب ينافي التوكل لما أمر الله رسوله بمشاورة أصحابه بقوله : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ - آل عمران / ١٣٨ - .

« قال الإمام الرازي : ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه ، كما يقول بعض الجهال ، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافياً للتوكل . بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول عليها ، بل يعول عصمة الحق ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ »^(١) .

وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة التوكل بقوله : " لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً " ^(٢) أي تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون . وهذا الحديث يرشدنا

(١) الحب بين العبد والرب : ص ٧٤ .

(٢) رواه ابن ماجه عن عمر رضي الله عنه ، ورواه الترمذي وقال حديث حسن ، وذكره الإمام النووي في رياض الصالحين : ص ٥٢ ، باب اليقين والتوكل .

إلى المساعي العملية التي يتوجب على كل مخلوق أن يقوم بها حسب النظام الذي رسمه الحق عز وجل لهذا الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم أيد القول بالعمل ، فقد أخذ بالأسباب حين هاجر إلى المدينة فاخترأ في الغار ومعه رفيق الطريق ، وحفر الخندق حين تحالف الأحزاب ضد المسلمين ، واختار مكان معركة بدر قرب آبار المياه .

إذن أول ما يرشدنا إليه هذا النداء :

- وجوب تذكر نعمة الله في رد كيد المشركين عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع وجوب تذكر نعم الله على المؤمنين عامة في كل مكان وزمان ما دام هناك من ييسط يديه لينال من المؤمنين ، لأن ما درج عليه المشركون آنذاك هو الذي درجوا عليه على مدار التاريخ ، فلهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشاً من اليهود والذين أشركوا بالله في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين وأحياناً شعراء وفنانين وصحفيين ، ومنهم من يحمل أسماء المسلمين لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة ، كل همهم أن ييسطوا أيديهم وألسنتهم بالسوء ، ولا يساعد على كف أيديهم إلا الاستجابة لنداءات الله التي خاطب الله بها عباده المؤمنين وتمثل هذا النداء القائل : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ . صدق الله العظيم .

النداء الثالث والثلاثون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

المائدة/ ٣٥

خطاب للقلوب والضمائر ، يحرك المشاعر ويحثها على تقوى الله ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الكف عن المحارم وترك المنهيات ، يناديهم بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله وعلمه بكل ما تخفون وما تظهرون ، عليكم بأمر ثلاثة : أولاً - ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : أي راقبوه في جميع أعمالكم ، وتصوروه مطلعاً وعالمًا بما يدور في خلدكم من سيئ النيات ، تمنعكم هذه التقوى من ارتكاب سائر المحرمات صغيرها وكبيرها . فإن السارق _ مثلاً _ إذا أراد السرقة وعلم أن إنساناً يراه ، لم يسرق ، فكذلك إذا هو أيقن أن الله عزَّ شأنه مطلع عليه ساعة السرقة يمتنع عنها حتماً . لأن تقوى الله وخشيته تربي النفس الإنسانية المؤمنة على أن الخوف ينبغي أن يكون من الله . أما الخوف من العباد وسياطهم فهذه منزلة هابطة ، ولا تكف عن الشر إذا لم تلهها يد القانون .

ثانياً - ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ : وهي ما يتوسل به إلى رضوان الله ، أو يقربكم إليه من طاعته . فالوسيلة : القربة التي ينبغي أن يطلب بها ، وتطلق أيضاً على أعلى منزلة أو درجة في الجنة . روي عن عبد الله بن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليّ ، فإنه من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه عشرًا ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي لعبد من عباد الله ، وأرجو

أن أكون هو ، فمن سأل لي الوسيلة ، حلت له الشفاعة" (١) .

فالوسيلة أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . ويراد بالوسيلة من الناحية الشرعية ؛ الأعمال الصالحة في هذه الحياة ، كما فسرها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " انطلق ثلاثة رهط مما كان قبلكم حتى أووا إلى غار فدخلوه فانحدرت عليهم صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان أبواي شيخين كبيرين ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا ولداً ، فنؤي بي شيء يوماً فلم أبرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو ولداً ، فلبثت والقدرح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى بزغ الفجر ، فاستيقظا ، فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم كانت لي ابنة عم أحب الناس لي ، فراودتها عن نفسها ، فامتنعت مني حتى ألت بها سنة من السنين ، فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أحل لك أن تفرض الخاتم إلا بحقه ، ففرضت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي ، وتركت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إنني استأجرت أجراً فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجره ، حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين وقال : يا عبد الله ؛ أدلي أجري ، فقلت له : كل

(١) صحيح مسلم في الصلاة : ٣٨٣ ، والبخاري / ٥٨٩ . وروى البخاري عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته . . حلت له الشفاعة " كتاب ١٤ ، باب ٧ ، حديث ٥٨٦ .

ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله ، لا تهزأ بي ، فقلت :
إني لا أستهزئ بك . فأخذه كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك
ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمضون . " (١)

ثالثاً) - ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ : « الجهاد ؛ من الجهد ، وهو المشقة والتعب . وسبيل
الله ؛ هي طريق الحق والخير والفضيلة والحرية للأمة . والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد
النفس بكفها عن أهوائها ، وحملها على العدل في جميع الأحوال ، وجهاد الأعداء الذين
يقومون بدعاة الإسلام . وقد رغب الله تعالى المجاهدين بما أعده لهم يوم القيامة من الفلاح
والسعادة العظيمة الخالدة ، فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ ، إي إن جاهدتم وتقرّبتم إلى الله
بطاعته ، حققتم الفوز والفلاح وسعادة الدنيا والآخرة . والمسلم مطالب دائماً بالجهاد
بمختلف أنواعه ، لأن فعل الحسنات وترك السيئات شاق على النفس . . » (٢)

فمدار السعادة في الدارين عائد إلى الإنسان نفسه ، وما يضره من تقوى ، وما
يقدمه من عمل وجهاد للنفس . قال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ
سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ - النجم / ٣٩-٤١ . وبعد التزامه بأوامر الله ،
وسعيه وفق المنهج الإلهي يرجو الله أن يتغمّده برحمته .

ومما جاء في التفسير المنير : « أما قوله تعالى ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ فقد استدل به
بعض الناس على مشروعية الاستغاثة أو التوسل بالصالحين ، وجعلهم وسيلة بين الله تعالى
وبين العباد .

وتحقيق القول في التوسل يأتي معتمداً على تفسير الألوسي :

١- التوسل بمعنى التقرب إلى الله بطاعته وفعل ما يرضيه ، وهو المراد بالآية ؛ هو
أساس الدين وفرض الإسلام . وعلى هذا يحمل توسل أهل الصخرة الثلاثة ، فإنهم

(١) زيادة الجامع الصغير : ١٠٧٤ .

(٢) التفسير المنير : ج ٦ ، ص ١٧٢ .

توسلوا إلى الله عزّ وجلّ بصالح الأعمال ، أي طلبوا الفرج بصلاح أعمالهم ، ولا شك أن الأعمال الصالحة سبب لثواب الله تعالى لنا ، ولم يتوسلوا بدوات الأشخاص .

٢- التوسل بالمخلوق والاستغاثة به بمعنى طلب الدعاء منه ، لا شك في جوازه ، إن كان المطلوب منه حياً ، فقد صحّ عنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه لما استأذنه في العمرة : " لا تنسانا يا أخي من دعائك " وأمره أيضاً أن يطلب من أويس القرني _ رحمه الله _ أن يستغفر له ، وأمر أمته صلى الله عليه وسلم بطلب الوسيلة له : " فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة " ^(١) .

(١) التفسير المنير: ج ٦ ، ص ١٧٤ ، عن الألويسي : ١٢٤ / ٦ - ١٢٨ .

النداء الرابع والثلاثون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

__المائدة/ ٥١__

لأبد في البداية من بيان معنى الولاية التي ينهى الله عباده الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى . فقد قال بعضهم : إنها التناصر والتحالف معهم ، والذي كان يلتبس على المسلمين أمره ، فيحسبون أنه جائز لهم ، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح مع جيرانهم من اليهود بسبب الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام . إنما بعد أن جاء القرآن يث الوعي اللازم لتحقيق المنهج الجديد في واقع الحياة ، ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين من لا ينضوي تحت راية الإسلام . المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية ، لأن السماحة مع أهل الكتاب شيء واتخاذهم أولياء شيء آخر ، كما ألحنا إلى هذا الجانب في نداء آخر . فلا خلط بين البر بأهل الكتاب في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق ، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله والمؤمنين . فقد عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود ، ولم يمانع في مودة من عاهد . أما أن يقبل المؤمنون حماية اليهود ومن والاهم من النصارى ، ويرضخ لنفوذهم وسلطانهم ، فهذا هو المقصود من ندائه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ناصراً ومُعِيناً ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ ، إذ يرى كثير من العلماء أن الأولياء جمع ولي ، وهو في اللغة ؛ النصير ، وكل من ولي أمر أحد فهو وليه (ولي أمرك من يرعاك ويدير شؤونك) .

وقد أظهرت الأحداث التاريخية على مرّ الأزمان أن اليهود ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ فهذه حقيقة واقعة لا علاقة لها بالزمن . فالصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية حليفتان في حرب الإسلام على كل ما بينهما من أحقاد . يحاولون نقض الإسلام عروة عروة ، ويحتضنون الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء العربية والإسلامية معاً في كل مكان ، ويلبسون القائمين بهذه الإجراءات أثواب البطولة الزائفة . وما أكثر الشواهد في أيامنا هذه على مانقول ، والتي منها : إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة العربية والإسلامية كلها تنزيهاً بزي الإسلام ، ولا تنكر الدين جملة ، ثم هي تحت هذا الستار الخادع تنفذ جميع المشروعات التي أشارت إليها مؤتمرات التبشير و(بروتوكولات حكماء صهيون) ، من تسخير أجهزة دينية لتحريف الكلم عن مواضعه ومقاصده ، والتشكيك بعلماء الأمة وفقهائها . أليسوا هم الذين قالوا في بروتوكولاتهم : «إنّ لنا طموحاً لا يُحد ، وشرهاً لا يشبع ، ونقمة لا ترحم ، وبغضاء لا تحس . إنّنا مصدر إرهاب بعيد المدى ، وإننا نسخر لخدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب . . . بهذا التدبير تتعذب الحكومات وتصرخ طلباً للراحة ، وتستعد _ من أجل السلام _ لتقديم أية تضحية ، ولكننا لم نمنحهم أي سلام حتى يعترفوا في ضراعة في حكومتنا الدولية العليا . . . »^(١) .

فأنتم أيها المؤمنون متى رضيتم أن تكونوا تحت حمايتهم ، وربطتم أنفسكم بعجلتهم ، فسوف يسخرونكم لأغراضهم ، ويستعمرون بلادكم ، ويستغلون منابع ثرواتكم . أليست استثمارات البترول في معظمها تحت سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الذين يتولّون اليهود ؟ . ألم يلاحظ الجميع كيف سيطرت الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العربي ، ثم سيطرت على حكوماته ، فأخذت تحدد ما يجب استخراجه وتصديره ، وأسعار المبيعات . ثم استطاعت أن تُفقد سلاح النفط وظيفته في معركة الصمود والتصدي ، أو إبطال جعله وسيلة ضغط سياسية . « فماذا عن توظيف

(١) بروتوكولات حكماء صهيون : ص ٤٣ .

فوائض النفط في الدول الغربية ، إذا كان عصر الضغط بالنفط قد انتهى ، بالطبع لا يمكن أن نقول إننا في عصر الضغط بالأموال . ما حدث هو العكس تماماً . إن توظيف فوائض النفط في الدول الغربية وبصفة خاصة أمريكا أصبح وسيلة ضغط على العرب ، بينما كان العكس هو المفروض . . إذن ماذا يبقى للعرب ، لا نفط ، ولا أموال ، ولا قوة تأثير خارجية ، فماذا يبقى للعرب من سلاح ؟ ؟ . . .^(١) .

أوكم يعلن الرئيس الأمريكي (كلينتون) حين تسلم الرئاسة عن سعيه لسد العجز المالي الذي يزيد عن (٢٧) مليار دولار ؟ فكيف تدفع الولايات المتحدة المليارات سنوياً مالياً وسلاحاً إلى دولة إسرائيل ؟ إنه استغلال ثروات البلاد العربية والإسلامية والمستضعفين في الأرض ، ومن أموال النهب ما يخصص لدعم الصهيونية ، ولوسائل الإعلام المتعاطفة مع الغرب وديموقراطياته المزيفة التي تدم العرب والمسلمين ، وترمي الفتن ، بل لمن يسير في ركاب المستعمر بحجة مساعدات إنسانية وغيرها . وما يدفع للعرب يسترد بأثمان سلع كمالية وأسلحة لا تحقق دفاعاً عن الأرض ، وإنما ليستخدمها الحكام في قهر الشعوب . ناهيك عن الدعم السياسي للصهيونية في جميع المحافل الدولية ، مهما كان موقف الصهاينة إجرامياً وباطلاً . فكم وكم من المرات سكت النظام الأمريكي عن ممارسات وحشية ولاأخلاقية (ولا ديموقراطية) ارتكبتها (إسرائيل) ضد شعبنا في الأرض المحتلة ؟ كما يبارك اعتقال ألوف المواطنين على الهوية ، وقتل العشرات بالجملة ، وهدم الدور على ساكنيها ، وطردها المواطنين من أرضهم ، وما لا حصر له من المواقف اللاإنسانية . رغم كل ذلك نجد من يتولى _ أو على الأقل _ يطلب نصرة من يعادي أمتنا ومواقفها القومية أو الدينية . وهم يرون أن الاعتماد على نصرة الذين غناهم النداء المذكور لم يؤد إلى تبعية سياسية أو عسكرية فحسب ، بل حتى تبعية اقتصادية واستهلاكية وغيرها . . وقد عرضنا قبل قليل صورة عن التآمر على الدول النفطية ، وهذه صورة من صور التآمر على الدول الأخرى ،

(١) د . اسماعيل صبري عبد الله ، مجلة العربي ، ص ٩٨ ، العدد ٣٢٥ ، ديسمبر ١٩٨٥ .

حيث يدعون حرصهم على تقديم مساعدات غذائية لها ، ولكن لا يتم تقديمها إلا وفق شروط . أو يتم توجيه بعض البلدان لسلوك طريق الزراعة ، وآخر لسلوك طريق الصناعة . فالذي زرع وفق توجهاتهم تأمروا عليه بعد نمو المحصول فعرضوا منتوجاتهم بسعر أرخص ليعتمد عليهم في مرات أخرى . والذي صنع وفق توجهاتهم لم يكده يعوض كلف المعامل التي استوردها حتى حجبا عنه قطع التبديل وأغروه بمعدات وآلات أحدث لاستمرار الابتزاز . . وهكذا . .

« إنها سلسلة من المخططات التي وضعها المستعمرون في عواصمهم ، ونفذوها منذ الحرب العالمية الأولى ، بالخدعة حيناً ، وبالقوة أحياناً ، فرضوا التجزئة على الوطن العربي ، وحاولوا تجزئة القطر الواحد إلى دويلات ، وعملوا لإخضاع البلدان العربية كافة لنفوذهم وسيطرتهم ، ليحولوها إلى مصادر للمواد الأولية ، وأسواق لمنتجاتهم ، وقواعد عسكرية برية وبحرية وجوية تعرض بلادنا بغير ذنب إلى أخطار جسيمة ، ثم أوجدوا إسرائيل ودعموها بكل وسائل الدعم ؛ بشرياً ، وعسكرياً ، ومالياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، وحرصوها على العدوان والتوسع ، غير آبهين بصوت الحق وقواعد العدالة ومبادئ الأمم المتحدة ، بل غير آبهين بالمبادئ التي يدعون إيمانهم بها . . »^(١)

ومما يزيد قوله تعالى : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ وضوحاً : العلاقة الأمريكية-الإسرائيلية ، والتي هي أقوى من أي تحالف مكتوب ، علاقة يزود بها الأمريكيون إسرائيل بكل مقومات الحياة . . ومنها ما أعلنه الرئيس الأمريكي (جورج بوش) في (كينيسو نكبورت) في ختام زيارة رئيس وزراء إسرائيل (رايين) إلى الولايات المتحدة عقب حرب الخليج ، حيث قال : « التزاماً بعلاقاتنا الاستراتيجية سوف تستمر الولايات المتحدة في تقديم مساعدة أمنية واسعة النطاق لإسرائيل ، والمحافظة على التفوق النوعي لإسرائيل

(١) من خطاب الرئيس حافظ الأسد في افتتاح مؤتمر البرلمانين من أصل عربي ، مجلة نهج الإسلام ، العدد ٢٢ / السنة السادسة / ١٤٠٦ هـ ، تشرين ١٩٨٥ .

على خصومها، وسوف نستمر في توسيع وتعميق العلاقة الاستراتيجية مع حليفنا إسرائيل الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط . . .»^(١). هؤلاء هم اليهود والنصارى الذين ينهانا عن مواليتهم مَنْ عِلْمُهُ يَتَنَاوَلُ الزَّمَانَ كُلَّهُ .

لقد كان وما يزال المسلمون والمتصفون بالإسلام يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى الشيء الكثير . والذين لا يستجيبون لنداء الله تعالى وتحذيره يتأثرون بحركات التمييز الخادعة التي يسلكها أعداء الإسلام، من طمس لمعالم القضية الحقيقية بكل وسائل الدعاية وشراء الأقلام حتى تسمم الرأي العام العالمي وتاه في منعرجات الباطل الصهيوني، وأصبح خلافاً لكل منطق يناصر ذابح الحرية باسم الحرية . وما على المؤمن إلا أن يقرأ القرآن فيدرك كيف حذر هذا المنهج من أساليهم وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وكان ظالماً لنفسه ولدينه، ولوطنه ولأمته . وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله تعالى في حكم اليهود، فلا يؤجر على العمل معهم ، ولا يعدّ شهيداً إذا قتل في صفوفهم وتحت رايتهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم باستعمال مواهبهم في غير ما خلقت له من طلب الهداية ، واستمداد العزة من غير مانحها وهو الله العزيز الحكيم .

لقد كان هذا النداء تحذيراً عنيفاً للمسلمين في المدينة ، ولكنه تحذير يمثل حقيقة واقعة ، ويرشد إلى أمور كثيرة أهمها :

لا يجوز لأي مسلم أن يتخذ من غير المسلم ولياً له، أي صاحباً تشيع بينهما مسؤولية الولاية والتعاقد . وهذا من الأحكام الإسلامية التي لم يقع خلاف فيها بين المسلمين، إذ الآيات القرآنية الصريحة في هذا كثيرة ومتكررة ، والأحاديث في تأكيد ذلك تبلغ مبلغ التواتر المعنوي . «ولا يستثنى من هذا الحكم إلا حالة واحدة: هي إذا ما أُلجئ

(١) الإدارات الأمريكية وإسرائيل، هشام الدجاني، ص ١٦٥ . عن كتاب السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ١١ سبتمبر ١٩٩٢ .

المسلمون إلى هذه الموالاة بسبب شدة الضعف التي قد تحملهم كرهاً على ذلك ، فقد رخص الله في ذلك ، إذ قال : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ _ آل عمران / ٢٨ _ .

وينبغي أن تعلم أن هذا النهي عن موالاة غير المسلمين لا يعني الأمر بالحقدهم عليهم ، فالمسلم منهي عن أن يحقد على أحد من الناس . وينبغي أن تعلم أن هنالك فرقاً كبيراً بين أن يغضب الإنسان على أحد الله تعالى ، وأن يحقد عليه . . . والغضب لله ، ليس في حقيقته إلا نتيجة شفقة على العاصي أو الكافر المستحق لذلك . إذ إن المؤمن من شأنه يحب لجميع الناس ما يحب لنفسه . وليس شيء أحب إلى نفس المؤمن من أن يخلصها من عذاب القيامة ويضمن لها السعادة الأبدية . . كذلك ينبغي أن تعلم أن النهي عن موالاة الكافرين لا يستدعي جواز التساهل في تحقيق مبدأ العدالة معهم ، واحترام المعاهدات التي قد تكون قائمة بين المسلمين وبينهم ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ .^(١)

(١) فقه السيرة للدكتور البوطي ، ص ٢٥٩ و ٢٦٠ .

النداء الخامس والثلاثون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَائِمَةً ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

— المائدة / ٥٤ —

هذا النداء أول من خوطب به الذين آمنوا وصاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل المسلمين أينما وجدوا وفي أي زمان : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واليوم الآخر ؛ تمسكوا بعقيدة الإسلام واثبتوا على مبادئها وأحكامها ، وخذار أن يضعف إيمانكم بها ، أو تجدوا شيئاً مما فرض الله عليكم من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج ، فإن إنكار أي فرض من فرائض إسلامكم أو ركن من أركان إيمانكم يعتبر ارتداداً عن العقيدة الصحيحة والإيمان السليم ، فإن ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي يرجع عن الحق وعقيدته الصحيحة التي كانت من فضل الله عليه لتحقيق الصلاح والخير ، ومن يجحد شيئاً مما فرضه الإسلام — كما حدث في عهد أبي بكر — فقد ارتد وبرهن على تخليه عما يوجبه الإسلام من محبة الله ورسوله ، وهذا لن يضر الله شيئاً ، وإن الله لغني عن العالمين ..

« قال القرطبي رحمه الله : هذا من إعجاز القرآن ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن ارتدادهم ، ولم يكن ذلك في عهده ، وكان ذلك غيباً ، فكان على ما أخبر بعده ،

وأهل الردّة كانوا بعد موته . قال ابن إسحاق : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب إلى ثلاثة ؛ مسجد في المدينة ، ومسجد مكة ، ومسجد جواثي ، وكانوا في ردّتهم على قسمين : قسم نبذ الشريعة كلها وخرج عنها ، وقسم نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها ، قالوا : نصوم ونصلي ولا نزكي ، فقاتل الصديق جميعهم ، وبعث خالد بن الوليد إليهم بالجيش فقاتلهم وسباهم ، على ما هو مشهور من أخبارهم . .

وفي رواية ابن جرير الطبري عن قتادة^(١) : قيل لأبي بكر : إنهم لو قد فقهوا لهذا ، أعطوها وزادوها ، فقال : لا والله ، لا أفرّق بين شيء جمع الله بينه ، ولو منعوا عقلاً مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه . . . فقاتلهم حتى أقرّوا بالماعون (وهي الزكاة) صغرة (أذلاء مهينين) أقمياء (ذليلين ضعفاء) . . .»^(٢) .

وهكذا عاملهم الصديق رضي الله عنه معاملة الكافرين لأن الكفر بأوامر الله كفر به ، ومن كفر بالله أو جحد ما فرض عليه فقد برهن على تخليه عن دينه ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن يستبدل الله به من هو خير منه ، ولذا قال : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ أي يبادلهم سبحانه الحب . هذا الروح الساري اللطيف المشرق ، هو الذي ربط القوم بربهم . «وحب الله لعبد من عبده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره . أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي ، الذي يعرف من هو الله ، من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير ، من هو في عظمته ، ومن هو في قدرته . . ومن هو ؟ ومن هذا العبد الذي يتفضل الله

(١) قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري الأكمه ، أحد الأئمة الأعلام ، قال عنه ابن المسيب ما أثنانا عراقي أحفظ منه ، توفي عام (١١٧ هـ) أخباره كثيرة في حلية الأولياء (٢/٣٣٢) .

(٢) انظر : التفسير المنير ج ٦ ص ٢٣٢ ، والحديث الأخير ذكره البخاري في الباب ١٠١ ، ومسلم برقم ٢٠/٣٢ .

عليه منة الحب وهو من صنع يديه ؟ خلقه من تراب ثم قال له : كن ، فكان . . . إن هذا الحب من الإله العلي القدير لهذا العبد الضعيف الفقير ، لم يثبته القرآن إلا لذوي الأعمال العظيمة التي تفوق في قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها . . .»^(١) . فمن هذه الأعمال والأوصاف التي وصفهم الله تعالى بها : - التوَّابون ، المتطهِّرون ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ - البقرة / ٢٢٢ _

- الْمُتَّقُونَ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ - آل عمران / ٧٦ _ .

- الصَّابِرُونَ : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ - آل عمران / ١٤٦ _ .

- الْمُقْسِطُونَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ - المائدة / ٤٢ _ .

هذه بعض أوصاف من أحبهم الله . ومن أحبه الله عامله بلطفه ، وجاد عليه بإحسانه ، وفتح عليه بما يبلغه أمله ولا يدركه كدّه وعمله . ومحبة العبد لله تعالى تعلق القلب بذكره ودوام الشغف بمناجاته ، وهذا يحملهم على طاعته وعدم التفريق بين شيء مما أوجبه عليهم من الطاعات ، بحيث يكون مظهر ذلك بادياً في أعمالهم والتقرب إليه باتصافهم بأربع صفات :

- الصفة الأولى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ لم يقل الله تعالى أذلة للمؤمنين ، لئلا يظن

أن الذل من طبعهم ، بل هم على شرفهم وعلو مقامهم وفضلهم يتواضعون للمؤمنين ويعطفون عليهم . وهي صفة مأخوذة من الطوعية واليسر ، فالمؤمن ذلول للمؤمن هينٌ لئِنْ .

- الصفة الثانية : ﴿ أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ؛ لا يخضعون ولا يطأطئون رؤوسهم

لأعدائهم من غير المؤمنين ، فيهم على الكافرين إباء واستعلاء ، إنها هي العزة للعقيدة والاستعلاء للرأية . إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير ، والثقة بغلبة دين الله على دين الهوى .

- الصفة الثالثة : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ؛ لا يفترون عن العمل المتواصل في

(١) الحب بين العبد والرب ، ص ١٢ .

سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه الحق ، ومناصرة إخوانهم في الدين بقدر استطاعتهم .

- الصفة الرابعة : ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ ؛ لا يبالون بما يقوله الناس طالما ضمنوا حب رب الناس ، واستمدوا قوتهم وعزّتهم من قوة الله وعزّته لا من الناس .

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فما ذكر من الصفات الأربع فضل من الله تعالى .

فمن أراد أن يبادلّه الله الحب فليحاول دائماً أن يتصف بهذه الصفات ليكون مفضلاً عند الله . وليكثر من النوافل حتى يصبح محبوباً لله محبباً لله في وقت واحد . ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

فالله واسع القدرة لا يعجزه الإتيان بقوم من هذا النوع من الناس ، وعليم بمن هو أهل لذلك ممن اتصف بالصفات المذكورة . فمن اتصف بها نال الفضل من الله تعالى ، ومن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم هذه المنّة فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين .

النداء السادس والثلاثون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

المائدة/ ٥٧

لقد سلك المنهج القرآني طرقاً متنوعة لنهي الذين آمنوا عن تولّي المخالفين لهم في عقيدتهم . وكنا قد رأينا في نداء سابق كيف حذّره من الرضوخ لحكم المستعمرين من اليهود والنصارى ، وثنى بضرورة الثبات على العقيدة الإسلامية ، وعدم التفريط في شيء مما تقتضيه شريعته .

وهاهو يثير في نفوس المؤمنين الحميّة لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم ، فيقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله عن يقين صادق ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ أي الذين جعلوا من شريعة الله وتعاليمه محلاً للسخرية والاستخفاف ، وأداة للهو والمزاح ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾ أي من اليهود والنصارى المستهزئين والذين ينكرون وجود الله من الملحدين وأمثالهم الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر من عباده . فهؤلاء إياكم أن تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي أصدقاء ومحبين أو مناصرين ، لأن من يسخر بدينكم فقد سخر منكم ، ومن يسيء إلى دينكم يسيء إليكم ، فكيف يقوم ولاء بينكم وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون مثل هذه الأفعال ؟ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في موالاته الكفار والفجار ﴿إِنَّ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ﴾ حقاً ، إذ الإيمان يوجب عليكم عدم السكوت على هذا الهزء ، ودفع المعتدي حتى يتوقف عن اعتدائه بالهزء على الصلاة وغيرها من الشعائر الدينية كالأذان والتكبير ، أو

يسخر من الداعي أو المؤذن . ولئن كان هذا الاستهزاء يقع من المشركين كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب في الفترة التي كان ينزل فيها القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى كان يضع للمسلمين قاعدة تصورهم ومنهجهم وحياتهم الدائمة ، لأنه يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين . فها نحن نرى من أعداء الإسلام من اليهود والنصارى من يبعث بالمبشرين إلى أقاصي الأرض ليعلنها حرباً مشبوبة على الإسلام والمسلمين ، مشوهاً الإسلام الحقيقي ، ومستهزئاً بمبادئه وفقهائه والأخلاق الحميدة التي يأمر بها المؤمنين ، وأصبحنا نرى ونسمع في وسائل الإعلام الكثير من صور الهزء واللهو من خلال بعض التمثيليات . مع أن هذا الدين جاء يأمر أهله بالسماحة كما جاء ليبنى نظامهم الاجتماعي ، وجاء يأمر بحسن معاملة أهل الكتاب والذين قالوا إنا نصارى منهم خاصة ، مبيّناً أن الكراهية والغضب في الله تعالى يجب أن لا يقفا حاجزاً دون تحقيق مبادئ العدالة يوماً ما ، ويبين أن حسن المعاملة مسألة خلق وسلوك ، أما الولاء فمسألة عقيدة ومسألة تنظيم . إن الولاء هو النصرة ، والتناصر بين فريق وفريق ، ولا تناصر بين المسلمين وأهل الكتاب . وقد ذكرنا في نداء آخر أن التناصر تناصر في الدين وفي الجهاد لإقامة منهج الله ونظامه في حياة الناس . فقيم يكون التناصر في هذا بين المسلم وغير المسلم الذي يأبى أن يطفئ حربه المشبوبة إلاّ ببرد المسلم عن دينه . ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۝ النساء / ٥٩ . ولكنهم من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم يسلكون طريق الخداع في حربهم التي يشنونها على الإسلام والمسلمين ، ويتظاهرون بالحبّة وأنهم إنما يهزؤون من المتعصبين الذين حرفوا الإسلام عن حقيقته . ويشيعون أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت ، وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعاً ، ثم تنور العالم وتقدم ، فلم يعد من اللائق أن يقوم الصراع على أساس العقيدة ، وإنما الصراع اليوم على أساس المادة . . فما يجوز للمسلمين أو ورثة المسلمين الذين يتشدقون ببضع كلمات تلقفوها من إحدى اللغات الأجنبية منتقدين عاداتنا الاجتماعية نابذين أوامر الدين والأخلاق الحميدة أن يتحدثوا في الدين ولا في صراع الدين . فهؤلاء

حين يطمئنون إلى استئامة الروح الإسلامية يشنون لتجزئة البلاد ونهب الخيرات آمنين غضبة المسلمين لله وللعقيدة ، فيغلب المسلمون في معركة المادة بعد ما يغلبون في معركة العقيدة . و مما يؤسف له أن عملاء أهل الكتاب ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك يقولون القول نفسه ويؤدّون الدور من داخل الحدود . ومنهم من يتشدد ببعض كلمات تلقفها من إحدى اللغات الأجنبية منتقداً عاداتنا وأوامر الدين والأخلاق .

فالأية إذن : « تأكيد صريح لما سبق من قطع الموالاتة مع الكفار عامة ، لأنهم يستهزئون بشرائع الإسلام وأحكامه ، وبخاصة وقت النداء أي الأذان للصلاة . . قال الكلبي : كان إذا أذن المؤذن ، وقام المسلمون إلى الصلاة ، قالت اليهود : قد قاموا ، لا قاموا ، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا . وقالوا في حق الأذان : لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم ، فمن أين لك صياح مثل صياح العير ؟ فما أقبحه من صوت ، وما أسمعجه من أمر .

والأذان من شعائر الإسلام ، وهو العلامة الدالة المفرقة بين دار الإسلام ودار الكفر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية قال لهم : "إذا سمعتم الأذان فأمسكوا وكفوا ، وإن لم تسمعوا الأذان فأغيروا" . أو قال : "فشئوا الغارة" . . . » ^(١) .

فهل نرى مثل ذلك الهزء في أيامنا ؟ إذا كان مثل ذلك الهزء أو السخرية يصدر عن أهل الكتاب نفهم من ذلك أن الأمر الإلهي ينسحب على كل مسلم يصطدم بمن يتخذ دينه لهواً ولعباً ، فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه عقيدة وسلوكاً ، ويجالس الذين يتحدثون عن الغيب كقيام الساعة والحساب _ وهو أصل من أصول العقيدة _ حديث الاستهزاء ، والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث إنكار واستنكار ، والذين يضحكون من الذين يعظمون شعائر الله التي أمر بتعظيمها ، أولئك من

(١) التفسير المنير : ج ٦ ، ص ٢٤٦ . والحديث جاء في مسند الإمام أحمد من حديث أم حبيبة ، وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

المعنيين في هذا النداء . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ _ الأنعام / ٦٨ _ . فالمسلم مأمور بمقاطعتهم إلا إذا كان قادراً على تذكيرهم وإصلاح نفوسهم ، كما هو مأمور بعدم مناصرتهم إذا وقفوا موقف العداء للإسلام والمسلمين ، والله أعلم .

النداء الساجد والثلاثون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

_____المائدة/ ٨٨_____

روى ابن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس إلى أصحابه في بيت عثمان ابن مظعون يعظمه ، فوصف لهم يوم القيامة ، وبألف وأشبع الكلام في الإنذار والتحذير ، فعزموا على أن يرفضوا الدنيا ، ويحرّموا على أنفسهم المطاعم الطيبة ، والمشارب اللذيذة ، وأن يصوموا النهار ويقوموا الليل ، وأن لا يناموا في فراش النساء . بل لقد عزم بعضهم على أن يجب مذاكيره ، ويلبسوا المسوح ، ويسبحوا في الأرض ، فوصل خبرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألهم ، فقالوا: ما أردنا إلاّ خيراً . فقال لهم: "إني لم أأمركم بذلك ، إنّ لأنفسكم عليكم حقاً ، فصوموا وافطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأكل اللحم والدسم ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني" وليس في ذلك شيء من الحضي على الاستزادة من أسباب الشهوات ، بل ذلك نهي عن الرهبانية الموصلة إلى هدم الأجسام وانحلال القوى ، ومتى انهدمت الأجسام وانحلّت القوى تسرّب الخراب والاضمحلال إلى الأمة ، فلا تقوى على العمل . وأيضاً فالناس مطالبون أن يُعملوا عقولهم في مصلحة المجتمع ، وأنّي لهم ذلك ، فالله لما نهانا عن تحريم الطيبات نهانا عن الاعتداء ، وقال: ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً . ﴾ ، فهو يأمرنا أن

نكون وسطاً ، وأن نلزم التوسط في الأمور . . .^(١) .

وفي الصحيحين من رواية أنس رضي الله عنه ، شاهد بهذا الذي رواه ابن جرير ، قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا عنها كأنهم تقالُّوها . قالوا : أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : " أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما إني والله لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . " ^(٢) .

هذا الذي روينه يوحى بأن بعض المؤمنين ظنوا أن الزهد مرتبة كمال تقربهم من الله تعالى ، لذا عمد جماعة من الصحابة إلى مثل هذا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، فكما لا يجوز استحلال المحرمات ، لا يجوز أيضاً تحريم ما أحل الله من الطيبات ، فإن ذلك يعد بمثابة ما كان عليه العرب قبل الإسلام من تحريمهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . وتحريم الطيبات عام ، ينطبق على من يحرم الشيء على نفسه بنذر أو يمين ، أو على غيره بإفهامه بأن ذلك من الدين ، أو أن فيه قرينة إلى الله . فهو نداء التذكير والتقرير لأصل الإيمان وقاعدته ؛ إن مقتضى إيمانكم ألا تتزاولوا أنتم _ وأنتم بشر عبيد لله _ خصائص الألوهية التي يتفرد بها الله . فليس لكم أن تحرموا ما أحل الله لكم من الطيبات ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ أي ليس لكم أن تمتنعوا على وجه التحريم عن الأكل مما رزقناكم حلالاً طيباً ، فالله هو الذي رزقكم ، والله هو صاحب الحق في أن يقول لكم هذا حلال وهذا حرام ، والخارج على هذا المبدأ معتد ، ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ الذين

(١) تفسير آيات الأحكام : ٢٠١ / ٢ .

(٢) رياض الصالحين : باب الاقتصاد بالطاعة ، ص ٧٨ .

يتجاوزون حدود شريعته ، وسنن الفطرة التي فطر الناس عليها ، ولو بقصد عبادته ، ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ ، أي كلوا واشربوا من كل ما أنعم الله به عليكم من أنواع الرزق شريطة أن يكون ذلك عن طريق الكسب الشريف ﴿ حَلَالاً ﴾ في نفسه أو في طريقة كسبه ، ليخرج من ذلك الميتة وغيرها من المأكولات (كما مر معنا في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .) ، ويخرج أيضاً ما ينال عن طريق غير مشروع كالربا وأكل أموال الناس بالباطل . فالمطلوب أكله ما كان حلالاً ﴿ طَيِّباً ﴾ غير ضار بالصحة أو بالعقل ، فيخرج كل مستقذر في نفسه أو بفساده أو بسبب نجاسة طرأت عليه ، وكل مسكر ومخدر . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي احذروا أن يراكم الله تعالى على وضع تتجاوزون فيه حدود ما أحل وما حرم ، واحذروا أن تعتدوا أو تتجاوزوا إلى ما يسخط الله ورسوله ، إذ الإيمان بالله يوجب الوقوف عند حد الاتباع والحذر من الابتداع .

يستدل من النداء على مايلي : « الرزق اسم يتناول الحلال والحرام ، ولو كان خاصاً بالحلال لما كان لوصفه كبير فضل . وتذليل الآية بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بعث على المحافظة على ما أوصى المسلمين به والمداومة عليه . وقد أمر الله بالتقوى عقب النهي عن تحريم الطيبات . والأمر بالأكل من الرزق الطيب الحلال ليشعرنا بأنه لا منافاة بين التلذذ بالطيبات من الرزق وبين التقوى . غير أنه يجب أن تكون تقوى الله رائدنا فيما نقدم عليه من عمل ، فلا نسرف ولا نقتر ، ولا نضار أحداً .

والآية بعمومها دليل على حرمة الرهبانية ، وقد جاء النهي عنها صريحاً في القرآن وفي السنة . فقد صرح القرآن بأن الرهبانية مبتدعة ، وجاء في السنة من طرق كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله لم يبعثني بالرهبانية" ^(١) .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مجلد ٦ ، عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون ، أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهي باذلة الهيئة ، فسألتها : ما شأنك ؟ فقالت : زوجي يقوم الليل ويصوم النهار ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت عائشة ذلك له ، فلقى رسول =

والآية على هذا في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف/ ٣٢-٣٣].^(١)

= الله صلى الله عليه وسلم عثمان فقال: "يا عثمان! إن الرهبانية لم تكتب علينا ، أفما لك في أسوة ،
فوالله إني لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده".
(١) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ٢٠٢.

النداء الثامن و الثلاثون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ
رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

__المائدة/ ٩٠__

ذكرنا أن الإسلام في معالجته لتقاليد الجاهلية البالية كان ذروة في المنهج التربوي ، طالما بدأ من عقدة النفس البشرية الأولى ؛ عقدة العقيدة . بين للناس تصوراتهم عن الألوهية ، وهداهم إلى إله واحد لا شريك له ، وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم وما يكرهه . . عندئذ بدأت التكاليف ، بما فيها الشرائع التعبدية ، ثم بدأت تنقية رواسب الجاهلية النفسية والأخلاقية والاجتماعية ، وحتى الاقتصادية . ومن معالم الجاهلية ومفاخرها التي نهاهم الإسلام عنها الخمر والميسر . ولكن نهج التربية الإسلامية لم يحرم الخمر وما يتصل بها من الميسر فجأة ، وإنما جاء التحريم على مراحل ثلاثة أو أربعة : كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه ، حين قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ _ النحل / ٦٧ _ فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر .

ثم كانت المرحلة الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ﴾ _ البقرة / ٢١٩ _ ، وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ، مادام الإثم أكبر من النفع ، إذ أنه قلما يخلو شيء من نفع ، ولكن حله أو حرمة إنما تركز على غلبة الضرر أو النفع .

المرحلة الثالثة : كسر عادة الشراب ، وإيقاع التنافر بينه وبين فريضة الصلاة : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ _ النساء / ٤٣ _ والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب ولا يكفي ما بينها للسكر ثم الإفاقة . وفي هذا تضيق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب ، وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي ، وفيه ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة في مواعيدها والوفاء بعادة الشراب في مواعيدها .

المرحلة الرابعة ؛ وهي المرحلة الحاسمة بعد أن تهيات النفوس لها تهيؤاً كاملاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ؛ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ إنها صيغة النهي القاطع الذي لا يحتمل أي تأويل .

فالخمر ؛ هي التي عرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رواه ابن عباس : " كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام " ^(١) . وروى ثابت عن أنس قال : حرمت علينا الخمر يوم حرمت وما نجد خموراً إلا القليل ، وعامة خمورنا البسر والتمر . وروي عنه أنه سئل عن الأشربة فقال : حرمت الخمر وهي من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، فمن كان عنده ما أسكر من هذه الأشربة فهو الخمر . وفي رواية أخرى أضاف : والخمر ؛ ما خامر العقل . ^(٢) .

أما الميسر ؛ مشتق من اليسر ، لأنه أخذ المال بسهولة من غير تعب ولا كد ، ويدخل فيه اليانصيب وكل أنواع القمار وصوره .

والأنصاب ؛ الأصنام التي كان المشركون ينصبونها وقيمونها للعبادة من دون الله ، سواء أكانت مصورة أم غير مصورة .

والأزلام ؛ أقداح كان العرب يستعملونها لمعرفة ما قسمه الله لهم من أمور الغيب إذا أرادوا سفرأ أو زواجاً أو نحوهما ، مكتوب على أحدها : أمرني ربي ، وعلى الثاني : نهاني

(١) أخرجه مسلم في الأشربة ، رقم : ٢٠٠٣ ، والبخاري برقم : ٧٧ / كتاب الأشربة ، ج ٤ .

(٢) أنظر صحيح البخاري ، رقم ٤٣٤٣ .

ربي، والثالث غفل لا كتابة عليه . فإذا أراد الجاهلي أمراً ذهب إلى الكاهن واستقسم بهذه الأضلام التي تكون موضوعة في جراب، فإن خرج له؛ أمرني ربي، مضى لسبيله، وأنفذ ما عزم عليه . وإن خرج؛ نهاني ربي، أمسك عما عزم عليه . وإن خرج الغفل أجال الأقداح حتى يخرج له الأمر أو الناهي . فالنداء أظهر أن كلا من الخمر والميسر والأنصاب والأضلام رجسٌ من عمل الشيطان الذي يزين للإنسان ما فيه معصية للخالق وضرر للإنسان، ولا ينطبق عليه وصف الطيبات التي أحلها الله تعالى . وأعقب على هذا التحريم بيان مضار الخمر والميسر في الآية التالية: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ . وهذا يعني أن الخمر قد تعرّت على حقيقتها، وبيان لأصحاب العقول السليمة خطرها « فهل يستنكف بعد هذا البيان والتعرية أحد عن تحريمها والابتعاد عنها ؟ فلا شك أن المنصف العاقل يقول : انتهيت ياربّ بعد أن بيّنتَ وفصلتَ وحرّمتَ . وهذا ما فعله الصحابة بعد أن انفضحت الخمر ونزلت آية التحريم . . . وقس على ذلك تحريم القرآن لكل المعتقدات الجاهلية والمفاسد الاجتماعية ؛ كالزنا، والربا، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وغيرها . . فإن القرآن لم يحرمها إلا بعد أن عراها على حقيقتها وذكر الكثير من مساوئها، وأهاب بأصحاب العقول الراجحة أن يتعدوا عنها، لأنها تؤدي بالفرد والمجتمع إلى أسوأ النتائج وأفدح الأخطار . »^(١) .

لذا لما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الأمر قال : أقرنت الخمر بالميسر والأنصاب والأضلام، بعد ألها وسحقاً . فتركها الناس ، ولم يحتاجوا إلى أكثر من مناد ينادي في المدينة : يا أيها القوم ، إن الخمر قد حرّمت . فمن كان في يده كأس حطّمها، وشقت زقاق الخمر، وانتهى الأمر كأن لم يكن خمر ولا مسكر . وهذا ما يجب أن يعلمه المؤمن في كل زمان ومكان أن هذا القرار إلهي فيلتزم به دون حاجة إلى رقابة من الأشخاص

(١) تربية الأولاد في الإسلام: ٦٧٦/٢ .

فكيف إذا كان هذا القرار مصحوباً بالإطماع في الفلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ في حياتكم وتفوزوا برضى الله تعالى الذي يعلم الفساد من المصلح ، ويعلم أن الشيطان سيوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة .

ومما يرشد إليه النداء : ١- حرمة الخمر والميسر لما فيهما من أضرار نفسية ، وخلقية ، واجتماعية ، واقتصادية .

٢- حكمة القرآن الكريم في معالجة قضايا المجتمع ، فقد لاحظنا أسلوب التدرج في النهي ، وما في هذا الأسلوب من فوائد تربوية .

٣- منزلة الدين في النفوس المؤمنة التي تستجيب فوراً لنداء الله تعالى .

النداء التاسع والثلاثون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيَاءَ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

المائدة/ ٩٤ _

لقد افتتح الله سبحانه سورة المائدة بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ
الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۖ ۞ ﴾ . ثم نهى عباده المؤمنين عن
تحريم ما أحلَّ لهم من الطيبات ، ثم استثنى من ذلك ما كانوا يستطيعونه من الخمر والميسر ،
وقال: ﴿ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ۖ ۞ ﴾ . ثم أراد الله أن يشعرهم بأنه إذا كان هناك
ما هو حلال وطيب بلا جدال وحرمة الله عليهم في وقت معين فليس من حقهم أن يعصوا
أمره ، بل عليهم أن يعلموا أنه لا بدَّ وأن يكون لذلك من حكمة بينها بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ ۖ ۞ ﴾ أي مقدمون على اختبار أو امتحان من الله وابتلاء ، والمراد بالابتلاء في
مثل هذا المقام أن يعامل العباد معاملة المبتلى المختبر ليعلم التزامهم ومدى ثباتهم على المحن
والشدائد ، ﴿ بَشْيَاءَ مِنَ الصَّيْدِ ۖ ﴾ أي صيد البر في حال الإحرام ، أو في أرض الحرم ﴿ تَنَالُهُ
أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ۖ ﴾ إنه صيد سهل يسوقه الله إليكم ، ويصبح ميسوراً على أيديكم من
قريب ، وتنال رماحكم بلا مشقة .

قال مقاتل بن حيان أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية ، فكانت الوحش والطير
تغشاهم في رحالهم بشكل لم يروا مثله قط ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون . كما نهى
بني إسرائيل عن صيد البحر في يوم السبت ، ولكنهم عجزوا عن الصمود أمام الإغراء

الذي كان فيه الابتلاء ، فألحوا على نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل الله لهم يوماً للراحة وللصلاة ، لا يشتغلون فيه بشيء من شؤون المعاش ، فجعل لهم السبت ، ثم ساق إليهم صيد البحر يجيئهم قاصداً الشاطئ متعرضاً لأنظارهم في يوم السبت ، فإذا لم يكن السبت اختفى ، شأن السمك في الماء ، فلم يطيقوا الوفاء بعهودهم مع الله ، وراحوا في جيلة اليهود والمعروفة _ يحتالون على الله فيحوطون على السمك يوم السبت ولا يصيدونه ، حتى إذا كان الصباح التالي عادوا فأمسكوه من التحويلة . وذلك الذي وجه الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم لأن يواجههم ويفضحهم به في قوله : ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ، إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ _ الأعراف / ١٦٣ . وهكذا قضت سنة الله أن يكون الاحتيال في الدين فسق يحرم الله الناس بسببه مما أرادوا الاحتيال على نيله .

هذا الابتلاء بعينه ابتلى به الله الأمة المسلمة ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علم تسجيل للواقع الثابت الذي يجزي الله بمقتضاه ﴿مَنْ يَخَافُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ليظهر ما علمه الله أولاً من أهل طاعته ومعصيته حاصلاً منهم ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان والإشعار بأن الغاية منه إنما هي الاختبار ، فمن فشل فيه ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنه لم يبال باختبار الله وسجل على نفسه أنه ممن لا يخاف الله بالغيب «وعذابه أليم لأن المخالفة بعد الإنذار مكابرة وعدم مبالاة ، والمراد بالعذاب عذاب الآخرة ، وقيل هو عذاب الدنيا . فقد روي عن ابن عباس قال : هو أن يوسع ظهره وبطنه جلدأً ويسلب ثيابه . وقيل : المراد عذاب الدارين ، وإليه ذهب شيخ الإسلام . »^(١)

لقد نجحت هذه الأمة في هذا الاختبار ، حيث أخفق بنو إسرائيل ، ومن ثم نزع الله الخلافة من بني إسرائيل ، واثمن عليها هذه الأمة . ونجحت هذه الأمة في مواطن كثيرة ، ويمكن لها في الأرض ما لم يمكن لغيرها من قبلها . . ولقد كان هذا الاختبار بالصيد السهل

(١) تفسير آيات الأحكام : ٢ ص ٢١١ .

في أثناء فترة الإحرام، أحد الاختبارات التي اجتازتها هذه الأمة بنجاح، وكانت عناية الله بتربية هذه الأمة بمثل هذه الاختبارات من مظاهر رعايته واصطفائه. «لقد كشف الله للذين آمنوا في هذا الحادث عن حكمة الابتلاء ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾. إن مخافة الله بالغيب هي قاعدة هذه العقيدة في ضمير المسلم، القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وبناء السلوك، وتناط بها أمانة الخلافة في الأرض بمنهج الله القويم. إن الناس لا يرون الله ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافه. إن استقرار هذه الحقيقة الهائلة. . يعبر عن نقلة ضخمة في ارتقاء الكائن البشري واستخدام أجهزته المركوزة في تكوينه الفطري على الوجه الصحيح. بينما يعبر انغلاق روحه عن رؤية ما وراء الحس، وانكماش إحساسه في دائرة المحسوس عن تعطل أجهزة الالتقاط والاتصال الراقية فيه. ومن ثم يجعلها الله سبحانه حكمة لهذا الابتلاء، ويكشف للذين آمنوا عن هذه الحكمة كي تحتشد نفوسهم لتحقيقها. (١)»

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مجلد ٢ ص ٩٨٠.

النداء الأمريعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغِيبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ، لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

_____المائدة/ ٩٥_____

خطاب آخر يهدف اختبار الذين آمنوا وثباتهم بعد أن خاطبهم في النداء السابق بأنه سيختبرهم بشيء من الصيد تناله أيديهم ورماحهم ليعلم من يخافه بالغيب . فبدأ الخطاب بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ ﴾ وهذا نهى يدل على تحريم إزهاق روح الصيد مطلقاً ، سواء كان من طريق الفعل أو من طريق التسبب ، كالإشارة والدلالة مثلاً . ويؤيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه : " هل أشرتُم ؟ هل دكَلُتُم ؟ " قالوا : لا ، قال : " إذن فكلوا " فدل هذا على أن للإشارة والدلالة مدخلا في التحريم ، وأنه مما يتناوله النهي في قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ ﴾ فكان النهي متناولاً للقتل من طريق المباشرة والتسبب . والمراد بالصيد ؛ المصيد ، وقد اختلف في المراد بمدلوله ، فذهب بعضهم إلى أن المراد منه الحيوان المتوحش مطلقاً سواء كان مأكولاً أم غير مأكول ، وخصه بعضهم بالمأكول ، وبالأول قال الحنفية ، والثاني قال الشافعية .^(١)

(١) لمعرفة آراء الفقهاء وحجتهم يمكن الرجوع إلى تفسير آيات الأحكام : ٢ ص ٢١١ و ٢١٢ .

ولم تنحصر فائدة حل الاصطياد في الأكل ، بل قد تكون الفوائد التي هي غير الأكل أجدى من الأكل ومغرية بالصيد أكثر منه ، كصيد الفيلة للانتفاع بسنّها مثلاً . فيبقى اسم الصيد عاماً في الحلال والحرام لا يخرج منه شيء إلا ما أخرجه الدليل . وقد فهم الصحابة هذا فامتنعوا من فعله مطلقاً حتى أذنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمس الفواسق فقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمس من الدواب من قتلهن وهو محرم فلا جناح عليه : العقرب ، والفأرة ، والكلب العقور ، والغراب ، والحدأة " وفي رواية : خمس فواسق لا جناح على المحرم أن يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والحدأة ، والحية ، والعقرب ، والكلب العقور " وفي رواية : والسبع الضاري .^(١)

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ فيدل على أن النهي ينصب على قتل المحرم للصيد عمداً . فأما إذا قتله خطأ فلا إثم عليه ولا كفارة ، وذلك لقوله : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ أي ومن قتل شيئاً من الصيد وهو محرم متعمداً فعليه الجزاء أن يفدي من الأنعام مثل الذي قتله في الشكل إن كان له ما يمثله ، فالغزالة مثلاً تجزئ فيها بدنة . وما لا مقابل له من البهيمة ، أو إن لم يمكن تحقيق الماثلة ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ﴾ أي بتعيين هذا المثل ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي من أهل ملتكم ، بأن يقرّرا أن هذا النوع من الأنعام يوازي هذا النوع من الصيد . وقيل : يتولّى الحكم في هذه الكفارة اثنان من المسلمين ذوا عدل ، فإذا حكما بذبح بهيمة أطلقت ﴿ هَدِيّاً بِأَلْفِ كَعْبَةٍ ﴾ أي أن ذلك الجزاء المترتب على قاتل الصيد يجب أن يكون هدياً يصل إلى الكعبة ، تذبح هناك وتطعم للمساكين ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ ، فإذا لم توجد بهيمة ، فللحكمين أن يحكما بكفارة طعام مساكين بما يساوي ثمن الصيد ، أو ثمن البهيمة (خلاف فقهي) ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ ﴾ الهدى أو قيمته ﴿ صِيَاماً ﴾ أي يصوم بما يعادل هذه الكفارة مقدراً ثمن الصيد أو البهيمة ، ومجزئاً على عدد المساكين

(١) انظر صحيح البخاري : كتاب ٦٣ ، باب ١٦ ، حديث ٣١٣٧ .

الذين يطعمهم هذا الثمن ، وصيام يوم مقابل إطعام كل مسكين . (وهناك خلاف فقهي حول ثمن إطعام المسكين) ولكنه يتبع الأمانة والأحوال . وحكمة هذه الكفارة ﴿لِيَذُوقَ وَيَلْأَمِرَهُ﴾ فيدرك مبلغ جرمه وسوء عاقبة مخالفته ، لأن الذنب هنا مخل بحرمة يشدد فيها الإسلام تشديداً كبيراً ، لذلك يعقب عليها بالعفو ﴿عفا الله عما سلف﴾ قبل التحريم ، فلا يؤاخذ الله عليه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ ثانية إلى قتل الصيد بعد علمه بالتحريم ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ في الآخرة لإصراره على مخالفة أمره ﴿والله عزيز﴾ لا يُنال ولا يُغالب ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ لا يدفع انتقامه ، والمراد به انتقام الآخرة . وأما الكفارة فقد أوجها الجمهور على العائد ، فيتكرر الجزاء عندهم بتكرر القتل (وهنا يوجد خلاف فقهي) .

ذلك شأن صيد البر ، فأما صيد البحر فهو حلال في الحل والإحرام ، وتحكمه الآية التالية للنداء المذكور ، حيث جاء فيها : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْيَاثَةِ﴾ .

المحرمات المذكورة جعلها الله تعالى لأن منطقة الحرم منطقة الأمان التي أقامها للبشر في زحمة الصراع ، إنها الكعبة الحرام ، والأشهر الحرم ، تقدم في وسط المعركة بين المتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس ، بين الرغائب والشهوات ، فتحل الطمأنينة محل الخوف ، ويحل السلام محل الخصام . قال تعالى : ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ، وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ _ القصص / ٥٧ . إنها منطقة التدريب للنفس البشرية يختبر الله عندها مبلغ طاعتهم لأوامره والعلم بمن يخافه بالغيب ، والله أعلم .

النداء الحادي والأربعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ،
وإن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾

المائدة/ ١٠١ _

لقد كان كثير من المسلمين الأوائل يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لم يتنزل فيها أمر أو نهي ، أو يلح في طلب تفصيل أمور أجملها القرآن بهدف التوسعة على الناس ، أو يستفسرون عن أمور لا ضرورة لكشفها لأن كشفها قد يؤدي السائل عنها أو يؤدي غيره من المسلمين . فخطب الله سبحانه هذه الجماعة المسلمة بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ . ومما روي في هذا الصدد أنه لما نزلت آية الحج ، سأل سائل: أفي كل عام يا رسول الله ؟ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا السؤال ، لأن النص على الحج جاء مجملاً: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ آل عمران/ ٩٧ . قال بعض الصحابة: أفي كل عام يا رسول الله ، فسكت ، ثم كرروا ذلك ، فقال: " ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لما استطعتم " ، ثم قال صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . " ^(١) فما دام الله سبحانه هو الذي ينزل هذه الشريعة ويخبر بالغيب ، فمن الأدب أن يترك العبيد

(١) الجامع الصغير/ ١٢٧٤ .

لحكمته تفصيل تلك الشريعة أو إجمالها ، وأن يتركوا له كذلك كشف هذا الغيب أو ستره ، وأن يقفوا هم في هذه الأمور عند الحدود التي أرادها العليم الخبير . وهناك أمور تركها الله مجملة ولا ضير على الناس في تركها كما أرادها الله . ولكن السؤال في عهد النبوة وفترة تنزل القرآن قد يجعل الإجابة عنها متعينة فتسيء إلى بعضهم ، أو تشق عليهم وعلى من يجيء بعدهم . لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسؤهم الكشف عنها فتركها ولم يفرضها ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عفا الله عنها ﴾ أي عما كان من مسألتكم قبل النهي فلا يعاقبكم عليها لسعة عفوه .

وقيل : أي لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها وترك فرضها وتفصيلها ليكون في الإجمال سعة ، كأمره بالحج مثلاً ، أو تركه ذكرها أصلاً . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لما يصدر من العبد قبل النهي ، ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعجل عذابه ليجعل للناس متسعاً من الوقت للرجوع إليه بالتوبة والندم فيما بعد فلا تتعجلوا الأمور .

« ثم ضرب الله لهم المثل في الآية التالية للنداء ، بمن كانوا قبلهم _ من أهل الكتاب _ ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام فقال : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ ، أي لما أبدت لهم لم يعملوا بمقتضاها ، فكأنهم بصنيعهم جلبوا الهلاك لأنفسهم ، كما حصل من قوم صالح إذ طلبوا منه أن يأتيهم بأمر يتقربون به إلى الله ، فقال لهم : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ _ الأعراف / ٧٣ _ ولكنهم عقروا الناقة ، فأخذهم الله بالرجفة . وفي سورة البقرة مثال كيف أن بني إسرائيل حينما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، بلا شروط ولا قيود ، كانت تجزيهم فيها بقرة ، آية بقرة . أخذوا يسألون عن أوصافها ويدققون في تفصيلات هذه الأوصاف . وفي كل مرة كان يشدد عليهم ، ولو تركوا السؤال ليسروا على أنفسهم . وكذلك كان شأنهم في السبت الذي طلبوه ، ثم لم يطبقوه » ^(١) .

(١) في ظلال القرآن ، مجلد / ٢ ، ص ٩٨٦ .

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " دعوني ما تركتكم إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " (١) .

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّ أعظم المسلمين جرماً ، من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته . " (٢) .

« ويدخل في حكم هذا النوع من الأسئلة السؤال عن أمور غيبية نص الشرع على ضرورة الإيمان بها ، كما أخبر دون الوقوف عند البحث عن أي كيفية لها ، ومثلها ما ورد الخبر عنه مما لا يدخل في دائرة المحسوسات ، ولا مثال له في خزانة الخيال ، كالسؤال عن الروح وكيفية حشر الأجساد ، ومعظم أنباء الساعة وأحداثها ، إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل ولا سبيل للعقل المجرد إلى الخوض في تفاصيله . يدل على ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً : " لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا الله الذي خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ " وواضح أن هذا الإخبار إنما سيق مساق الاستنكار ، فأما ما عدا ذلك من الأسئلة التي تدعو إليها الحاجات الراهنة كالاستفسار عن مدلول نص شرعي فهذه أمور مشروعة» (٣) . ولها أمثلة من أسئلة الصحابة رضوان الله عليهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد سأله عن الشهر الحرام ، وعن الحيض ، وعن الكلاله ، وعن الخمر والميسر ، وعن اليتامى . . . فإن المعرفة في المنهج الإسلامي إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة وفي حدود هذه الحاجة ، والله أعلم .

(١) رياض الصالحين ، المحافظة على السنة وآدابها ، ص ٨٦ .

(٢) صحيح البخاري جزء ٤ ، كتاب ٩٩ ، حديث : ٦٨٥٩ .

(٣) السلفية ، ص ٢٩ .

النداء الثاني و الأربعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

__المائدة/ ١٠٥__

نداء عام من الله تعالى إلى الذين آمنوا بعدله في أحكامه ، يلي عليهم فيه حكماً عاماً من دستوره السماوي ، هو أن مسؤولية الإنسان الشخصية مستمرة حتى يستنفذ كل إمكانياته لمنع الضلال . نداء يوصيهم بالتضامن فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فقوموا بصلاحها وتزكيتها باتباع شرع الله ، ولا تلتفتوا إلى ما كان لكم من عادات أو تقاليد لغيركم في العقائد والأحكام . وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ ﴾ بالتمسك بعبادات قومه أو الأخذ برأي غيره دون كتاب الله . فأمتكم هي حزب الله الذي لا غالب له . ولطالما أمتتم بالله رباً ، وبمحمد بن عبد الله رسولاً ، وبالقرآن الكريم منهجاً ، فعليكم أن تتضامنوا وتتناصرحوا ، وتتواصوا وفق ما جاء في الدستور الذي اخترته لكم . ثم لا يضرُّكم بعد ذلك أن يضل الناس من حولكم ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ أي بشرط أن تكونوا مهتدين ، عارفين أمور دينكم ، وملتزمين بها وبأحكامها . فإذا أقامت أمتكم نظامها في الأرض ، بقي عليها أن تدعو الناس كافة إلى الخير والحق والجمال لتحول بينهم وبين الضلال . وإن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله تعالى ، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في دعوة الجاهلين مما علَّمها الله ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيما بينها أولاً ، ثم في الأرض جميعاً . فرسالة الإسلام رسالة

الإنسانية جمعاء ، وأول المعروف الإسلام لله ، وتحكيم شريعته . وأول المنكر الاعتداء على سلطان الله و منهجه القويم . فإن لم تستطيعوا مكافحة الشر ومحاربة الطغيان بأيديكم فبالسنتكم ، فإن لم تستطيعوا فبقلوبكم ، وهذا أضعف الإيمان ، كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن الله لعن بني إسرائيل لأنهم ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، كبئس ما كانوا يفعلون ﴾ المائدة / ٧٩ .

فهذا النداء لا يسقط عن الأمة ولا عن الفرد التابعة كما يتوهم البعض من أن مجرد استقامة الإنسان في نفسه تجعله في حل من عمل غيره . فقد روى أصحاب السنن أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (أيها الناس ؛ إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . . ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، ولا تدرون ما هي ، وإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقاب منه . " ^(١) . وهكذا صحح خليفة رسول الله ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة . ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق . فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه ، والمنكر أصبح متفشياً بعد الثورة العلمية التكنولوجية والتي أدت إلى بروز إشكاليات جديدة وتحديات غير مسبقة تتعلق بأنماط السلوك البشري في إطار مدني شديد التباين بين شرق وغرب وشمال وجنوب ، ومما أدى إلى خلق حالة من البلبلة والانقسام الثقافي في مجتمعاتنا . وإلى اقتحام المنطقة العربية والإسلامية بكم هائل من الرسائل الإعلامية الأجنبية حاملة معها قيماً إخبارية وثقافية قد لا تتلاءم بالضرورة مع قيم وثقافات المنطقة ، ولا تلبي احتياجاتها الحقيقية ، وقد تهدد هويتها الحضارية والثقافية

(١) أخرجه الترمذي / ٥٠٥٠ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود ، وزاد فيه : (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرن على أن يغيروا ولا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب .)

بل والدينية . فهل نقف مكتوفي الأيدي والقرآن ينادينا : عليكم أنفسكم فأصلحوها واسعوا إلى هداية مجتمعكم بالنظر والتأمل والتدبر ووضع الوسائل الكفيلة بالنهوض ، ثم لا يضرركم انغماس الخارجين عن الدين بالضلال . أما أنتم فعليكم رسالة يجب أن تؤدوها بالجهد والجهاد . جهد بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً يحتاجون الإرشاد ، وجهد بالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الصراط المستقيم . وعند ذلك _ لا قبله _ تسقط التبعة عن الذين آمنوا . وبعد هذه الحياة ﴿ إلى الله مَرْجِعُكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ جميعاً ﴾ أيها المهتدون ، وأيها الضالّون ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر ويجزي كلا بما يستحق ، وهو أحكم الحاكمين .

أخيراً لا بد من الإشارة إلى أن هناك تأويلات كثيرة قيلت حول هذا النداء تضمنتها كتب التفسير ، منها ما ورد في تفسير النسفي : « كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العناد من الكفرة ، يتمنون دخولهم في الإسلام ، فقليل لهم : عليكم أنفسكم وما كلفتم به من صلاحها ، لا يضرركم الضلال من دينكم إذا كنتم مهتدين . وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن تركهما مع القدرة عليهما لا يجوز . »^(١)

ومنها ما قاله الطبري : « وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق ، وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه . وقال عبد الله بن المبارك : هذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الله تعالى قال : عليكم أنفسكم ، يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح

(١) تفسير النسفي ، ١ ص ٤٩٣ .

والمكروهات .»^(١) . فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في هذا الدين ، وقد تلاقت التفسير على ما في هذه الآية من دعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولكن يجب أن نذكر بأن هذه الدعوة هي من فروض الإسلام ، ولكن لها شروط يجب أن تتحقق بمن يقوم بهذا العمل ، أهمها : أن يكون الداعي عالماً بالقرآن والسنة و بما يدعو الناس إليه ، وقائماً بفرائض الدين . ومطلعاً على العلوم العامة وشبهات التيارات الاجتماعية والسياسية وموقف الإسلام منها . وأن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكلفاً ، قادراً ، متصفاً بالعدالة ، مأذوناً من الإمام أو الوالي صاحب السلطان .

« وبالجملة فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محله ، ثم إلى أهل بلده . . . وهكذا إلى أقصى العالم .»^(٢) .

(١) تفسير الخازن: ١ ص ٤٩٤ .

(٢) انظر: موعظة المؤمنين، المنكرات العامة، ص ٢٥٠ .

النداء الثالث والأربعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ
الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي
الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ
بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا
لَمِنَ الْأَثَمِينَ﴾ .

المائدة/ ١٠٦

توجيه إلهي حول إجراءات الوصية التي يجب على المؤمن أن يقوم بها إذا شعر بدنو
أجله ، سيما إذا أراد أن يوصي بما يحضره من المال ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ
بَيْنَكُمْ ﴾ إن كان عليكم شيء من الحقوق ، فلا تبرأ ذمتكم إلا أن تشهدوا شهادة تقطع ما
بينكم من تنازع وتشاجر ، وهي واجبة ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ شارفه وظهرت أماراته
لأن الذي يسجل وصيته ، إنما يستحضر الموت ويذكر الآخرة ، فهو يشهد على نفسه ﴿ حِينَ
الْوَصِيَّةِ ﴾ لسماعها وتلقيها عنه ، والشهادة بها ﴿ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي من أهل ملتكم
من المسلمين ، ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي من غير المسلمين . فإن كان في الحضر ،
ويسلمهما ما يريد أن يسلمه إلى أهله غير الحاضرين . أما إذا كان ضارباً في الأرض ولم يجد
مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه ، فيجوز أن يكون الشاهد من غير المسلمين . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ
ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي سافرتُم فيها ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي قاربكم الأجل ، ونزل
بكم الموت .

أما كيف تؤخذ شهادة الشاهدين من غير المسلمين فقد فصلها الله تعالى بقوله : ﴿ تَحْسَبُونَهُمَا ﴾ أي تمسكونهما لأداء الشهادة ﴿ مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسَمَانِ بِاللَّهِ ﴾ على صحة شهادتهما ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ أي في حالة الشك في صدقهما فيما يقرران ، على أن يصرحا في قسمهما بقولهما : ﴿ لَا نَشْتَرِي ﴾ أي يمين الله ﴿ ثَمَنًا ﴾ أي لا نقبض مقابل هذه الشهادة أو هذا اليمين ثمنًا ﴿ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أي ولو كان المقسم له من أقاربنا . ويصرحان أيضاً بقولهما : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ بمعنى لا نخفي شيئاً مما لدينا من الشهادة ابتغاء وجه الله ، ولا نكذب فيها ، فإن فعلنا شيئاً من ذلك : ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ المستحقين للجزاء .

« قيل في سبب نزول الآية أن تميم الداري وعدي بن بداء خرجا إلى الشام للتجارة ، وكانا حينئذ نصرانيين ، ومعهما بديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً ، فلما قدموا الشام مرض (بديل) فكتب كتاباً فيه جميع ما معه ، وطرحه في متاعه ، ولم يخبرهما بذلك ، وأوصى عليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ، ومات ، ففتشاه ، فوجدا فيه إناء من فضة منقوشاً بالذهب ، فأخفياه ، ودفعا المتاع إلى أهله ، فأصابوا فيه الكتاب ، فطلبوا منهما الإناء ، فقالا : ما ندري ، إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم ففعلنا ، وما لنا بالإناء من علم . فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ . . . ﴾ الآية . واستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يأخذا شيئاً مما دفع إليهما ولا كتما ، فحلفا على ذلك ، فخلّى عليه الصلاة والسلام سبيلهم . ثم إن الإناء وُجد في مكة . فقال من بيده الإناء : اشتريته من تميم وعدي . وقيل : لما طالت المدة أظهره ، فبلغ ذلك بني سهم ، فطلبوه منهما ، فقالا : كنا اشتريناه من (بديل) . فقالوا : ألم يقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيئاً فقلتما ؛ لا ؟ قال : ما كان لنا بيّنة ، فكرهنا أن نقرّ به ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَأَخْرَأَنَّ يَاقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْكِيَانِ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا . . . ﴾ المائدة / ١٠٧ . فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان

فحلفا بالله بعد العصر أنهما كذبا وخانا ، فدفع الإناء إليهما .^(١)

يتضح لنا من خلال ما ذكر أن لطبيعة المجتمع الذي نزلت هذه الأحكام لتنظيمه دخلاً في شكل الإجراءات ، وربما في طبيعة هذه الإجراءات . فالإشهاد والإيمان على هذا النحو ، ثم الحلف بالله في مجتمع بعد الصلاة لاستجاشة الوجدان الديني ، والتخرج كذلك من الفضيحة في المجتمع عند ظهور الكذب والخيانة . « ولقد تملك المجتمعات اليوم وسائل أخرى للإثبات وأشكالا أخرى من الإجراءات كالكتابة والتسجيل والإيداع في المصارف وما عليها . ولكن هل فقد هذا النص قدرته على العمل في المجتمعات البشرية ؟ فكثيراً ما نخدع فنظن أن بعض التشريعات أو بعض الإجراءات قد فقدت فاعليتها ولم تعد لها ضرورة لأنها استجذبت وسائل أخرى . وكذلك نخدع حين ننسى الضرورات التي يقع فيها الأفراد من البيئات التي تجاوزت هذه الأطوار ، والتي يسعفهم فيها يسر هذه الشريعة وشمولها ، ووسائل هذا الدين المعدة للعمل في كل بيئة ، وفي كل حالة ، في البدو والحضر ، لأنه دين البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها .^(٢) »

نخلص إلى القول بضرورة عدم التهاون في كتابة الوصية ، ثم الإشهاد على الوصية وإذا ارتاب ورثة الموصي في شهادة الشهود تتم دعوتهما لحلف اليمين على صدقهما .

(١) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ٢٢٥ ، وذكر ذلك القرطبي في تفسير الآية بلفظ الدارقطني .

(٢) في ظلال القرآن: ٢ ص ٩٩٤ .

النداء الرابع والأربعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

— الأنفال/ ١٥ و ١٦ —

بعد أن شرع الله تعالى الوسائل التي أكسبت المؤمنين النصر في معركة بدر، والتي تتلخص في لجوئهم إلى الله واستجابته لهم، وإمدادهم بمختلف الإمدادات، ومباشرتهم مأساة الله لهم من الأسباب، وهو أن يضربوا أعداءهم فوق الأعناق، ويضربوا منهم كل بنان، وأعلن للمشركين بأن ما نالهم من القهر والخذلان كان بسبب معاداتهم ومعارضتهم لله ولرسوله. بعد كل هذا أمر المؤمنين بأن يقتدوا بأسلافهم ويتوسموا خطاهم في الجهاد في سبيله، والأخذ بأسباب القتال، مع اعتقادهم بأن النصر لا يطلب إلا من الله. وحذر من التقاعس عن الجهاد وتوعد عليه بعذاب شديد فقال: ﴿إِلَّا تَتَرَفَّوْا يَعْذِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ — التوبة/ ٣٩. وشدد على الثبات وعدم الفرار فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً بهدف قتالكم، فلا تفرّوا منهم مهما كثر عددهم وأنتم قلة. ولكن اثبتوا لهم وقاتلوهم، ما دمتم تثقون بأن في استطاعة من تجاهدون في سبيله يمكن أن يقذف أعداءكم بشتى القوى الخفية التي تكسبكم النصر عليهم. ﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ﴾؛ أي يتراجع أمام زحفهم ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ والمتحرف للقتال هو الذي يفر موهماً عدوه أنه منهزم، فإذا تبعه عطف عليه فقتله، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها. ﴿أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾

الرجل الذي يرى أنه كالمفرد ، ويرى جماعة من المسلمين تحميه إذا انحاز إليها .
فالانهزام إذن محرم إلا في حالتين : الحالة الأولى ؛ أن يظهر الفار أنه منهزم ثم
ينعطف على عدوه ويكر عليه ليقته ، وهو أحد مكاييد الحرب .
والحالة الثانية ؛ أن يرى جماعة مسلمة أخرى فيذهب إليها لمقاتلة العدو معها ،
يعاونهم ويعاونونه .

و من فرّ فيما عدا الحالتين المذكورتين وجب عن القتال ﴿ فقد بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ فلا
يستحق نصره ، بل ربما كان سبباً في تمكين العدو منه ﴿ ومأواه جهنّم ﴾ في الآخرة ﴿ ويئس
المصير ﴾ مصيره .

« قال البيضاوي : هذا إذا لم يزد العدو على الضعف ، لقوله تعالى : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ
اللَّهُ عَنْكُمْ ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ _ الأنفال / ٦٦ . قال ابن عباس :
(من فرّ من ثلاثة لم يفر ، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ) . فالهرب من الزحف إذا زاد عدد
الأعداء عن ضعف المسلمين فهو مباح ، لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه
عن عبد الله بن عمر (الحديث المذكور) . » ^(١) .

و مما جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية : « الفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع
الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة _ منهم ابن الماجشون _ في الواضحة : يراعى الضعف
والقوة والعدة ، فيجوز على قولهم أن يفر مائة فارس من مائة فارس إذا علموا ما عند
المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة
إلا ما زاد على المائتين ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابل
مائتي ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لحم وجذام .

قلت : ووقع في تاريخ الأندلس أن طارق بن زياد سار في ألف وسبعمائة رجل إلى

(١) التفسير المنير : ج ٩ ص ٢٧٣ .

الأندلس . . فالتقى وملك الأندلس (لذريق) وكان في سبعين ألف عنان ، فزحف إليه طارق وصبر له ، فهزم الله الطاغية لذريق ، وكان الفتح .
واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ، أم عام في الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟ (هناك خلاف فقهي) . وقد ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء إلى أن الآية باقية إلى يوم القيامة لأنها نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه .
وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
" اجتنبوا السبع الموبقات " قالوا : يا رسول الله ماهي ؟ قال : " الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . " ^(١) . ا . هـ .

(١) صحيح البخاري/٢٦١٥، وصحيح مسلم/٨٩.

النداء الخامس والأربعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

_ الأنفال/ ٢٠ و ٢١ _

تحدثنا في النداء الثاني والعشرين عن جانب من جوانب طاعة الله ورسوله، وتناول هنا جانباً آخر من جوانب هذه الطاعة، طالما تكرر الأمر بها. وقد قال بعض العلماء أن الخطاب هنا إنما كان للمنافقين _ كما جاء في تفسير القرطبي _، ومعنى ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالسنتهم فقط. وقال ابن عطية: وهذا ضعيف جداً لأن الله تعالى وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان؛ التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء. لذا كان الأنسب هو رأي الجمهور بأن المطلوب: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾؛ بالنظر في الفرائض المكتوبة عليكم وكيف تؤدونها، وتفكروا في الأفعال التي تتعلق بكل عضو من الأعضاء التي أنعم الله بها على عباده. «فيقول: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السماوات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى، وتنظر في كتابه الكريم، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟.. وهكذا يفتش عن جميع أعضائه، وجملة بدنه، وأمواله، وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها»^(١) ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ في كل ما أمركم به ونهاكم عنه. وقيل: المعنى؛ يا أيها المتصفون بالإيمان والتصديق أطيعوا الله ورسوله في الدعوة إلى الجهاد وبذل المال، فإذا أمر بالجهاد وبذل المال وغير ذلك عليكم

(١) موعظة المؤمنين ص ٤٥٧.

امثال أوامره وترك زواجه . ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولي ؛ الإعراض ، ولم يقل (عنهما) لأن طاعة الرسول طاعة لله ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ التوبة / ٦٢ _ فالمعنى ؛ لا تعرضوا عن اتباع الرسول في كل ما يأمر به ، باعتباره القائد الأعلى الذي تجب طاعته ، وقد قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ النساء / ٨٠ _ ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ منه القرآن يُتلى عليكم ، وفيه من الحجج والبراهين والنظم ما يكفل لكم الفلاح . والمراد بالسمع ؛ سماع تدبر وفهم وتأمل في المسموع . ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا ﴾ بألسنتهم ﴿ سَمِعْنَا ﴾ أي كاليهود أو المنافقين والمشركين ، وهو من سماع الأذن ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يتدبرون ما سمعوا ولا يتفكرون فيه ، وبذلك فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق ، أو كمثل من يدعي السماع وهو في الواقع أصم لا يسمع شيئاً ، فهو بزعمه السماع قد حرم نفسه من الاستفادة بما يلقي عليه من توجيهات لمصلحته وهدايته .

فدلّ النداء على أن قول المؤمنين : (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) لا فائدة منه ما لم يظهر أثر ذلك بامثال الفعل المأمور به واجتناب المنهي عنه . وهذا التوجيه له صفة الديمومة والعموم ، ما دام هناك أناس آمنوا بالله رباً ودانوا بالتنزيه المطلق ، وبالقرآن منهجاً . ولكننا نرى بعض الناس بادعائهم المعرفة يقولون : مرجعنا كتاب الله ولا شيء سواه ، أما السنة فربما كان الحديث موضوعاً أو ضعيفاً أو . . . وربما اختار أحدهم حديثاً ضعيفاً واتخذته حجة للنفوذ إلى التشكيك في الصحيحين وفي الأسانيد . أو يأخذ من اجتهادات الفقهاء في مسألة فرعية مثلاً ليقع الشك فيهم واحداً بعد الآخر . وقد تجرأ البعض على انتقاد اختلاف الفقهاء وأنه السبب في تأخر الأمة . وبعضهم تعلق بقاعدة (تبدل الأحكام بتبدل الأزمان) في مجال التخفيف والتسهيل والسير مع مقتضيات التحلل من الواجبات ، ولكنهم لا يتذكرون هذه القاعدة عندما يقتضيهام الأمر عكس ذلك ، ولا يتذكرون القاعدة الشرعية (الأمر بمقاصدها) . والأمثلة على ذلك كثيرة ، وليت هؤلاء بادعائهم الغيرة على الدين يقومون بالفرائض من العبادات والتي لا خلاف حولها ، ولا يوالون أعداء الدين والذين لا يريدون

خيراً بأي شعب من الشعوب ، فكيف يريدون الخير للعرب والمسلمين ، وهم قد أزاحوا القناع وصرحوا في مجالات ومناسبات متعددة أن العدو الأول لهم الإسلام بعد أن سقطت الشيوعية . ورغم إسفارهم نرى بعض المخدوعين يرددون ما أثاره المضللون من غبار حول الرواة والناقلين عنهم والطعن في أمانتهم ، وتوسعوا في تدمير التراث الإسلامي بفنون ظاهرها البحث العلمي وباطنها الإفساد والتخريب . «والذين ينخدعون بهم من المسلمين إنما يوقعهم في الفخ الذي نصب لهم أحد أربعة أمور : ١- جهلهم بحقائق التراث الإسلامي وعدم اطلاعهم عليه من ينابيعه الصافية .

٢- انخداعهم بما يسمونه الأسلوب العلمي الذي يدعيه أولئك الخصوم .

٣- رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتححرر الفكري .

٤- وقوعهم تحت تأثير (أهواء وانحرافات) فكرية لا يجدون مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين أو الكاتين»^(١) .

عن المقدم بن مَعْدِيكَرَب^(٢) رضي الله عنه قال : قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم : "ألا هل عسى رجل يبلغُ الحديث عني ، وهو متكئ على أريكته ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه ، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله ."^(٣) «يستنكر النبي صَلَّى الله عليه وسلّم أن يرفض بعض الناس العمل بسنته ، فيقول : هل يصح أن يصل حديثي إلى سمع امرئ كسول مسترخ في جلسته ، فلا يكثرث بما سمع ، ويدعى إلى العمل بأحكام الحديث فيأبى ويقول : بيننا وبينكم القرآن وحده . وفي هذا الحديث معجزة للرسول ، إذ أخبر عن أمر غيبي ، وقد تحقق

(١) مختصر مشكاة المصابيح ، ص ١٤٥ .

(٢) كان المقدم مرموقاً في قومه في الجاهلية ، ولما ظهر الإسلام أسلم مع طائفة من قومه كندة ، فاخترأوه ليكون مع الوفد الذي يقدم على الرسول مخبراً إياه بإسلام قومه ومستفسراً عن تفاصيل الإسلام .

سكن الشام ، ومات عام ١٧هـ ، روى أربعين حديثاً .

(٣) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه .

في هذا القرن ، حيث ربّى الاستعمار طائفة تنكر السنة . وهذا كيد يراد منه هدم الإسلام والتصل من احكام الشريعة ، وهو مجافاة لصريح القرآن ، إذ أوجب علينا طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل بالسنة ، فقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ _ الحشر / ٧ _ . فالأحكام التي وردت في السنة تساوي في وجوب العمل بها الأحكام التي وردت في القرآن ، لأن السنة هي المصدر التشريعي الثاني . ولذلك عقب الرسول في حديثه على زعم منكر السنة ببيانه المفحم إذ قال : " وإن ما حرم رسول الله كما حرمه الله " . فترك العمل بالسنة هو ترك للعمل بالقرآن لأمرين : الأول ؛ لأن القرآن أمر بالعمل بها ، كما تقدم . والثاني ؛ لأن السنة بيان وتفصيل لما في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . ﴾ _ النحل / ٤٤ _ . فلا يعرف المراد من القرآن إلا بالسنة ، فكيف يمكن تطبيقه بدونها ؟ لذلك كانت طاعة الرسول والعمل بسنته طاعة لله تعالى .^(١) ولتنوير أذهان الذين يقولون مرجعنا القرآن والقرآن وحده ، أقول أيضاً عليهم أن يجتازوا للوصول إلى فهم معاني القرآن أو للوصول إلى الحقيقة الدينية جملة قواعد ومعلومات دلالية وبيانية ، أخذت من تتبع أفهام العرب في محادثاتهم ومكالماتهم ، حيث تجمعت منها القواميس العربية وأصول الدلالات اللغوية ، وقواعد البيان ، ثم تكون منها منهج علمي دقيق لتفسير النصوص . وقد أتينا في كتابنا (الإعجاز في القرآن) على جملة القواعد المتبعة في تفسير النصوص القرآنية^(٢) . وإن فهمها يحتاج إلى مزيد من الوقت والدراسة المتخصصة ، ولذلك اختصر علماء الحديث وعلماء الأصول والفقهاء الطريق على عامة المسلمين بدراساتهم التي استهلكت سني حياتهم ، وقام آخرون بتصنيف تلك الدراسات بما يسهل على قارئ القرآن فهم معانيه ، فما عليه إلا أن يستعين بما كتب هؤلاء ، إن أراد الحقيقة العلمية . وهذه المؤلفات منها الموسع ومنها الوجيز ، ولا تأتي قيمتها من

(١) التربية الإسلامية ، أول ثانوي ، عام ٧٩ / ٨٠ ، عتر ونعساني ، ص ٨٠ .

(٢) لمزيد من المعرفة يمكن الرجوع إلى الكتاب المذكور ص ١١٦ - ١٢٠ .

جهة اعتماد السلف عليها بقدر ما تأتي من كونها تمثل أصول المعرفة وأولياتها الضرورية ،
إذ كثيراً ما يأتي القارئ على نص يحتمل أكثر من معنى واحد .

جاء في الصحيح أن رجلاً مريضاً سأل أصحابه عن الوضوء في مرضه ، فقالوا له :
توضأ ، فلما استعمل الماء زاد مرضه ، ثم توفي . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : " قتلوه قتلهم الله " . فهذا يدل على أن أناساً يفتنون دون علم من أن للحديث
رجاله وللفقه رجاله . صحيح أن الإسلام لا يعرف طبقة تسمى (رجال الدين) ، والمسلمون
لا يتفاوتون إلا بالتقوى ، وليسوا بحاجة إلى من يفرضون تفسيراتهم الخاصة لكلام الله
العزیز ، إلا أن علماء الشريعة كعلماء القانون والطب والهندسة متخصصون في علم
الشريعة وتعليمها للناس من غير أن يكون لهم امتياز في حق أو مكانة إلا بمقدار ما يقدم
أحدهم من جهد وعمل وخدمة للناس . والله سبحانه يقول : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ
ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيراً ، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ _ المائدة / ٧٧ _ . وقد تناول هذا
المعنى الأستاذ علي عبد الرازق بقوله : « للمسلم الحق أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله
بدون وساطة . . . وللمسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسول الله من كلام رسول
الله دون توسيط أحد من سلف ولا خلف . وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله
مما يؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها ، وأحوال العرب خاصة في زمان
البعثة ، وما كان الناس عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما وقع من الحوادث وقت
نزول الوحي ، وشيء من الناسخ والمنسوخ ، فإن لم تسمح حاله بالوصول إلى ما يعده
لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما . وله _ بل عليه _
أن يطالب المحيب بالدليل على ما يجب به ، سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد ، أو في حكم
عمل من الأعمال . فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من
الوجوه . » ^(١) .

(١) الإسلام وأصول الحكم ، تحقيق محمد عمارة ، ص ١٣٦ .

و خلاصة القول أن النداء المذكور أعلاه يأمر بطاعة الله ورسوله . ويحذر من مخالفة أمرهما . وطاعة الله والرسول شيء واحد . و شريعة الله تؤخذ من كتاب الله الذي يرسم الخطوط العامة ، ومن سنة رسول الله التي فيها البيان والتفصيل ، والاستتكاف عن قبولها إنكار لصريح القرآن ، والله أعلم .

النداء السادس و الأربعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

— الأنفال / ٢٤ —

الإسلام إحياء كامل وعميق ودائم لكل من استجاب لدعوته والتزم بمنهجه في سائر ما تشترك به شؤونه من علاقات . وفيما تضمنه هذا الإحياء إخراج الذين اهتدوا بالإسلام من الظلمات إلى النور . وفي هذا الخطاب دعوة للمؤمنين ليستجيبوا إلى نداء الله ورسوله لما فيه إحياء لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ وهذا أمر للوجوب ، لأن كل من أمره الله ورسوله بفعل فقد دعاه إليه ، فلا بد من الإجابة في كل ما دعاه الله ورسوله إليه .

روى الإمام البخاري رضي الله عنه ، عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد ، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أجبه ، ثم أتيت ، فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ " ، ثم ذكر الحديث .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبي ابن كعب وهو يصلي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَا أُبَيَّ " فالتفت أُبَيَّ ، ولم يجبه ، وصلى أُبَيَّ وخفّف ، ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وعليك السلام ، ما منعك يا أُبَيَّ أن تجيبني إذ دعوتك ؟ " فقال : يا رسول الله إني كنت في الصلاة . فقال صلى الله عليه

وسلّم: "أفَلَمْ تَجِدْ فيما أوحى الله أن استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم؟" قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله تعالى. وذكر الحديث. ^(١) « قيل: هذه الإجابة مختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم. فعلى هذا ليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر. وقيل: لو دعا أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته. وقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم. قال السدي: هو الإيمان، لأن الكافر ميت، فيحيا بالإيمان. وقال قتادة: هو القرآن لأنه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة في الدارين. . وقال محمد بن إسحاق: هو الجهاد، لأن الله أعزه به بعد الذل. » ^(٢).

ولقد جرى المفسرون على أن المراد من هذا الدعاء إجابة نداء الرسول إذا دعا أحداً، وترتب على هذا أن اختلفوا؛ هل تبطل الصلاة بإجابة دعاء الرسول أم لا؟. فهناك من رأى أن سياق الكلام متجه إلى موضوع الجهاد، ويفسره قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي للأمر الذي من شأنه أن يضمن لكم الحياة السعيدة الدائمة، ويعني بذلك الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، لأنه هو السبيل الوحيد الذي يكسب المسلم العزة والسلطان في هذه الحياة وفي الآخرة، وبدونه يحتقر ويطمع أعداء الله في إزالته واستعمار بلاده، ويشككونه في عقيدته، ويزلزلون إيمانه فيخسر الآخرة.

وقال الجمهور: المعنى استجبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية.

«وقال الإمام الشافعي رحمه الله: هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به في الصلاة لا تبطل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة، وإن كان في الصلاة. قلت: وفيه حجة لقول الأوزاعي: لو أن رجلاً يصلي فأبصر غلاماً يريد

(١) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير الخازن: ٢ ص ١٧٥.

أن يسقط في بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره ، لم يكن بذلك بأس .^(١) فالإسلام هو طاعة الله ورسوله ، والطريق إلى الله هو طريق الاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم . وهذا لا يكون بمجرد الاعتقاد بالقلب أو الشهادة باللسان ، بل لابد من أن يتجلى بالأفعال ، فالمبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكاً ، ومن ثم جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هدفه الأول أن يصنع رجالاً ، بما قام به من أعمال وتصرفات ، لا أن يكتفي بمواعظ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ آل عمران / ٣١ . فمن يدّعي الإسلام عليه أن يستجيب إلى نداء الرسول ولا يعرض عنه . أما أن يزعم أن حياة الناس دنيا ، لا دين ، وأن لا ضرورة للدين في حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، فهذا هراء يتشدد به بعض الشباب منتقداً عاداتنا الاجتماعية وأصول معاشرتنا نابذاً وراءه أمر الدين وواجبات الأخلاق الحميدة لايهتم إلا بتنميق الملبس وزيادة المرقص ، ناسياً أن هذا الهراء إنما نسجته أصابع المستشرقين ودعاة أعداء الإسلام للنفاذ منه إلى تفكيك عرى الإسلام عروة بعد عروة .

والاستجابة للرسول تبدأ من اتباع سنته التي خلفها لنا من قول أو تقرير أو فعل . وقد أوضحنا في مناسبات سابقة أن العلماء متفقون على حجية السنة ووجوب العمل بها متى ثبتت عن طريق صحيح . وقد تضافرت الأدلة على حجيتها في القرآن والسنة ، واعتبارها المصدر التشريعي الثاني . أما أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم والتصرفات المشابهة فليست من الدين الواجب الاقتداء به إن لم يرد نهي صريح عن ممارستها .

يقول الدكتور وهبة الزحيلي : « أما ما يأمر به الرسول من الأمور الدنيوية ، كتأبير النحل (تلقينه بطلع الذكور) و أكل الزيت والادّهان به ، و كيل الطعام من قمح وغيره عند طحنه و عجنه ، فهو مجرد اجتهاد برأيه ، لا تجب طاعته فيه . و كان الصحابة إذا شكوا في الأمر أهو وحي من عند الله أم اجتهاد من الرسول سألوه ، فإن كان وحياً أطاعوه بلا تردد

(١) انظر تفسير القرطبي جزء ٩ ، الآية : ٢٤ / الأنفال .

وإن كان رأياً من عنده، ذكروا رأياً آخر وأشاروا بما هو أولى، كما حدث في غزوتي بدر وأحد، وربما رجع إلى رأيهم»^(١). ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ «أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمها، ويغير مقاصدها، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي. وفي الحديث: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"^(٢). قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان. قال أبو حيان: وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله تعالى، والمبادرة إلى الاستجابة له جل وعلا»^(٣). ﴿وأنه إليه تُحْشَرُونَ﴾ فتجزون جزاء حسناً نتيجة استجابتكم لنداء رسول الله. وفي حال تقاعسكم عن القيام بواجب الاستجابة لنداء الله ورسوله تحرمون المنزلة العالية في الجنة، وتعرضون إلى فتنة في حياتكم الدنيا، لا تصيب الظالمين فقط، وإنما تؤدي بالجميع إلى الضلال، فتنة تتعدى الظالم وتصيب الصالح والطالح.

(١) التفسير المنير، ج ٥، ص ١٧٠.

(٢) الترمذي/ ٢٢٢٦، والجامع الصغير/ ٦٨٢٢. وغيره.

(٣) صفوة التفاسير: ١/ ٥٠٠. (وقول ابن عباس عن: روح المعاني ٩/ ١٩١).

النداء السامع والاربعون: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ﴾

_ الأنفال/ ٢٧ و ٢٨ _

هذا النداء الإلهي يؤكد مضمون الآيات السابقة التي طالبت بطاعة الله وطاعة رسوله والاستجابة لدعوة الله العظيم ورسوله الكريم : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، ويحذر من أمر خطير له أثر فعال في تغيير مجرى الحرب ، بل وخذلان المؤمنين ، وهو إفشاء سر من أسرار الدولة ، أو تنبيه الأعداء إلى ما يراد بهم :

« ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بني النضير ، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك ، إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا ، وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة ابن عبد المنذر ، وكان مناصحاً لهم ، لأن له مال وولد و عيال عندهم . فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم ، فقالوا : يا أبا لبابة : ما ترى ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه ، يعني أنه الذبح فلا تفعلوا . قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله . ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وشد نفسه على سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه

وسلّم خبره، قال : "أما لو جاءني لاستغفرت له ، أما إذ فعل ما فعل فإنني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شرباً حتى خر مغشياً عليه . ثم تاب الله عليه . فقيل له : يا أبا لبابة قد تيب عليك . فقال : والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلني . فجاءه فحلّه بيده . ثم قال أبو لبابة : إن تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "يجزيك الثلث أن تصدق به" فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾^(١) .

وقيل : نزلت الآية في أن المؤمنين كان منهم من يسمع الشيء من النبي فينقله إلى المشركين . ومهما يكن الأمر الخاص فإن في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ توجيه عام ، وله صفة الاستمرار والديمومة ، بمعنى : إياكم أن تنقضوا عهد الله الذي أخذتموه على أنفسكم بعد أن هداكم إلى الإيمان فتفرطوا بما أوجبه عليكم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنه بئس البطانة"^(٢) . وفي قوله تعالى : ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ أي ولا تخونوا الرسول عن طريق نصح الناس بعدم الاستجابة لمقترحاته والنزول عند حكم من أحكامه . وكل هذا يفيد النهي عن خيانة الدين بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ، وما حملنا الدين إياه من التكليف الشرعية .

﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد في حق نفس الإنسان وفي حق الآخرين . أي لا تخونوا الأمانة بإفشاء أسرار بعضكم الاجتماعية والخصوصية وغيرها . « وأما رعاية الأمانة في حق النفس فهو ألا يقدم الإنسان إلا على ما

(١) تفسير الخازن : ٢ ص ١٧٦ . وهذا ما رواه الزهري والكلبي بان الآية نزلت في أبي لبابة الأنصاري من بني عوف بن مالك .

(٢) أخرجه النسائي . وذكره أبو داود برقم : ١٥٤٧ .

ينفعه في الدنيا والآخرة . وأما رعاية الأمانة في حق الغير؛ فهو ردّ الودائع ، والعارية ، وعدم غش الناس في كل ما يتصل بالمعاملة من بيع ، وشراء ، وجهاد ، ونصيحة ، وآلا يفشي عيوب الناس وينشر الفاحشة . وقد اعتنى القرآن بشأن الأمانة وبين خطرها وعظيم قدرها في مواضع كثيرة منها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ _ الأحزاب / ٧٢ _ . وقال أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ _ المؤمنون / ٨ _ . . . » ^(١) .

هذا وإن في مقدمة الأسرار التي لا يجوز إفشاؤها ؛ ما يتعلق بشؤون الدولة السياسية منها والحربية التي من أجلها نزلت هذه الآية . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مفاسد الخيانة وما فيها من القبح والعار ، وتعلمون أنكم تخونون عن تعمد لا عن سهو ، أما ما خفي عنكم حكمه ، وكان الباعث إليه غرض شخصي وعاطفة نفسية كفعل أبي لبابة الذي حمّله عليه خوفه على ماله وولده ووجه لهما فقد نبه الله إليه بقوله : ﴿ وَعَلِّمُوا أَنْمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةً ﴾ أي اختبار وامتحان من الله لعباده ، يتبين بها مبلغ التفاوت بين حبههم وحب الله ، ومدى إثارة العبد رضا الله على عاطفته نحو ماله وولده . فاحذروا من المضار المتولدة من حب المال والولد لأن ذلك يشغل القلب ويصيره محجوباً عن خدمة مولاه وهذا من أعظم الفتن . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يغدقه على من أثر رضاء الله ، وعلى من أدّى الأمانة في جميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة ، أجر أفضل من سعادة الدنيا وأعظم ، إنه راحة البال والطمأنينة في الدنيا ، والنعيم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

فالنداء المذكور يرشدنا إلى التالي :

١- الالتزام بطاعة الله ورسوله أمراً ونهياً .

٢- تزكية النفس ، والحرص على أموال الآخرين ، لأنها من الأمانات التي يجب

(١) تفسير آيات الأحكام : ٢ ص ١١٥ .

الحرص عليها .

٣- عدم التسامح بأموال الأمة ، فهي ملك لأفراد . وقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم الأمة الإسلامية إلى عدم استغلال سلطة الوظيفة وقال : " من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً ، فما أخذ به بعد ذلك فهو غلول " (١) .

٤- « الأموال والأولاد فتنة واختبار ، يمتحن به المؤمن الصادق الإيمان ، فإن كسب المال حلالاً وإنفاقه في وجوه الخير ، نجا صاحبه من إثمه وطغيانه ، وإن ربى الوالد الولد تربية دينية خلقية ، وأطعمه الحلال الطيب ، خلص من الحساب يوم الآخرة . وإن كان العكس في كل ذلك عرض نفسه للعقاب والإثم .

٥- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ تنبيه على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا » (٢) .

(١) رواه أبو داود / ٢٩٤٣ ، والجامع الصغير / ٨٤١٥ عن بُريدة . والغلول : الخيانة في المغنم وغيره .

(٢) التفسير المنير ، ج ٩ ، ص ٣٠٠ .

النداء الثامن و الأربعون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

الأنفال/ ٢٩

لاحظنا في أكثر من نداء كيف عني القرآن الكريم بالتقوى ، وأكثر من توجيه النفوس إليها ، و حض المؤمنين على التمسك بها حتى يأتهم الموت وهم عليها ، فقال : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ _آل عمران/ ١٠٢_

وقد تكررت كلمة (التقوى) و (المتقين) و (اتَّقُوا اللَّهَ) في آيات كثيرة ، فما هي التقوى ؟ وما هي ثمراتها التي وعدنا الله بها في هذا النداء ؟

أولاً (التقوى : التقوى في اللغة ؛ هي الوقاية . وفي الشريعة ؛ البعد عن المحرمات . و التقوى في أصل معناها جعل الإنسان في وقاية من الخوف . فالمتقون يحمون أنفسهم مما يضرهم ، ومن عذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة ، وذلك بالوقوف عند حدوده وامتنال أوامره واجتناب نواهيه .

ومما قيل في التقوى : « التقوى في اللغة : قلة الكلام ، حكاه ابن فارس ، ومنه الحديث : " التَّقِيُّ مُلْجَمٌ " ، والمتقي فوق المؤمن والطائع ، وهو الذي يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه ، بما يجعله حاجزاً بينك وبينه . . وقال أبو يزيد البسطامي : (المتقي من إذا قال ، قال الله ، وإذا عمل عمل الله) . وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أياً عن التقوى ، فقال : (هل أخذت طريقاً ذا شوكة ؟ قال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : شمريت وحذرت ، قال : فذاك التقوى) .

والتقوى فيها جماع الخير كله ، وهي وصية الله تعالى في الأولين والآخرين : ﴿ ولقد وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ النساء / ١٣١ - . ووصف القرآن التقوى بأنها صيانة النفس عن كل ما يؤذي . . . والابتعاد عن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة التي بها كماله في جسمه وروحه ، ولهذا وصف الله المتقين بقوله : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة / ١٧٧ - فأنت ترى أن المتقين هم الموصوفون بهذه الصفات السامية .^(١)

والتقوى تشمل فضائل كثيرة أيضاً ،

فهي تشمل العدل لقوله تعالى : ﴿ اعْدِلُوا هَوَاقِرَ لِلتَّقْوَى ﴾ المائدة / ٨ - .

وتشمل العفو : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ البقرة / ٣٧ - .

وتشمل الاستقامة في معاملة الأعداء : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة / ٧ - .

بناء على ما ذكر يمكن فهم النداء على الشكل التالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بوحداية الله وسلطانه على عباده ﴿ إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ باجتناب سائر المعاصي والالتزام بسائر الطاعات المبينة في كتاب الله وسنة رسوله ، تنالوا الثمرات التالية :

ثانياً) ثمرات التقوى : أولها ؛ ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ الفرقان : أصله الفرق بين

الشيئين ، لكنه أبلغ من أصله ، لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة . قال ابن عباس وغيره في معنى قوله تعالى ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ : يجعل لكم مخرجاً . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ الطلاق / ٢ - ، فمن اتقى الله بفعل أو أمره

(١) الحب بين العبد والرب : ص ٥٦ .

وترك زواجه ووفق لمعرفة الحق من الباطل ، وكان ذلك سبب مخرجه من أمور الدنيا وسعاده يوم القيامة .

والثمرة الثانية : ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ كفر الشيء : ستره ، أي يستر السيئات في الدنيا عن الناس ، أو يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم .

والثمرة الثالثة : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ بالعفو والتجاوز عنها في الآخرة . هذه المغفرة يمن الله بها على عباده إذا نفذوا الشرط الذي أمرهم به وهو التقوى . . « فذكر بلفظ الشرط ، لأنه تعالى خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضاً . فإذا اتقى العبد ربه باتّباع أوامره واجتناب نواهيه ، وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات ، وشحن قلبه بالنية الخالصة ، وجوارحه بالأعمال الصالحة ، وتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر ، جعل له من الحق والباطل فرقاناً ، ورزقه فيما يريد من الخير . »^(١) . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الذي جعل من خوفكم منه في السر سبباً لنيل كل هذه النعم ، فعليكم أن تتقوا به لتنالوا فضله ورحمته وغفرانه ، فتلک سنة الله في خلقه ، وذلك وعده الحق لعباده المؤمنين ، جعلنا الله منهم .

(١) تفسير القرطبي : الأنفال ، آية ٢٩ .

النداء التاسع والأربعون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

الأنفال/ ٤٥ و ٤٦

درس آخر من دروس التربية الإسلامية يعلمُ الله _ سبحانه _ عباده الثبات أمام العدو ودوام الصلة بالله واتباع شريعته ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله مشرعاً وعالمًا بما يفيدكم ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ تعارضكم في أمر دينكم أو تحاول التشكيك فيه ، أو صدكم عنه بمختلف الوسائل الحربية أو الكلامية ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ على مبادئكم التي تضمنها منهجكم القويم ، وتمسكوا بعقيدتكم مهما كلفكم الأمر من تضحيات ، ومهما نالكم من أذى في هذا السبيل . وهذا هو الأدب الأول في هذا النداء الإلهي .

عن عبد الله بن أبي أوفى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم ، فقال : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السَّيْفِ " ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ ، وَمَجْرِي السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانصِرْنَا عَلَيْهِمْ " ^(١) .

يستفاد من الحديث المذكور أن المسلمين ليسوا دعاة حرب ، ولا ييغون الاعتداء على

(١) انظر صحيح البخاري/ ٢٨٠٤ ، وصحيح مسلم/ كتاب الجهاد والسير/ ١٧٤٢ .

أحد ، ولكن عليهم أن يصدوا غارات أعداء الإسلام التي تنوعت أساليبها في العصر الحاضر بما يتناسب مع الأجواء العامة والقدرات « فאלله تعالى أذن للمسلمين في قتال عدوهم وندبهم للجهاد في سبيله لا حباً في إراقة الدماء وإزهاق الأرواح ، ولا لمجرد البطش والقهر - كما يزعم خصوم الإسلام ، فإن الإسلام دين أمن وسلام ، وبشير رحمة وطمأنينة ، ولكنه تعالى أذن لهم لأجل أن يدفعوا ذلك الظلم الذي وقع عليهم . فحين قال تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ - الحج / ٣٩ - إنما وعد الله عز وجل المؤمنين بالدفاع وكف غوائل المشركين الذين ألجؤوا المسلمين إلى الخروج من أوطانهم وترك أموالهم وأهلهم فراراً بدينهم »^(١) .

- الأدب الثاني ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ أي واذكروا أنكم على الحق الذي جاء من عند الله ، وأنتم متمسكون بتعاليم المنهج القرآني فكراً وقولاً وعملاً ، ففي هذه الأمور تقوية لعزائمكم . وذكر الله أثناء القتال يحقق معنى العبودية لله ، ويشعر بمعنى الإيمان والتفويض لله ، والتوكل عليه . ويقوي الروح المعنوية ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ - الرعد / ٢٨ - ويؤمل النصر والفرج . وبدعائه تتبدد الكروب والمخاوف .

يقول الشيخ محمد علي السائس : « طلب الله من عباده أن يذكروه ، والذكر أداء العلاج ، إذ هو وسيلة الخشية ، ومتى وجدت الخشية وجدت الطاعة ، واجتنبت المعصية ، وذلك هو الفوز والسعادة . روى ابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله قياماً وقعوداً ﴾ أنه كان يقول : لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاءً ، ثم إنه عذرهم عن ما يمنعهم من أدائها من العذر ، إلا الذكر فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا فعله بأعلى عقله فقال : ﴿ اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ بالليل والنهار ، في البر والبحر ، والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ،

(١) تفسير آيات الأحكام : ٢ ص ٩٠ .

والسر والعلانية ، وعلى كل حال . . .»^(١) .

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في بلوغ غايتكم ، وتفوزون بالنصر على مكاييد عدوكم ، إذا وقفت ثابتي في وجه أعدائكم وذكّرت الله ، فالثبات وذكر الله من وسائل الفوز بالأجر والثواب والنصر على الأعداء ، وهما سببان معنويان لنيل السعادة والعزة في هذه الحياة الدنيا .

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالثبات في وجه الأعداء ، وذكّر الله ، وجههم في الآية الثانية من النداء إلى آداب أخرى هي :

« ١ - الطاعة : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ طاعة الله والرسول في كل ما أمر العبد به ونُهي عنه . فما أمرنا الله تعالى به اتّمرنا ، وما نهانا عنه انزجرنا ، لأن طاعة الله ورسوله من أسباب تحقيق الفوز والنصر في القتال وغيره . . . ولأن الطاعة تحقق الانضباط واحترام النظام وحبّه في أعلى مستوى وأكملّه .

٢ - وحدة الصف والكلمة والهدف ، وعدم التنازع والاختلاف : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ فإن توحيد الصف والكلمة أمر أساسي عند لقاء العدو ، والتنازع والاختلاف مدعاة للفشل والجبن والخيبة وتغليب العدو . فإياكم والتنازع لأنه مهدر للطاقات ، ومقوِّض لبنية الجماعات ، وسبيل لإذهاب الحماسة وتبديد القوة ، والعصف بوجود الدولة ، وإزالة روح الإقبال والإقدام ، فلقد هلكت الأمم باختلافها وكثرة آرائها واعتراضاتها .

٣ - الصبر على الشدائد والمحن ، وتحمل بأس العدو : ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فإن الصبر سلاح القوي المقدم . لذا قيل : الشجاعة صبر ساعة . والله مع الصابرين يدهم بالعون والتأييد والنصر . . .»^(٢) .

ما أعظم هذا النداء الذي تضمن خمس نصائح جاءت بشكل مباشر ، وهي : الثبات

(١) المصدر السابق : ٢ ص ١٤٠ .

(٢) التفسير المنير : ج / ١٠ ، ص ٢٦ .

عند لقاء العدو، وذكر الله، وطاعة الله ورسوله، ووحدة الصف بعدم التنازع، والصبر على الشدائد. وهناك توجيهات أخرى جاءت بشكل غير مباشر يرشد إليها هذا النداء وهي:

- ١- شرعية الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن النفس والأرض والمال .
 - ٢- عمومية الزمان والمكان ، فالعرب الذين أخرجوا من ديارهم طرداً أو حرباً ، والذين صودرت أموالهم وأراضيهم يحق لهم أن يرفعوا راية الجهاد ضد عدوهم ، كما رفع المسلمون الأوائل راية الجهاد ضد المشركين .
 - ٣- هذا الجهاد هو محك امتحان واختبار ليتبين المجاهدون من القاعدين ، والمخلصون من المنافقين . ولتعلم الذين يعيشون في الأحلام والخيالات أن النصر لا يأتي منحة إلهية خالصة للمؤمنين دون أن يقوموا بواجباتهم ويعملوا بما تقتضيه متطلبات الجهاد وحمل الأمانة ، وإذا جاهدوا وصبروا وثبتوا أثمهم العناية الإلهية .
- والجهاد _ كما ذكرنا في مكان آخر _ قد يكون بالنفس ، أو بالمال ، وقد يكون بالكلمة الحرة التي تبلور الحقائق وتميز بين المؤمن الذي يفضح أساليب المستعمر ومراوغاته ، والمنافق الذي يدعو إلى التخاذل والاستسلام ويجعل من الديموقراطية المزيفة التي تنادي بها (إسرائيل) وحليفها الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً يجب أن يقتدى به ، ديمقراطية الازدواجية في المعاملة ، والتحيز لليهود أينما كانوا، وعدم ذكر ما يمس أضيالهم، واعتبار الداعين إلى تحرير الأرض من الغاصب إرهابيين . قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ _ العنكبوت/ ٢ _ .

- ٤- إن الله تعالى الذي خلق الكائنات وضع لها نظاماً خاصاً بها ، وسنَّ سنناً معنوية خفية إلى جانب ما هو ظاهر بهم من الأسباب المادية ، ودعاهم إلى متابعتها وعدم تجاهلها ومن تلك السنن التي قدرها الله في أزلها ؛ أن الاتحاد سبيل العزة والرفعة ، وأن التنازع _ كما ذكرنا أعلاه _ مدعاة للفشل والهوان . لذا أمرهم بطاعة الله ورسوله ونهاهم عن التنازع بقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، فسعادة الأمة

ورفعتها لا تكون إلا عن طريق وحدتها والتشام شمل أبنائها ، ولا أدل على الدعوة إلى وحدة الأمة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ لَأَخَوِيكُمْ ﴾ _الحجرات/ ١٠_ ، كما أن شقاءها وتلاشي عظمتها إنما ينشأ عن اختلاف الكلمة وتضارب الأفكار وتباين المقاصد . « ومن أجل هذا أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يقيموا وحدتهم الإسلامية على أساس يجعلهم متحدين متوافقين في كل شيء ؛ في العقيدة ، والعبادة ، في الاتجاه والقصد (فأمرهم بالتوجه كل يوم خمس مرات إلى البيت الحرام ليكون لهم بذلك اتجاه واحد يزيدهم إيماناً وقوة) . وفي اللغة والوطن ؛ فأمرهم أن يتحدثوا في اللغة التي هي سبيل التفاهم ومن أقوى الروابط بين الناس ، حيث جاءهم بالقرآن بلغة عربية فصحة ، وأمرهم بتلاوته والإصغاء إليه ، وتدبر معانيه ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ _يوسف/ ٢_ . وهذا صريح في وجوب تعلم اللغة العربية وجعلها اللغة الرسمية للتخاطب بين المسلمين لتحكم بذلك وحدتهم ، وإلا فما فائدة الإصغاء إليه ، وكيف يمكن لهم تدبر معانيه ؟ »^(١) .

وهكذا نرى كيف سعى الرسول صلى الله عليه وسلم لإزالة أسباب التوتر بين القبائل العربية أولاً من أجل التضامن . ثم سعى إلى إزالة أسباب التوتر من أجل وحدة المسلمين . وما مساعيه إلا دروس لأمته التي آمنت برسالته وأنه القدوة التي يجب الاستفادة منها حاضراً ومستقبلاً من أجل إزالة أسباب التوتر أو التنازع بين الأقطار العربية والإسلامية بهدف التضامن ، بعد أن كشفت كارثة فلسطين عن وجه الصهيونية الحاكمة ، وأزالت كل حجة في جدوى أي ارتباط مع الغرب الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية ، وبعد أن فتحت المجابهة العربية الصهيونية عين العرب على قضية معاداة الغرب الاستعماري لقضية الوحدة العربية والتقارب الإسلامي .

(١) أسمى الرسالات : ص ٤١٧ .

النداء الخمسون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ ﴾
_ التوبة / ٢٣ _

في هذا النداء توجيه إلى حقيقتين هامتين :
الأولى ؛ هدم الثقة بالمشركون مطلقاً ولو كانوا من أقرب المقربين للمؤمنين .
الثانية ؛ أن تكون محبة الله ورسوله فوق محبة الأهل والمال والولد والعشيرة ، وإيثار
وجوب طاعتها على كل شيء . وقد قيل في سبب النزول أكثر من رواية ، نختار منها ما
رواه الكلبي حيث قال :

« لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة ، جعل الرجل يقول
لأبيه وأخيه وأمرأته : إِنَّا قَدْ أَمَرْنَا بِالْهَجْرَةِ ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من
يتعلق به زوجته وعياله وولده ، فيقولون : نشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع ،
فيرق ، فيجلس معهم ويدع الهجرة ، فعاتبهم الله سبحانه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ . ﴾ (١) والآباء والإخوة هم بلا شك من أحب الناس ،
لا قرابة أقرب منها ، فنفي الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ _ المائدة / ٥١ _ ، فهنا نفى الموالاة بين الأبناء والآباء
والإخوة ناهياً عن النصرة بهم والاعتماد عليهم في الشدائد ﴿ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى

(١) التفسير المنير : ج ١٠ ص ١٤٨ ، وأسباب النزول للواحدي ، ص ١٤٠ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم
وإخوانكم أولياء . . . ﴿

الإيمان ﴿أي ما داموا يخالفونكم في الدين فلا تنصرونهم في القتال ، ولا تؤيدون الكفار لأجلهم ، أو تطلعونهم على أسرار المسلمين العامة أو الحربية ، إن اختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا الشرك على الإسلام . لأن روابط الفرد الشخصية مهما كانت قوية فإنها لا تحمل الإنسان على تغيير مبدئه الذي يدين به ، ولا تسوغ له أن ينصر مخالفاً له في العقيدة على نفسه التي يعتز بها . ويؤكد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ . . . ﴾ _ المجادلة/ ٢٢ _ .

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ ويستنصر بهم بعد هذه الحقيقة الثابتة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم وأمتهم ، ظالمون لأنفسهم بركونهم إلى من لا ينبغي الركون إليه ، فقد ينصر الرجل أباه على أخيه ، ولكن لا يمكن أن ينصر أحداً على نفسه . وظالمون لأمتهم لأنهم خالفوا الله ورسوله بموالاة الكافرين .

« بعد أن نهى عن مخالطتهم أوضح أن هذا النهي للتحريم لا للتنزيه ، بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ، لأنه رضي بشركهم ، والرضا بالكفر كفر ، كما أن الرضا بالفسق فسق . . . » ^(١) .

ظاهر الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين ، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين . ونص الله سبحانه الآباء والإخوة لبيان أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان . ولم يذكر البناء في هذه الآية ، إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبّع للآباء ، والإحسان وهبة الأشياء مستثناة من الولاية ، بدليل ما أخرجه البخاري : قالت أسماء : يا رسول الله ؛ إن أُمِّي قدمت عليّ راغبة ، وهي مشركة ، أفأصلها ؟ قال : «صَلِّيْ أُمَّكَ» ^(٢) .

(١) المصدر السابق : ج/ ١٠ ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٨ و ١٥٤ .

الحقيقة الثانية التي تتجلى في هذا النداء هي : تجريد القلب من محبة غير الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وإيثار وجوب طاعتهما على كل شيء حيث قال تعالى في الآية التي تلي النداء : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ بمعنى قل يا أيها الرسول لمن صدق برسالتيك عن ربك : إذا كنتم قد عرفتم الله حقاً فمن واجبك أن تشعروا نحوه بحب صادق ، وتخلصوا في طاعة أوامره إخلاصاً لا يقف في طريقه أي عائق وقد أمرني ربي أن أبلغكم أنه إن كان آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ حتى الأموال والتجارة أحب إليكم من حب الله ورسوله ومن حب الجهاد في سبيله تعالى بالنفس والمال ، فتربصوا الجزاء على عدم تقديركم لآلائه وجحودكم لإحسانه . والله لا يهدي إلى معرفة إيثار حبه وحب رسوله وما يترتب على ذلك من التآخي والتناصر المتمردين على قبول هداية الله والمتجاوزين لحدود شريعته . وفي هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا . وفيه إشارة إلى وجوب قيام المربين بواجبهم الأكمل تطبيقاً وتنفيذاً على الأسس التي وضعها الإسلام ، والمبادئ التي رسم معالمها المربي الأول صوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

النداء الحادي والخمسون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ،
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

—التوبة/ ٢٨—

هذا النداء ينبه المؤمنين إلى منع المشركين من دخول المسجد الحرام بعد أن تم فتح مكة ، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحداية الله تعالى الخالق لهذا الكون والمتصرف بشؤونه والرازق لعباده: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ، وأكثر المفسرين على أن لفظ المشركين خاص بعبادة الأوثان . وقال بعضهم بأن اللفظ يتناول جميع الكفار لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ _ النساء/ ٤٨ _ وهذا هو الظاهر . والمشركون في عبادتهم التي تتضمن الشرك هم نجس في عقائدهم الباطلة ، ولنجاستهم هذه يجب إبعادهم عن المسجد الحرام ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي فلا تمكنوهم من دخول أرض الحرم . «لا يمكن الكافر من دخول حرم مكة ، سواء مساجدها وغيرها . حتى لو جاء في رسالة لا يدخل ، بل يخرج إليه من يقضي الأمر المتعلق به . هذا هو المشهور . . فإن احتيج إلى أن يدخل طيب كافر إليه فذلك جائز للضرورة ، غير أنه لا يترك مستوطناً به . . قال الإمام الشافعي في (الأم): (ليس للإمام أن يدع مشركاً يطأ الحرم بحال من الحالات ، طيباً كان أو صانعاً بنياناً أو غيره) . وقد روى الشافعي بسنده أنه عليه السلام قال: " لا يجتمع مسلم ومشرك في الحرم " ، وقال ابن عباس: (لا يدخل أحد مكة إلا محرماً ، والكافر لا يمكن إحرامه ، فامتنع دخوله) . ولو دخل الكافر خفية ومرض

ومات في الحرم ودفن ، نبش وأخرج منه مالم يتقطع بخلاف غيره من البلاد . . .»^(١) .

هناك اختلاف بين العلماء في المراد بالمسجد الحرام ، « فقال عطاء : الحرم كله قبله ومسجد ، فليس المراد المسجد الحرام _ وهو مذهب الشافعية _ أخذاً بظاهر اللفظ . وقيل : المراد المسجد الحرام بالنص ، وبقية المسجد تقاس عليه ، لأن العلة _ وهي النجاسة _ موجودة في المشركين ، والحرمة موجودة في كل مسجد _ وهو مذهب المالكية _ فلا يجوز تمكينهم من دخول المسجد الحرام والمساجد كلها . وقيل : ليس المراد النهي عن دخول المسجد الحرام ، وإنما المراد النهي عن أن يحجّ المشركون ويعتَمروا كما كانوا في الجاهلية _ وهو مذهب الحنفية _ ، ويؤيد ذلك :

١- ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فَإِنْ تَقَيَّدَ النَّهْيُ بِذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ النَّهْيِ عَنْهُ بِوَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِ الْعَامِ ، أَيْ لَا يَحْجُوا وَلَا يَعْتَمِرُوا بَعْدَ حَجِّ عَامِهِمْ هَذَا ، وَهُوَ الْعَامُ التَّاسِعُ مِنَ الْهَجْرَةِ .

٢- قول الإمام علي بن أبي طالب _ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ _ حِينَ نَادَى بِسُورَةِ بَرَاءَةِ : أَلَا لَا يَحْجِ بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فَإِنْ خَشِيَ الْعَيْلَةَ تَكُونُ بِسَبَبِ انْقِطَاعِ تِلْكَ الْمَوَاسِمِ لِمَنْعِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَنْتَفِعُونَ بِالتَّجَارَاتِ الَّتِي تَرُوجُ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ .

٤- إجماع المسلمين على منع المشركين من الحج والوقوف بعرفة والمزدلفة ، وسائر أعمال الحج ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَسْجِدِ . . .»^(٢) .

والمقصود في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ : أَيْ إِنْ خِفْتُمْ فَقَرَأْ بِسَبَبِ مَنْعِهِمْ مِنْ

(١) انظر : إعلام الساجد في أحكام المساجد ، تصنيف الإمام محمد بن عبد الله الزركشي ، ص ١٧٣ -

١٧٥ ، تحقيق المراغي ، القاهرة ١٣٩٧ هـ .

(٢) تفسير آيات الأحكام : ٣ ص ٢٢ .

الحج ، وانقطاع ما كانوا يجلبونه من الأرزاق والمكاسب . وفي قوله ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ : « إخبار عن غيب في المستقبل ، وقد وقع الأمر مطابقاً لهذا الخبر ، فقد أسلم الناس من أهل جدة ، وصنعاء ، وحنين ، وتبالة ، وجرش ، وكثر ترددهم على مكة بالتجارات وحمل الطعام وما يعاش به . وقد أرسل الله تعالى عليهم السماء مدراراً ، فكثر خيرهم ، واتسعت أرزاقهم ، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض . والتعبير بالمشيئة في قوله تعالى : ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ لتعليم رعاية الأدب مع الله تعالى ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلَنَّ المسجدَ الحرامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ ﴾ _الفتح/ ٢٧_ ، وللإشارة إلى أنه لا ينبغي الاعتماد على أن المطلوب يحصل حتماً ، بل لا بدَّ من أن يتضرَّع المرء إلى الله تعالى في طلب الخيرات ، وفي دفع الآفات . ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم وبما أنتم بحاجة إليه ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعطي ويمنع عن حكمة وصواب»^(١) .

(١) المصدر السابق : ٢ ص ٢٤٤ .

النداء الثاني و الخمسون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

التوبة / ٣٤ _

جاء في تفسير القرطبي ما يشير إلى اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في المراد هذه الآية ، فقد قال معاوية والأصم وغيرهما : المراد بها أهل الكتاب . وقال أبو ذر الغفاري وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وقال بعض العلماء : المقصود من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ﴾ التحذير من علماء السوء وعباد الضلال « كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح : " لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقَذَّةِ بِالْقَذَّةِ " قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : " فَمَنْ ؟ " ^(١) . والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ، إذ كانوا يزعمون لأنفسهم سلطة روحية ، يتحكمون بمقتضاها في رقاب البسطاء ، ويوهمونهم أن في استطاعتهم قبول الاعترافات بالذنوب ، ومنح الشفاعة لمن يريدون مقابل أموال يتزونها منهم . وإنهم لذلك ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ بطريق غير مشروع ، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ، فهم لا يملكون الغفران حتى يَمْنُوا به عليهم ، ولا نفوذ لهم في الآخرة حتى يستطيعوا أن يمنحوا جنة

(١) صحيح مسلم / ٢٦٦٩ . و البخاري / ٣٢٦٩ .

أو ناراً . وهم بعملهم هذا يعطون ما لا يملكون ، ويأخذون مال الآخرين بمسلك غير شريف . كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ، ولهم عندهم هدايا وضرائب تجبى إليهم . فلما بعث الله تعالى نبيّه محمداً عليه الصلاة والسلام استمروا على ضلالهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات ، فأطفأها الله بنور النبوة ، وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار بما كانوا يكفرون ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، فإلى جانب أكلهم أموال الناس بالباطل يصدّون الناس عن اتباع الحق ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير . ولكن الإسلام بدعوته إلى الإخلاص لعبادة الله وحده بشريعة مدعومة بالبرهان فنّد أقوالهم وأعمالهم .

بعد أن حذّر النداء من أقوال وتصرفات علماء اليهود ، وعبّاد النصارى ، انتقل إلى التحذير من أرباب الأموال ليبين أنه إذا فسدت أحوال هؤلاء الأقسام الثلاثة فسدت أحوال الناس . فالكنز هو المال الذي لا تؤدّي زكاته ، كما روي عن ابن عمر ، وأصل الكنز في اللغة : الضم والجمع ، ولا يختص بالذهب والفضة ، وهذا ما يدعمه قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بخير ما يملكه المرء ؛ المرأة الصالحة . " أي يضمه لنفسه ويجمعه . ويستفاد من ذلك أيضاً أن الكنز ليس الامتناع عن الزكاة ، فالصدقة والإنفاق كثيراً ما يذكران بعد أو قبل ذكر الزكاة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ _ المزمّل / ٢٠ . والقرض الحسن هو الصدقة التي يتصدق بها الإنسان عن طيب قلب غير محددة بنصاب .

روي عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شرٌّ لك " . فالعقاب قد يحل بالبخل جزاء ما بخل به ومنعه الخير . ويضرب الله تعالى لنا مثلاً في قصة قصيرة : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ، إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ، وَلَا يَسْتُونَ ، فطافَ عليها طائفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ . . ﴾ _ القلم / ١٧ - ٢٠ _ حيث اختبر الله تعالى مبلغ شكرهم للنعم في الحديقة أو الأرض التي خلّقها لهم أبوهم ، وكان في حياته يترك

للمساكين ما أخطأ المنجل ، وما أسفل في الأكداس ، وما نسيه القطاف من العنب ، وما بقي على البساط تحت النخلة إذا صرمت ، فيجتمع عليه المساكين ويأخذونه . فلما مات الرجل ، قال أبنأؤه : نحن أولى بكل ذلك ، فحلفوا ليصرمنَّ ما في الجنة أو الحديقة خفية في الصباح الباكر ، ولا يتركون للمساكين شيئاً . فجزاهم الله على هذا البخل بإحراق جنتهم وضرب بهم هذا المثل . وفصل هذه الحادثة في سورة القلم لتكون عبرة ونذيراً لأولئك القوم وللذين يستأثرون بنعمة الله ويمنعون حق الله فيها . فالذين لا يزكون و يكنزون أموالهم ﴿ فبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فإذا كان كنز المال في حد ذاته وعدم إنفاقه في سبيل الله جريمة يستحق مرتكبها العذاب الأليم ، فكيف بمن يجمع الأموال عن طريق غير مشروع وينفقه في الصد عن سبيل الله ؟ .

نختم القول بالأحكام التي يرشد إليها النداء :

« ١ - تحريم أكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله تعالى . وهو المبالغة في منع الناس بجميع وجوه المكر والخداع من اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة الأخيار من العلماء والناس .

٢ - تحريم اكتناز المال دون إنفاقه في سبيل الله (عن طريق الزكاة ، والصدقات ، والمشاريع الخيرية) .

٣ - استحقاق الكانز العقاب الشديد في الآخرة ، مع التوبيخ والتهكم .

أما الحكم الأول : فهو عام للأخبار والرهبان وغيرهم ، إلا أنه كان مستقبلاً منهم ، لأنهم يتاجرون بالدين ، ويدعون انهم مقرّبون من الله ، وهم أشد الناس حرصاً على جمع المال وطمعاً فيه ، وبخلاً به ، فجمعوا بين حب المال والجاه .

وأما الحكم الثاني ؛ فالمراد به على الصحيح أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . لأنه لو أراد أهل الكتاب على التخصيص لقال : و يكنزون ، بغير (والذين) . فلما قال (والذين) فقد استأنف معنى آخرين أن عطف جملة على جملة . فالذين يكنزون ، كلام مستأنف ، مرفوع على الابتداء ، وهذا قول أبي ذر وغيره . وعلى هذا القول يكون في الآية

دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة .

وأما الحكم الثالث ؛ فقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم هذا العذاب فيما يرويه مسلم بقوله : "بشّر الكافرين بكيٍّ في ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وبكيٍّ من قبل أقبائهم يخرج من جباههم ."^(١)

(١) التفسير المنير: ج ١٠ ص ١٩٥ و ١٩٦ .

النداء الثالث والخمسون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

— التوبة / ١١٩ —

لقد أخذ الإسلام يستقر في الجزيرة العربية ، واستولى سلطانه على الأفئدة والنفوس . وهذا ما كانت نصارى الروم تراقبه من بعيد في خوف وقلق . فالرومان لم يعتنقوا النصرانية إيماناً منهم بها ، وإنما كانوا قد اتخذوها ذريعة إلى استعمار تلك المنطقة .

« والإسلام الذي تكررت الدعوة إليه على لسان جميع الرسل والأنبياء إنما جاء ليخرج الناس عن كل سلطان غير سلطان الله . فلا غرو أن يكون هذا الدين بعد أن استقر في الجزيرة العربية ، مصدر قلق وتخوف لدى طغاة الروم وأتباعهم الذين ما دخلوا النصرانية إلا ظاهراً ، وما أرادوا من ذلك إلا ضمان بسط سلطانهم على المستضعفين . من أجل ذلك تلقوا خبر فتح مكة ، ونبا انتصار الإسلام في الجزيرة العربية بالذعر . ثم أخذوا يجمعون جموعهم بين الشام والحجاز ، علّهم يقفون في وجه هذا الدين الذي سيكون في انتشاره القضاء عليهم وعلى سلطانهم ولما بلغ المسلمين من الأنباط الذين كانوا ينتقلون بين الشام والمدينة للتجارة ، أن الروم قد جمعت جموعاً وأجلبت إلى جانبها لحْم وجذام وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم ، ووصلت طلائعهم إلى أرض البلقاء . ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج ، وكان ذلك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة ، وكان الفصل صيفاً ، وقد بلغ الحر أقصاه ، والناس في عسرة من

إن الله سبحانه وتعالى الذي يعلم ما تكنه الصدور ، علم أن بعض المسلمين كان غير ميّال في سيره إلى القتال ، فأراد عزّ شأنه أن ينتزع من قلوبهم ذلك ، وأمرهم بعدم التردد في إجابة الأمر حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ توبيخ جاء بصيغة الاستفهام للتقريع على ترك الجهاد ، وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك . والمعنى ؛ ما لكم أيها المؤمنون إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله تباطأتم ، فلم تنهضوا إلى النجدة ، ولزمتهم أرضكم ومساكنكم ، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه . فعاتبهم الله تعالى بقوله : ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ يعني أَرْضَيْتُمْ بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فلذات الدنيا ونعيمها فان زائل ، ينفد عن قليل ، ونعيم الآخرة باق على الأبد ، فلهذا كان متاع الدنيا قليلاً بالنسبة إلى نعيم الآخرة . فهذا القليل لا يرضى به عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر . وقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيم الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة في قلته في نفسه وزمنه بمن وضع إصبعه في اليم ، ثم أخرجها منه وقال : فانظر بيم ترجع ؟ فقد جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بيم ترجع ، وأشار بالسبابة " (٢) .

لكن ما يجب الانتباه إليه هنا إضافة لما ذكر ؛ أن الشريعة الإسلامية إنما تنفر من الدنيا التي هي بمعناها الواسع ؛ الحرام والظلم والاستغلال ، وذلك بدلالة الآيات التي تأمر بالعمل والكسب الحلال وأكل الطيبات . وقد أوضحنا ذلك في النداءين (١٠ و ٣٧) ، إضافة لقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

(١) انظر : فقه السيرة للدكتور البوطي ، ص ٤٦٦-٤٧٧ .

(٢) رياض الصالحين ، ص ٢١٤ ، باب فضل الزهد في الدنيا . أخرجه مسلم / ٢٨٥٨ عن المستوردين

الرِّزْقُ ﴿الأعراف/ ٣٢﴾ . وقوله تعالى : ﴿كلوا من الطَّيِّبَاتِ واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ _ المؤمنون/ ٥١ . فلم يكتف الله سبحانه بالأمر بالزينة والأكل والشرب حتى استنكر ما يزينه البعض من تحريم زينة الله من أنواع الملبوسات وما يتوصل إليه العلم من المخترعات التي تكسو الإنسان جمالاً وحسناً ، أو تسهل له سبيل العمل وطيب العيش ، ويشاركهم في هذه الطيبات غير المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ولكنها يوم القيامة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها أحد ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ، كذلك تُفَصِّلُ الآيات لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿الأعراف/ ٣٢﴾ . وقد جعل الله تعالى للإنسان وظيفة ، إذ جعله خليفة ، و عليه أن يعمر هذه الدنيا ، ولكن عليه في سعيه الديني أن ينتصر على الدنيا ، بمعنى أن يمتلكها ، وذلك باستخدام ما فيها لمنفعة من فيها من مجتمعات ، ولا ينتصر على الدنيا بإهمالها أو الركون إليها ، والإخلاد إلى الراحة ، والانزلاق في التهاوات . فالانسحاب من الدنيا انسحاب من الإنسانية ، انسحاب من الحياة . والفرق كبير بين الترفع عن الدنيا ، والانهزام أمامها . ولنعلم أن الاستجابة لداعي الجهاد إنما يكون لإعلاء كلمة الله أولاً ، ولكن بعد الجهاد يأتي الأمان والاطمئنان الذي يساعد على السعي لكسب العيش وازدهار الحضارة . فالتحذير إنما جاء بقصد ترك أمور الدنيا إذا دعا داعي الجهاد . ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ _ القصص/ ٧٧ .

هذا ويستنبط من النداء المذكور عدة أحكام منها :

- أهمية الجهاد في كل حال ، وفي كل وقت لأنه تعالى استنكر تشاغل المؤمنين عن

الجهاد ، ولو لم يكن الجهاد واجباً لما عاتبهم على ذلك التشاغل .

- التخلف عن أداء واجب الجهاد يستوجب ذلة وضعفاً أو استعماراً في الدنيا ،

وعذاباً شديداً في الآخرة . يؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبْكُمْ عُذَاباً أَلِيماً ،

ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضرُّوه شيئاً﴾ _ التوبة/ ٣٩ . ومما جاء في التفسير : أن المراد

بعذاب الدنيا ؛ احتباس المطر « قال نجدة بن نفيح : سألت ابن عباس عن هذه الآية ، فقال :

استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيّاً من أحياء العرب ، فتثاقلوا ، فأمسك الله تعالى عنهم المطر ، فكان ذلك عذابهم» . وسبق أن ذكرنا أن الجهاد لا يتوقف على الخروج للغزو فقط ، والله أعلم .

النداء الرابع والخمسون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

التوبة/ ١١٩ _

تحدثنا فيما سبق عن التقوى لغة وشرعاً، وعن ثمراتها. ونظراً لأهميتها وتأكيد القرآن الكريم عليها في مواضع كثيرة، أضيف هنا قائلاً بأن من أهم ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الدعوة إلى الإيمان والإسلام؛ الدعوة إلى التقوى. فقد جعلها معيار التفاضل بين المسلمين، حيث قال: "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى". وقال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ _ الحجرات/ ١٣. وقال أيضاً: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ _ البقرة/ ١٥٧. وفي هذا النداء خاطب الذين آمنوا قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي راقبوه في سائر أعمالكم وحاذروا من سخطه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي اصدقوا والزمو الصديقين من المهاجرين والمهالك ويجعل لكم فرجاً ومخرجاً. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً".^(١) وروي عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دَعْ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا

(١) البخاري، كتاب الأدب ٨١، ٥٧٤٣. والترمذي: ٢٠٣٨. والجامع الصغير: ٢٠٤٤.

يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة^(١) .

جاء في تفسير القرطبي حول قوله تعالى ﴿ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ : « أي مع الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لا مع المنافقين . أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم . وقيل : هو المراد بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ _ البقرة / ١٧٧ _ .

وقيل : هم الموفون بما عاهدوا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وقيل : هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . وقيل : هم المهاجرون ، لقول أبي بكر الصديق يوم السقيفة : إن الله سمّانا الصادقين فقال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ _ الحشر / ٨ _ . أما تفسير أبي بكر فهو الذي يعم الأقوال كلها ، فإن جميع الصفات فيهم موجودة^(٢) . ولا شك أن هذا التفسير يتضمن معنى الصادقين بشكل عام ، أما ما يرد إلى الخاطر لأول وهلة عند تلاوة هذه الآية : الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ورسوله في الخروج مع الرسول إلى الجهاد ، وما كانوا مع المتخلفين الذين قعدوا عن الخروج إلى غزوة تبوك . وفي الآية إشارة إلى مضامين الآيات السابقة لهذه الآية عن الثلاثة الذين تخلفوا عن الذهاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك من غير عذر ، وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . ولما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم وسأل المنافقين عن سبب تخلفهم ، فاعتذروا بما اعتذروا به ، وحلفوا له ، فقبل منهم

(١) رواه الترمذي : ٢٦٣٧ وقال حديث حسن صحيح . والجامع الصغير : ٤٢١٣ .

(٢) تفسير القرطبي ، سورة التوبة ، آية ١١٩ .

علانيتهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى . أما هؤلاء الثلاثة فقد راقبوا الله في سرهم ، وخافوا سخطه عليهم إذا هم كذبوا ، فصمموا على الصراحة . ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم ، وظلوا على ذلك خمسين يوماً والخوف من الله يتأجج في صدورهم ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ﴾ _ التوبة / ١١٨ . ومن ثم وجه الله تعالى خطابه إلى المؤمنين عامة ، يدعوهم إلى التأسي بهؤلاء الثلاثة الذين التزموا جانب الصدق مع رسول الله في أقوالهم ، والتزموا في أعمالهم الخوف من الله وطلب المغفرة والتوبة .

هذا وقد دلت الآية على أن الصدق جماع الفضائل ، وميزان العبادات والمعاملات مع الله والناس ، وشرط من شروط النجاة من المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة . وبمناسبة الحديث عن الصدق ، أرى أن أختم الحديث بالتعرض إلى درجات الصدق : « درجات الصدق خمس :

- الأولى : صدق اللسان ، وحق على كل إنسان أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق ، وكمال الصدق في القول : الاحتراز عن المعارض ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى غيره ، وكى لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال صلى الله عليه وسلم : " ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو غمى خيراً " ^(١) .

- الثانية : الصدق في النية والإرادة ، ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل

(١) سنن أبي داود : ٤٩٢٠ . ورواه الشيخان من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط بلفظ : ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً . البخاري ١٣٠٢ ، ومسلم ٢٥٠٦ .

صدق النية .

- الثالثة : صدق العزم ؛ وهو الحزم فيه بقوة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد .

- الرابعة : الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال ، فإذا حقّت الحقائق

و هاجت الشهوات انحلت العزيمة . . وهذا يضاد الصدق .

- الخامسة : الصدق في الأعمال ؛ وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على

أمر في باطنه لا يتصف هو به . فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لأن يرائي غيره ولكنه

في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال في عمله غير

صادق فيه . فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره ، أو خيراً

من ظاهره . . . » ^(١) .

(١) موعظة المؤمنين : ص ٤٤٤-٤٤٦ .

النداء الخامس والخمسون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غُلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

التوبة/ ١٢٣ -

في هذا النداء يرشد القائدُ العالمُ بكل شيء عباده المؤمنين إلى الخطة المثلى في مقاتلة أعداء الدولة ، إذ من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الأعداء في وقت واحد ، فكان من أحسن الخطط في قتالهم : البدء بقتال الأقرب فالأبعد . . لذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ﴾ الذي فرض عليكم الجهاد لنصرة دينه وإعلاء كلمته : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ الذين أنزل القرآن لإنذارهم أولاً وقبل كل شيء ، ليكونوا حماية فيما يقبل من الزمن ، حيث قال تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ بمعنى ابتدئوا بالأقرب منكم إلى حوزة الإسلام « ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم ، وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وحضرموت ، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب . فبلغ تبوك ، ثم رجع لأجل جذب البلاد وضيق الحال سنة تسع من الهجرة»^(١) ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غُلْظَةً ﴾ أي شدة وتصميماً على ضرورة إسلامهم ، فإن التساهل معهم من شأنه أن يؤدي إلى تقاعسهم عن اعتناق دين الإسلام ، وبالتالي لثلاث تكون بلادهم بذرة فساد ووكر تجمع أعدائكم والكيد لكم . واعلموا أن

(١) تفسير ابن كثير ، سورة التوبة ، آية ١٢٣ .

المؤمن الحق يكون رقيقاً مع إخوانه المؤمنين ، غليظاً مع أعدائه الكافرين ، فقد قال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾_محمد/ ٢٩_ . كما قال أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾_التوبة/ ٧٣_ . ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله ، واعلموا أن الله من سنته أن يؤيد وينصر من يتقيد بتطبيق أحكام شريعته .

«وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى ، لم يزلوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء في اندحار وخسران . ثم لما وقعت الفتن والأهواء ، ودب التنازع والاختلاف بين الملوك ، طمع الأعداء في أطراف البلاد ، وتقدموا إليها ، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة ، ثم لم يزلوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام»^(١) .

ولم يكتف الأعداء بتجزئة البلاد الإسلامية ، وتشويه الإسلام في البلاد التي سيطروا عليها ، بل حتى البلاد العربية التي تحررت من الاستعمار العسكري ترك الأعداء فيها من يفتن الناس عن دينهم وعروبتهم ، ومن يسعى لتشويه الثقافة الإسلامية والعربية وتاريخ الإسلام والعرب ، ويسعى للحط من شأن العنصر العربي . . إنها حرب على الإسلام والعروبة لم تخب لحظة واحدة ، أبسط ما فيها رمية بالتناقض والادعاء بأن الإسلام فرض بالسيف ، في الوقت الذي قرر الإسلام أن : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ ﴾_البقرة/ ٢٥٦_ . أما البعض الآخر من المغرضين فيتظاهر بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة وهو يحاول في خبث أن يخمد في حس المسلم روح الجهاد ، ويوحي إلى المسلمين بطرق ملتوية مأكرة أن لا ضرورة اليوم أو غدا للجهاد . وكلاهما يعملون في حقل واحد في حرب الإسلام وتحريف منهجه ، كي يأمنوا انبعاث هذا الروح ، وألقوا في خلد المسلمين أن

(١) المصدر السابق .

الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبداً تقتضي الجهاد ، إنما هي فقط حرب أسواق ومراكز وقواعد ، ومن ثم فلا داعي للجهاد . وهنا أقول مستطرداً أن ما يجب أن يفهمه العرب والمسلمون أن عدونا الأول الاستيطان الصهيوني يستخدم كل الوسائل التي تمكنه في الأرض المحتلة ، ويطمع في تجاوزها ، ملوحاً تارة ، ومستخدماً السلاح تارة أخرى . فلا الحس العربي _ الوطني أو القومي _ ولا الديني يدعو إلى التخاذل والاستسلام للعدو القريب منا والذي يحتل جزءاً من أرضنا ، والذي احتل جزءاً من تفكير البعض . هذا البعض يسمع أن شعار دولة العدو من الفرات إلى النيل ثم يقول بأنها حرب اقتصادية . ولو أن هذا البعض قرأ النداء موضوع البحث لأخذتهم العزة لنصرة وطنهم وأمتهم ودينهم ، وبذلك يكونوا من المتقين الذين يحمون أنفسهم من ظلم وبطش العدو المجاور ، ومن عذاب الآخرة إن تقاعسوا عن حماية هذه الأرض الطاهرة كنانة الله في أرضه . والله عز شأنه خلق الإنسان ومنحه من قوة الفكر وحسن التدبير ما يستطيع معه التصرف في جميع أعماله . فيا أيها المناادي بالاستسلام ! لو أن عدواً اقتحم عليك دارك ، واستطاع أن يحتل غرفة منها ، ثم شعرت ، بل وثقت ، بأنه يسعى لاستلاب دارك بأكملها ويطردك منها أو يزهق روحك ، فهل أنت مستسلم له ؟ أم أنك تسعى بشتى الوسائل التي تقدر عليها لما يضمن بقاءك إن لم أقل عزتك وكرامتك ؟ فمن أجل أن لا تهدر كرامة المؤمنين وحقوقهم وبلادهم أمرهم الله تعالى الأخذ بأسباب القوة وكل ما من شأنه أن يرهب خصومهم : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ _ الأنفال / ٦٠ . وأمرهم الاحتفاظ بتلك القوة لمجرد الدفاع عن حقوقهم وصدّ كل من تسوّّل له نفسه الاعتداء على عقيدتهم أو أرضهم ونهاتهم عن استعمالها في الاعتداء على حقوق الغير حيث قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ _ البقرة / ١٩٠ . فأعداء الإسلام هم الذين يقاتلون المسلمين ، ويكيدون لهم ويطعنون في دينهم ، ويظلمون المستضعفين منهم ، وينكثون أيمانهم وعهودهم معهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويبيتون لهم الغدر والخيانة ، ويظاهرون عليهم

أعداءهم من الذين لا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق . «لم يكن نور الدين يحارب الصليبيين على أنهم نصارى بل على أنهم أجنب عن بلاد العرب والمسلمين ، اعتدوا على الوطن العربي ومقدساته ، ومن هنا فلم يمس النصارى من أهل البلاد بسوء ، بل كانوا عنده مواطنين لهم حق الرعاية الكاملة . فلم يهدم حياً من أحيائهم ، ولا آذى قساً أو راهباً ، وقد كان الصليبيون قد نكلوا بالمدينة . »^(١) .

إذن يبقى الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب والعدل بينهم بحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم في دار الإسلام ، ولا يكرهون على شيء من الدين . قال تعالى : ﴿ لا ينهاكمُ اللهُ عن الذينَ لم يُقاتلوكمُ في الدينِ ولم يُخرجوكم من دياركم أن تُبَرِّوهم وتُقْسِطوا إليهم ، إن اللهَ يحبُ المقسطين ﴾ الممتحنة / ٨ .

أما اليهود الذين يشردون أبناء شعبنا ، فهؤلاء نهانا الله عن نصرتهم . والقصد هو العلة ، فمن حاربنا لا بد من محاربتهم ، ومن سألنا نساله . بمثل هذه التعاليم السامية انتشل الرسول صلى الله عليه وسلم الناس من حضيض الذل إلى درجات العزة والسلطان . ولو آمن الناس بالله وبرسوله ، وسمعوا واستوعبوا النداء الذي نحن بصده لأخذتهم العزة لنصرة وطنهم وأمتهم ودينهم . فالنداء كما اختص المجتمع الإسلامي الأول لقتال المشركين يمكن أن يكون عاماً لقتال الذين يلوننا من أعداء الله والأمة .

(١) نور الدين محمود ، تأليف حسين يونس ، ص ٣٣٦ .

النداء السادس والخمسون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

الحج/ ٧٧

في هذا النداء مطالبة للمؤمنين بأربعة تكاليف : الركوع ، والسجود ، والعبادة ، وفعل الخير . إذا قام بها المؤمنون أصبح الأمل كبيراً في فلاحهم .
قيل إن الأمر في هذا النداء موجه إلى الناس جميعاً . إذ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، غير أن الخطاب فيها خُصَّ به المؤمنون لمزيد الاعتناء بهم وتشريفهم ، ولأنهم هم الذين ينتفعون بهذا التكليف .

وقيل : إن هذه الأوامر خاصة بالمؤمنين ، كما أن الخطاب موجه إليهم وحدهم ، إلى أهل طاعته الذين يعرفون حقه ويمتثلون أحكامه . وهذا المعنى أوجه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ اختلف الفقهاء في المراد بالركوع والسجود في الآية . فقال الحنفية : إن المراد بهما معا ؛ الصلاة ، فالأمر بهما أمر للصلاة ، وإنما عبر عن الصلاة بهما لأنهما أهم أركانها وأفضلها . وقيل : إنهما كنايةتان عن الذلة والخضوع . وقيل : المراد معناهما الشرعي المعروف . وقال الشافعية : إن الركوع مجاز عن الصلاة لاختصاصه بها . أما السجود فالمراد به سجود التلاوة . قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ _الحجر/ ٩٨-٩٩_ .

والعبادة هي كل فعل تتجلى فيه الذلة والاستقامة تحت قهر الإله وسلطانه ، ولذا قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ : إن المراد هنا ؛ التكاليف التي تربط العبد بخالقه ، وما

يصلح علاقات الناس مع بعضهم . وبدأت الأوامر بالعبادة الخاصة وهي الصلاة ، ثم بما هو أعم منها وهو جميع العبادات ، ثم بما هو أعم من الكل : ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وهذا التكليف شامل للعبادات وللإحسان في المعاملات .

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" ^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ نَفَسَ عَنْ مؤمن كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مَعْسَرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ . . . " ^(٢) . ويمكن أن ندرج في فعل الخير الحديث التالي الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله" وأحسبه قال : "أو كالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر" ^(٣) .

ومن أولى الناس ببر المسلم جاره الذي إلى جنبه . وإذا امتدت جسور الأخوة والتعاون بينهما ، وقام كل منهما للآخر بحقه ، وكفّ عنه شره ، أدّى ذلك إلى سعادة واستقرار وأمن في المجتمع . « وقد روي عن أبي هريرة أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة" ^(٤) .

(١) انظر : صحيح مسلم / ٢٥٨٠ و ٢٦٩٩ . رياض الصالحين : ص ١٢٤ (باب قضاء حوائج المسلمين) .

(٢) صحيح مسلم / ٢٦٩٩ . رياض الصالحين : ص ١٢٥ ، باب قضاء حوائج المسلمين ونفعهم .

(٣) صحيح مسلم / ٢٩٨٢ .

(٤) صحيح مسلم / ١٠٣٠ . قال الجوهري : الفرسن من البعير كالحافر من الدابة . قال : وربما استعير في الشاة . والمعنى : لا تمنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها ، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلاً كفرسن الشاة فهو خير من العدم . قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ رياض الصالحين / ٧٢ (باب بيان كثرة طرق الخير) .

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لعلكم تحصلون على سعادتي الدنيا والآخرة . « وإذا كان القرآن لم يستعمل كلمة (السعادة) في آياته ، فقد استعمل بدلاً عنها كلمة (الفلاح) ، وهي تعني الدلالة ذاتها . وقد ورد (الفلاح) في القرآن بمفاهيم ثلاثة : ١- التقوى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ البقرة / ١٨٩ .

٢- عمل الخير : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الحج / ٧٧ .

٣- ذكر الله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الجمعة / ١٠ .

وقد بنى الدكتور (حسن الشرقاوي) على ذلك نتيجتين هامتين ، وهما : ١- ليست السعادة مذهباً نظرياً ، ولا فكرياً بشرياً ، ولا لذة وقتية ، ولا تأملاً سلبياً ، وإنما السعادة في الأمن الداخلي للإنسان ، والسكينة للقلب ، والطمأنينة للنفس . وهذا لن يتحقق إلا بالإيمان بالله والعمل بقرآنه .

٢- ليست السعادة في الحصول على الملذات ، وممارسة الشهوات ، وليست في حياة التخيلات والأوهام . ليست في الهروب من مجاهدة النفس والتفوق في العزلة والابتعاد عن الجهاد ، وإنما السعادة في طاعة الله وإخلاص العمل له . وبذلك يأمن المسلم من الشر ، ويذهب عنه الخوف ، ويعيش الحياة الهائلة التي ارتضاها الله جل جلاله . . .»^(١) .

ويصح أن يكون معنى النداء : أدوا لله تعالى كل ما تعبدكم به ، وافعلوا الخير الذي كلفكم الله به تجاه خالقكم ، وتجاه أنفسكم ، وتجاه أمتكم ، إن كنتم ترجون الفوز والفلاح ويرشد إلى أن العبد ليس من شأنه أن يقطع بنتيجة في عمل من الأعمال التي كلفه الله بها ، بل عليه أن يحسن عمله ويرجو الله ويتوقع ما يؤمل من نتيجة صالحة .

« روي عن ابن عباس في شرحه لقوله تعالى ﴿ وافعلوا الخير ﴾ قال : صلة الأرحام ومكارم الأخلاق . وقيل : فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله ، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلقه ، ويدخل فيه البر

(١) علم النفس الإسلامي ، ص ١٠٥ .

والمعروف والصدقة وحسن القول وغير ذلك من أعمال البر. ^(١) .

ولئن كان هناك خلاف فقهي حول آية السجدة هذه، بحيث أخذ الشافعية من الأمر بالسجود فيها أن سجود التلاوة مطلوب لها كغيرها من بقية آيات السجود. وقال الحنفية: ليست آية سجدة ولهم استدلالاتهم أيضاً التي يمكن الرجوع إليها في كتب الفقه. إلا أن ما يستحسن الإشارة إليه هنا أن للسجود أهميته الكبرى وتعبيره العظيم أكان سجوداً في الصلاة أم سجوداً للتلاوة. وقد ورد في الحديث عن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل الصفة رضي الله عنه قال: «كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتية بوضوئه وحاجته، فقال: "سلني" فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: "أو غير ذلك؟" قلت: هو ذاك، قال: "فأعني على نفسك بكثرة السجود" ^(٢) .

فأعني، فيه إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم الطبيب الساعي في شفائه، والطبيب يحتاج لمساعدة المريض بتعاطيه ما يصفه ^(٣) . وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ عنك بها خطيئة" ^(٤) .

(١) تفسير الخازن: ٣ ص ٢٩٨.

(٢) صحيح مسلم/ ٤٨٨.

(٣) رياض الصالحين: باب المجاهدة، حديث ١٢، ص ٦٣.

(٤) المصدر السابق: ص ٦٣.

النداء السامع والخمسون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
النور/ ٢١

مرة أخرى يأتي النداء القرآني مذكراً للمؤمنين بضرورة الالتزام بالمنهج القرآني ، ومحذراً إياهم من اتباع وساوس الشيطان فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بوحداية الله الهادي إلى طريق الحق والصواب ﴿ لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ التي زينها لكم بإغراءات متنوعة الأشكال ، حسب الأزمان والأمكنة . ﴿ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ أي بالقبائح من الأقوال والأفعال التي تنكرها العقول السليمة ولا ترتضيها ، وأما النفوس الأمارة بالسوء والقلوب التي فيها زيغ فتسارع في الاتجاه نحوها .

ولتوضيح المعنى يرسم الله تعالى صورة شيطان يخطو ، « ويتبع الناس خطاه خطوة خطوة ، وكأنه دليلهم وقائدهم ، مع أنهم أجدر بهم أن ينفروا منه ، وأن يسلكوا غير طريقه المشؤومة . صورة مستنكرة ، ينفر منها طبع المؤمن ويرتجف لها وجدانه . . . وفي رسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين فيها ما يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية ، وإن الإنسان لضعيف معرض لنزغات الشيطان ، ووسوسته ، إلا أن يتداركه الله بلطفه ورحمته ، حتى يختار الإنسان طريق الله ويسير على منهجه ، ويخالف أوامر الشيطان وسبله التي تؤدي إلى

الهلاك»^(١).

هذا التنفير والتحذير جاء بأفصح عبارة وأوجزها ، ويشمل كل مكلف في أي وقت ومكان أن يتنبه إلى أساليب الشيطان . « قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : خطوات الشيطان ؛ عمله . وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن أكل طعاماً ، وسمّاه ، فقال : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشاً»^(٢).

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي لكن فضل الله ونعمته على المؤمنين تجعل الذين انضوا تحت لواء المنهج القرآني يتنبهون إلى نزغات الشيطان فتطهر نفوسهم وتزكو بالتوبة ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ من خلقه فيطهره من ذنبه برحمته تعالى طالما التجأ إلى الله واستغفره نادماً على ما قال أو أخطأ في حق الآخرين . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ فالله تعالى يعلم من يطلب الخير والهداية إلى صراطه المستقيم ، ومن يرغب في الشر ويسلك طريقه ، ويسمع كل ما يتكلم به الإنسان وما توسوس به نفسه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد . فبناء على علمه سبحانه يزكي من يستحق التزكية ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾

ولئن جاء هذا الخطاب إثر توبة الله تعالى على الذين خاضوا في حديث الإفك ، فأسأروا إلى شعور أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وشعور رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال بعض المفسرين ، إلا أن غالبية العلماء يرون أن النص يحمل معنى العموم ، فالحق أن من وقع فريسة ضعيفة بين النفس الأمارة بالسوء والشيطان ، لا يكاد يزكو لولا فضل الله عليه بالتزكية ، ومعرفة أن الإنسان نادماً على ما قال أو فعل دون قصد الفتنة أو الضلال . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ، ولما يجري منكم من خير أو شر ، فاجعلوا ما يسمعه منكم مما

(١) منهج سورة النور: ص ١٩٠ .

(٢) تفسير ابن كثير: سورة النور، آية: ٢١ .

ترجون به رحمته ، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بكل شيء من نيات تعقدونها على الخروج مما تورطتم به من المعاصي ، أو من رغبة في إشاعة الفاحشة أو كراحتها ، ومجازيكم بكل ذلك .

هذا ويستفاد من النداء بعد التحذير من العدو البعيد وهو الشيطان ؛ التحذير من العدو القريب وهو النفس . فالشيطان يأتي الإنسان الغافل من بين يديه ومن خلفه ، فقد عاهد الله على إغواء الإنسان وأن يخرق كل مسلك ، وقال : ﴿فَمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَا تَنَالُهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ _ الأعراف / ١٦-١٧ _ .

فالشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ، ويضخم من شأن أوليائه ، فيصور لمن اتبع خطواته أنهم يملكون النفع والضرر ليحقق بهم الشر في الأرض والفساد . والصاحب صاحب مصلحة في أن يتفشى الباطل ويتضخم الشر . فتحت ستار الخوف والرغبة وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أوليائه ما يقرّون به عيونه ، يقبلون المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ويخفتون صوت الحق دون أن يجرؤ أحد على الوقوف في وجههم . ومن هنا يكشف الله تعالى للمؤمنين هذه الحقيقة ليكونوا على حذر فلا يرهبوا أولياء الشيطان فقال : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . أما الخوف الذي يسبب خوراً في العزيمة وإحجاماً عن العمل بدلاً من اتخاذ الأسباب التي أمر الله بها إنما هو من نزغات الشيطان . والذي سيطر عليه الخوف من أعداء الله إنما سيطر عليه الشيطان . ولقد كان خوف الموت أول خوف ألقاه إبليس في قلب آدم عليه السلام وأثر به عليه . ثم اخترع لهم أنواعاً من الخوف تستدرجهم إلى مواضع الزلل وتجلب لهم الشقاء في الدنيا والآخرة . ومن أهم أنواع هذا الخوف : خوف الناس ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾ ، فلا تخافوهم وخافوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ _ آل عمران / ١٥٨ _ . فالخوف من الشيطان يورث الجبن ويجلب الذل والهزيمة . أما الخوف من الله فهو دليل الإيمان .

« الإيمان هو (المحرك الأول) لتحقيق التغيير باتجاه التقدم . والإيمان هو (قاعدة الانطلاق) أو الركيزة النفسية اللازمة للانبعاث والنهوض . والإيمان هو (القوة غير العادية)

الضرورية لمجابهة التحديات وتحقيق الأهداف . والإيمان هو (الحافز) الذي يدفع الناس نحو العمل لتحقيق الاحترام والكرامة . وينمي حوافز الخير وكراهية الشر . . . ولئن بدا للبعض في وقت ما _ في الشرق والغرب _ أنه لم يعد للإيمان الديني مكان في هذا العالم ، وأن عليه _ بالتالي _ الانسحاب نهائياً من الميدان لصالح العلم والتقانة والأديان الوضعية ، فقد تبين من الوقائع الحسية أن غياب (أو تغييب) الإيمان الديني قد أدى إلى فوضى شاملة ، وانعدام الوزن ، وفقدان الاتجاه . «^(١) .

إذن المؤمن لا يهاب الموت لإيمانه بأن الموت حتم مقدر في مواعده ، ولا علاقة له بالحرب والسلام ، ولا علاقة له بحصانة المكان .

وهناك الخوف من الفقر الذي يجعل الفقير أحياناً ذليلاً للغني مؤتمراً بأوامره مهما كان فيها إساءة له ولدينه ولوطنه ، قال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفَرَةً مِنْهُ وَقَضَاءً ﴾ البقرة / ٢٦٨ _ .

إنه النداء الذي يحذر من الشرك الذي نصبه الشيطان لاصطياد الغافلين ، والدعوة الواسعة إلى الدخول في حظيرة التزكية والتوبة ، والله سميع عليم .

(١) مدخل إلى نظرية الأمن والإيمان : ص ٢١٤ و ١٦١ .

النداء الثامن والخمسون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

—النور/ ٢٧—

الإسلام دين جاء بجميع الآداب والفضائل ، ونهى عن جميع القبائح والردائل ،
وحذر منها ارتفاعاً بخلق وسلوك المسلم . ولما كان الزنى طريقه النظر والخلوة والاطلاع
على العورات ، وكان دخول الناس إلى بيوت غير بيوتهم مظنة حصول ذلك كله ، جاء هذا
التوجيه بالطريقة الحكيمة التي يجب على المؤمنين اتباعها إذا أرادوا دخول هذه البيوت ،
حتى لا تقع أعينهم على عورات ، أو تلتقي بما يثير الشهوات ، فقد تنهياً الفرصة للغواية من
حصول اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة ،
تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى ، وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات ،
أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات .

من أجل كل هذا جعل الله تعالى البيوت حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله
وإذنهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ .
والاستئناس ؛ طلب العلم ، فالذي يريد أن يدخل بيت غيره وجب عليه أن يستأنس قبل
الدخول بأن يعرف إن كان أهل البيت يسمحون له بالدخول أم لا ، وهذا يعني ؛ الاستئذان
ومما يدل على أن المراد بالاستئناس ؛ الاستئذان ، قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ
الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فإن المراد بالذين من قبلهم هم المخاطبون في
هذا النداء .

« روي في سبب نزول هذه الآية أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ؛ إني أكون في بيتي على الحالة التي أحب أن لا يراني عليها أحد لا ولد ولا والد ، فيأتيني آت فيدخل عليّ ، فكيف أصنع ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ۖ ۝ الْآيَةُ ۖ وَكَلِمَةُ (بُيُوتًا) نَكْرَةٌ ، واقعة في سياق النهي ، فكانت في ظاهرها شاملة للبيوت المسكونة وغير المسكونة ، إلا أن مقابلتها بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ يقتضي حملها على المسكونة فقط . والبيوت المضافة إلى المخاطبين في قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ البيوت التي يسكنونها . فالمعنى : لا تدخلوا بيوتاً مسكونة لغيركم حتى تستأنسوا . . ويصح أن يكون الاستئناس مأخوذاً من الإنس ، وهو سكون النفس واطمئنان القلب وزوال الوحشة . فإن القادم على بيت غيره مستوحش لا يدري أيؤذن له بالدخول أم لا ، فعليه أن يستأنس أولاً . وذلك الاستئناس إنما يكون بالاستئذان .

وقيل : إن المراد بالاستئناس ؛ إعلام الطارق أهل البيت إعلاماً تاماً أنه قادم عليهم ويدل عليه ما روي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال : قلت يا رسول الله : ما الاستئناس ؟ قال : " يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ، يتنحج يؤذن أهل البيت ، والتسليم أن يقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟ ثلاث مرات ، فإن أذن له ، وإلا رجع " . وقيل : إن المراد بالاستئناس فعل ما يؤنس أهل البيت ويدفع عنهم الوحشة التي كانت تلم بهم لو لم يفعل ، كأن يسبح أو يكبر ، ومنه ما تعارفه الناس اليوم من دق الباب دقاً خفيفاً دلالة على طلب الإذن . فهذه معان أربعة للاستئناس . . فيكون تأويل الآية هكذا : لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا أهلها ويؤذن لكم . ويدل على هذا المضمهر قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ _ النور / ٢٨ . فلا بد قبل الدخول من الاستئذان والسلام معاً ، وعليه جمهور الفقهاء^(١) .

(١) تفسير آيات الأحكام : ٣ ص ١٤٥ .

وقد عبر القرآن الكريم عن الاستئناس تعبيراً لطيفاً يوحى بلطف الطريقة التي يجب أن تكون عليها الزيارة « فالاستئناس أفق فسيح رحب ، والاستئذان محدود ، وما الاستئذان إلا بعض الاستئناس . فتقديرنا للملاءمة الوقت باختيار أنسب الأوقات وأحبها لصاحب البيت الذي نرغب في زيارته ، أو عدم ملاءمته هو الاستئناس . وقد تعلم أن لدى صديقك ضيوفاً من أهله وذوي رحمه رجالاً ونساءً وهو معهم في جلسة (عائلية) ليقضي لهم من حق المؤانسة والمودة والقربى . فبصيرتك هي التي تنظر من بعيد تلك الاعتبارات الذوقية وترى أن الوقت غير مناسب . وقد تعلم أن لدى صديقك (هاتف) يمكنك أن تطلبه فيه ويحدد لك موعداً مناسباً لزيارته . . . »^(١) .

ومما جاء في كتب التفسير أن الرجل يجب أن يستأذن على امرأته وأمه وأخته قبل أن يدخل بيته . قال الإمام ابن كثير في الاستئذان على الزوجة : الأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحج أو يحرك نعليه . وقد جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يطرق الرجل أهله طروقاً ، وفي رواية : ليلاً يتخوتهم . « ويتأذن الرجل على أمه وعلى أخواته ، وإن كنَّ يقمن معه في بيت واحد ، وذلك على سبيل الوجوب . . . قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلم على أهلِكَ ، فهم أحق من سلمت عليهم ، فإن كان فيه معك أمك ، أو أختك ، فتتنحج واضرب برجلك تنبيهاً لدخولك ، فقد تكون الأم والأخت على حالة لا تحب أن تراهما فيها . . . »^(٢) . هذا حين يكون الإنسان مع زوجته وأمه وأخواته ، فكيف يكون حين يريد الدخول على غيرهن من الأقارب والأبعاد ؟ .

هكذا نهى الإسلام عما كان سائداً عند العرب في الجاهلية من الدخول بغير إذن . ثم

(١) منهج سورة النور : ص ٢١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير : سورة النور ، آية ٢٧ (٣/ ٢٣٠) .

خاطب المؤمنين بالسلام بعد الاستئناس بقوله : ﴿ وَتَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ ففي الاستئذان والتسليم ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من تحية الجاهلية فتسبق العين إلى ما لا يحل النظر إليه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أن الأدب الذي أرشدكم الله إليه هو لما فيه خير لكم ولدرء ما يمكن أن يوسوس به الشيطان .

« سئل بعض العارفين بالله : ما سبب الذنب ؟ قال : سببه ؛ النظرة ، ومن النظرة الخطرة ، فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت ، وإن لم تدركها امتزجت بالوساوس فيتولد منها الشهوة ، فإن تداركت الشهوة ، وإلاّ تولّد منها الطلب ، فإن تداركت الطلب ، وإلاّ تولّد منه الفعل »^(١) .

(١) الوصايا لابن عربي ، ص ١٧٩ .

النداء التاسع والخمسون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدُهَا طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

— النور/ ٥٨ —

الإسلام منهاج حياة كامل ، ينظم حياة الإنسان في كل مراحلها وارتباطاتها ، ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة ، وينسق بينها جميعاً . وفي هذا النداء نموذج من ذلك التنسيق . فبعد أن نهى سبحانه في نداء سابق عن دخول الأجانب إلى البيوت إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها ، لما في ذلك من أثر كبير في المجتمع الإسلامي بصيانة الآداب ومنع القيل والقال . جاء هذا النداء ليبين أحكام الاستئذان داخل البيوت ، موضحاً حكم الجماعة الذين تجمعهم دار واحدة ، فقد يكون مع المرء في داره فئة ممن تربطهم به رابطة المعيشة كأعضاء أسرته ، وقد تستخدم الأسرة بعض الأشخاص لتأمين حاجيات المنزل أو لتربية الأطفال ، كما كانت الأسرة في العصر الأول تضم بعض المماليك . ومثل هؤلاء تقتضي شؤون الحياة أن يختلط بعضهم ببعض اختلاطاً متكرراً ، فلا يتحاشى بعضهم أن يدخل على بعض دون استئذان .

« روي أن أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها غلام كبير لها في وقت كرهت دخوله فيه فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلما ننا يدخلون علينا في حال

نكرها، فنزلت هذه الآية . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضي الله عنه غلاماً من الأنصار ، فدخل و عمر نائم وكان شيئاً كشف من جسده ، فكره ذلك وقال : (وددت لو أن الله عز وجل نهى آبائنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الأوقات إلا بإذن) . فانطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية ، فخرّ ساجداً شكراً لله . وهذه إحدى موافقات رأي عمر للوحي . فإذا صح أن سبب النزول قصة أسماء المتقدمة كان قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاباً للرجال والنساء بطريق التغليب ، لأن دخول سبب النزول في الحكم قطعي كما هو الراجح في الأصول . ﴿ لَيْسْتَ أَذُنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ظاهر الأمر فيه للوجوب ، وبهذا قال بعض العلماء . ولكن الجمهور على أنه استحباب وندب ، وأنه من باب التعليم والإرشاد إلى محاسن الآداب . وكلا القولين يدل على أن حكم الاستئذان في الأوقات الآتية غير موقت بوقت قد انتهى بحجة أن بيوت العصر الأول لم يكن لها أبواب . ولما أخرجه أبو داود عن عكرمة قال : (إِنَّ نَفْرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا لابن عباس : كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا بها ولا يعمل بها أحد ؟ فقال ابن عباس : إن الله حلّيم رحيم بالمؤمنين يحب الستر ، وكان ليس لبيوتهم ستور ولا حجاب ، فرمى دخل الخادم أو الولد أو الرجل على أهله ، فأمرهم الله تعالى بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم الله بالاستور وبالخير فلم أر أحداً يعمل ذلك بعد) . وظاهر قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ كناية عن أنهم قصرُوا عن درجة البلوغ ولم يصلوا حد التكليف . فالكلام مستعمل في لازم معناه ، لأن الاحتلام أقوى دلائل البلوغ (وفي هذا خلاف فقهي) .^(١) . ويلاحظ أن هذا الأمر موجه للمخاطبين . فهم أمروا أن يأمرُوا صبيانهم أو ممالئهم بالاستئذان . وهذا

(١) تفسير آيات الأحكام : ٣ ص ١٧٩-١٨٠ .

من باب التأديب و التعليم . ومثله ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : "مُرُوا أَوْلَادَكُمْ
بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ . . ." (١)

وعلى الجملة فال المطلوب منه الاستئذان هو المملوك أو الصبي ، وكون الصبي غير
مكلف لا يمنع أن يعود له وليه هذه الآداب . ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي في ثلاث أوقات في اليوم :
الوقت الأول : ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم
ولبس ثياب اليقظة ، وذلك مظنة انكشاف العورة .

والوقت الثاني : ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ﴾ لما يمكن أن يتجرد المرء من
ثيابه لأجل القيلولة .

والوقت الثالث : ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لما يمكن أن يتعاطى المرء فيه مقدمات
المباشرة أو تبديل ثياب اليقظة .

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ وهذا بيان لحكمة التشريع ، حتى يدعوهم ذلك إلى العناية
بالامثال ، وتربى في نفوسهم ملكة الاقتناع بالأحكام «بل الاغتياب بها ، واعتقاد أنها
شرعت لمصلحتهم ورحمة بهم ، والعورات ؛ جمع عورة ، وهي في الأصل من العار وهو
العيب ، سمي به كل ما يكره الإنسان أن يطلع عليه غيره ويسوء كشفه . ومنه عورة المكان
لما اختل منه . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ فلا حرج في اللقيا فيما
عدا هذه الأوقات ، فإن المرء إذا كان في داره لم يلتزم مكان خلوته الخاصة لا يسوؤه أن
يلقاه أحد من أهل بيته بلا استئذان . وفي تكليف أعضاء الأسرة الواحدة _ ومن في
حكمهم _ الاستئذان في كل مقابلة حرج ومشقة لا تحمل . . . وفي قوله تعالى :
﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ تعليل الإباحة وعدم الحرج وبيان لوجه الترخيص فيما عدا تلك
الأوقات . فهم بصدد مخالطتكم والمداخلة معكم في شؤون الحياة ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾
زيادة في بيان ما تدعو إليه الحاجة ، وتأكيد لحكمة نفي الحرج عنهم . أي أن كلا منكم لا

(١) الجامع الصغير : ٨١٧٤ و سنن أبي داود : ٤٩٥ .

يستغني عن مخالطة صاحبه . وكأن في قوله هذا تسلية للمالك والخدم بأن المعاونة في الحياة أمر مشترك بينهم طبيعة» (١) .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ مبيّنة واضحة الدلالة على معانيها ، وما قصد منها من أحكام شرعية . وهذه هي عادة الله في آياته كلها يبيّن بها البيان الشافي لقوم يعقلون ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ علماً شاملاً لكل ما يصلح لكم وما لا يصلح لكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يشرع لكم من الأحكام ما يناسبكم وما يكفل لكم السعادة في الدارين .

وترشدنا الآية إلى أن من لم يبلغ وقد عقل ؛ يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح على وجه التأديب والتعليم ، وليعتاده ويتمرن عليه ليكون أسهل عليه عند البلوغ . قال تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ روي في تفسيرها : أدّبوهم وعلموهم . فقد جاء في الآية التالية للنداء : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وبالتوجيه الذي أشرنا إليه يكون الأطفال قد اعتادوا على الاستئذان وفق أوامر الشريعة .

(١) منهج سورة النور : ص ٣٨٤-٣٨٥ .

النداء السنون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

الأحزاب/ ٩

إنه النداء الذي يذكر بنعم الله التي أنعمها على عباده . ويخبرهم عن النعمة التي قد لا تخطر على بال المؤمنين حين أحسن إليهم في صرف أعدائهم الذين تجمعوا من أنحاء متفرقة لمحاربة المسلمين ، فكان من فضل الله أن هزم الأحزاب التي تألّبت عليهم ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بأن الله ينصر من يشاء من عباده الذين آمنوا وصدقوا رسوله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التي أنعمها عليكم يوم الأحزاب ، وهو يوم الخندق في شوال من عام خمس للهجرة ، أي بعد معركة أحد بسنة على الصحيح المشهور ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتآلبهم عليكم « قال أبو السعود : والمراد بالجنود الأحزاب ، وهم قريش ، وغطفان ، ويهود قريظة وبنو النضير ، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة (سلمان الفارسي) ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فحضر معسكره والخندق بينه وبين المشركين . واشتد الخوف ، وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق في المنافقين حتى قال معتب بن قشير يعدنا محمد كنوز كسرى ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط» .^(١)

(١) صفوة التفاسير: ٢ ص ٥١٤ . (نقلا عن أبو السعود ٣٠٤ / ٤) .

﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ وهي ريح الصَّبَا ، إذ ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال : "نصرت بالصَّبَا ، وأهلكْتُ عادٌ بالدَّبُور" ^(١) .
﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة . وجاء في التفسير أن الملائكة لَمْ تقاتل يومئذ ، فبعث الله عز وجل تلك الليلة ريحاً باردة ، فقلعت الأوتاد ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم ، حتى كان سيد كل حي يقول : يا بني فلان ؛ النجاء ، النجاء ، هلموا إليّ ، فإذا اجتمعوا عنده ، قال : النجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال ، لما بعث الله عليهم من الرعب .

﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ أي بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخذق والثبات على معاونة النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم ، وبصير بما يعمل الكفار من البغي والسعي في إطفاء نور الله . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد نصر المؤمنين الذين التجؤوا إليه وخرجوا في سبيل إعلاء كلمته ، فكانت هزيمة المشركين بدون قتال . فقد هُزم المشركون بوسيلتين لا دخل للمسلمين فيهما :

- الوسيلة الأولى ؛ أن رجلاً من المشركين واسمه (نُعيم بن مسعود) أتى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فأمرني بما شئت . فقال صَلَّى الله عليه وسلَّم : "إنما أنت رجل واحد فينا ، ولكن خَذَلْ عَنَّا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة" . فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية ، فقال لهم : قد عرفتم ودي وإياكم وخاصة ما بيني وبينكم . . وأقنعهم أن لا يورطوا مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن كي لا يولّوا الأدبار ، فييقون وحدهم في المدينة دون أي نصير لهم على محمد وأصحابه . . فقالوا له : لقد أشرت برأي ونصح . ثم خرج حتى أتى قريشاً فأنبأهم أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا ، وأنهم قد اتفقوا خفية مع الرسول على أن يختطفوا عدداً من أشراف قريش وغطفان فيسلموهم لهم

(١) أنظر البخاري ، كتاب ٦٣ ، باب ٩ ، حديث : ٣١٦٥ .

ليقتلوهم ، فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فيياكم أن تسلموهم رجلاً منكم . ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل الذي قاله لقريش ، وحذرهم مثل حذرهم . « أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة أن اغذوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : إن اليوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، فإننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد . فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم به نعيم لحق . . . وهكذا تألب بعضهم على بعض وأصبح كل فريق يتهم الفريق الآخر بالغدر والخيانة . . . » ^(١) .

- الوسيلة الثانية ؛ ربح هوجاء مخيفة أرسلها تعالى في ليلة مظلمة باردة فقلبت قدورهم ، واقتلعت خيامهم ، وذلك بعد بضعة عشر يوماً من المحاصرة التي ضربها المشركون على المسلمين ، فولّوا الأدبار . وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم و صحبه إلى المدينة مؤيداً بنصر الله . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة هذه الأيام لا يفتر عن الدعاء إلى الله تعالى أن يؤتي المسلمين النصر ويقول في دعائه : " اللهم منزل الكتاب ، سريع السحاب ، اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم " ، أو : " وانصرنا عليهم " ^(٢) .

أهم ما يرشد إليه النداء : ١- أن النصر بيد الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم . ينصر عباده الذين التجؤوا إليه وتوكلوا عليه بعد أخذهم الأسباب اللازمة . فالخروج لملاقاة العدو ، وحفر الخندق ، ومساهمة الرسول في الحفر ، واستشارته لأصحابه ، كل ذلك من الأسباب ، ثم جاء التضرع إلى الله والاتكال عليه ، وإلاّ فمن أين جاءت الريح ؟

(١) انظر تفسير الخازن : ٣ ص ٤٥٤-٤٥٧ .

(٢) البخاري : ٢٧٧٥ و ٢٨٠٤ ، ومسلم في الجهاد والسير : ١٧٤٢ .

- ٢- قامت الغزوة على أساس من غدر اليهود وكيدهم ، فهم الذين ألبوا وجمعوا
الجموع والأحزاب لحرب المسلمين .
- ٣- ضرورة إعمال الفكر ؛ مثل حفر الخندق الذي كان من جملة الوسائل التي
استعملها المسلمون لأول مرة . والخدعة التي استغلها نعيم بن مسعود .
- ختاماً لا بد من تذكّر نعم الله على الإنسان في شتى المناسبات ، وفي تذكّرها دافع
لشكر ، وبالشكر تدوم النعم .

النداء الحادي و السنون: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

الأحزاب/ ٤١

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ _الأعراف/ ٢٠٥_ . قال ابن عباس : لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ، ثم عذر أهلها في حال العذر ، غير الذكر ، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله ، وأمرهم به في الأحوال كلها ، فقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ كما قال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ . وقيل في معناها : « تاملوا في الآيات الدالة على قدرتي وعظمتي في كل ما هو مشاهد لكم من الأشياء ، لتعترفوا لي بتوحيد الربوبية ، أسهل لكم سبيل الاستفادة من جميع المخلوقات بما أهب لكم من قوة الفكر وحسن التدبير وإسباغ النعم عليكم . . . » ^(١)

وفي هذا النداء يحض الله المؤمنين على الإكثار من الذكر والتسبيح بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ أي اذكروه في الليل والنهار والسر والعلن . « يرى ابن عطاء الله الاسكندري (وهو من أكابر الصوفية الأولين) أنه لا ينبغي للمرء أن يترك الذكر . قال رحمه الله : (لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، فإن غفلت عن وجود ذكره أشد من غفلتك في ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة ، إلى ذكر مع

(١) تفسير الخطيب، ج ٢، ص ١١ .

وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع رغبة عما سوى المذكور ، وما ذلك على الله بعزير) . وقد علق الأستاذ محمد الغزالي على هذه (الحكمة العطائية) قائلاً : يرى ابن عطاء الله أنه لا ينبغي للمرء أن يترك الذكر ولو كان قلبه مشغولاً ، فإن إصراره على الذكر سوف يترقى به إلى أعلى المراتب . وقد روي عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً سأله : أي المجاهدين أعظم أجراً ؟ قال : " أكثرهم ذكراً لله تبارك وتعالى " . قال : فأبي الصالحين أعظم أجراً ؟ قال : " أكثرهم لله ذكراً ، ثم ذكر الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصدقة ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً " . فقال أبو بكر رضي الله عنه لعمر : يا أبا حفص : ذهب الذاكرون بكل خير . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " أجل " ^(١) .

وكما أمر الله تعالى عباده بالذكر بعد الصلاة بقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾ _ النساء / ١٠٣ _ ، كذلك أمرهم بالذكر بعد أداء فريضة الحج فقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ _ البقرة / ٢٠٠ _ ونلاحظ في هذه الآية كيف عقب الله تعالى بالذكر ما يكون من الناس في الدعاء ، ولكنه تعالى عرض لنا قسمين من الناس ؛ قسم يقصر دعاءه على أمور الدنيا والاستزادة من خيراتها ويسكت عن الآخرة . وقسم يحرص على طلب خيري الدنيا والآخرة : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ _ البقرة / ٢٠١-٢٠٢ ، فهؤلاء سيؤتيهم نصيبهم غير منقوص ، لقوله : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ _ غافر / ٦٠ _ « والدعاء فطري في الإنسان حيث يشعر بحنين إلى خالقه ، يفرغ إليه عند الشدائد ، وهو علاج نفسي . فالإنسان يحتاج في حل مشكلاته ليفضي

(١) الحب بين العبد والرب : ص ٢٥-٢٦ . والحديث في مسند أحمد / المجلد ٣ .

بدخيلة نفسه إلى غيره، فيخف حزنه وهمّه، لأن كتمان ما يشغله يزيد في مرضه . والدعاء يكون في السرّاء والضراء، وهو سمورٌ روحيّ، وترقّع عن الشهوات ومحو الخوف والوصول إلى راحة النفس»^(١).

وجمهور العلماء على أن الدعاء أهم مقامات العبودية، والأدلة عليه كثيرة، ذكرنا بعضاً منها أعلاه، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة/ ١٨٦. ومنها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ". وللدعاء - كما يقول ابن عطاء الله - أركان وأجنحة، وأوقات، وأسباب: «فأركانه حضور القلب مع الله تعالى، والخشوع لله، والحياء من الله، ورجاء كرم الله. وأجنحته؛ الصدق، وأكل الحلال. وأوقاته؛ أوقات الفراغ، والخلوة بالأسفار. وأسبابه؛ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. فإن الدعاء لا يُردُّ إذا كان قبله وبعده الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم»^(٢). وقيل: من آداب الدعاء: رفع الأيدي بالدعاء، واستقبال القبلة، وخفض الصوت، والحزم، والخشوع.

أما الأمر الثاني في هذا النداء الإلهي: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي إذا ذكرتم الله أيها المؤمنون ينبغي لكم أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء. وفي هذا الأمر إشارة إلى المداومة على هذا التنزيه والتسبيح، لأن ذكر الطرفين: (بكراً وأصيلاً) يفهم منه الوسط أيضاً.

وقد جاء في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَبَّحَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمْدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَخَتَمَ الْمَائَةَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا

(١) علم النفس الإسلامي: ص ١٢٢.

(٢) نزهة المجالس: ص ٢٠٦.

شريك له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، غُفرت خطايه وإن كانت مثل زبد البحر". (١).

وجاء أيضاً : "كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ؛ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم" (٢).

إذن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والآثار في الحث على ذكر الله وتسييحه كثيرة ، أختتم هذا البيان بآية وحديث .

قال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ طه/ ١٣٠ .

وقال عليه الصلاة والسلام : " لئن أقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس " (٣).

ولتعلم يا أخي القارئ أن أعلى درجات الذكر : تلاوة القرآن ، والتلاوة غاية في ذاتها . والمقصود بالتلاوة قراءة تثبت ، وتمهّل ، وتأمل ، فعند الوصول إلى ذكر الله تستشعر بقلبك عظمة الله ، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل الاعتبار ، فيستتير القلب بنور معرفة الله وذكره ، والله أعلم .

(١) انظر الروايات المماثلة في: البخاري/ ٣١١٩ ، ومسلم/ ٢٦٩١ .

(٢) البخاري ٦٠٤٣ و ٧١٢٤ .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم/ ٥٩٧ .

النداء الثاني و السنون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

الأحزاب/ ٤٩

لا خلاف بين العلماء بأن المراد بالنكاح هنا : العقد ، واتفقوا على أن المراد بالمس هنا ليس المس حقيقة وهو إلصاق اليد بالجسم ، وإلا لزمّت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسّها بيده من غير جماع ولا خلوة . بل المراد بالمس ؛ الجماع ، لشهرة الكناية به وبالمماسّة والملاسة ونحوها عن الجماع في لسان الشرع .

والعدة شرعاً ؛ المدة التي تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها من الحمل أو للتعبّد أو للتفجّع على زوج مات . ومعنى تعتدونها ؛ تعدونها عليهن ، أو تستوفون عددها عليهن . والعدة لا تجب إلا بعد الخلوة .

والمتعة في الأصل ؛ الاستمتاع ، وما يتمتع به . وفي لسان أهل الشرع ؛ مال يدفعه الرجل للمرأة عند مغادرة بيت الزوجية لطلاق أو تفريق . ولا فرق بين أن يكون المال نقداً أو ثياباً . غير أن الفقهاء يحددونها بدرع وخمار وملحفة ، وليس هذا إيجاباً لكون المتعة ثياباً ، بل لأنه الشائع المتعارف ، فلو أعطّاها الزوج نقداً أو مالاً غير الثياب كان ذلك جائزاً بل نصوا على أن الزوج لو دفع لها قيمة المتعة أجبرت على القبول ، كما نصوا على أن المعتبر في المتعة عرف كل بلد فيما تكتسي به المرأة عند الخروج . والمعتبر في تقدير المتعة أن تكون

بحسب حال الزوج . وفي حال الغنى أو الفقر يشترط أن لا تزيد عن مهر المثل . وتستحب فيما عدا ذلك من أنواع الطلاق ، وذلك فيما إذا طلقها قبل الدخول وقد سمي لها المهر ، أو طلقها بعد الدخول سواء سمي لها المهر أم لا ، وهذا عدا ما يجب لها من كمال المهر أو نصفه في حال تسمية المهر . والأصل في المتعة قوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَتَعَوُّهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة / ٢٣٦ - (١) .

والمقصود بقوله : (وسرّحوهن) تركهن وعدم حبسهن في منزل الزوجية ، إذ لا سبيل للرجال عليهن بعد طلاقهن . والسراح الجميل يكون بمجاملتهم بالقول اللين ، وترك أذاهن ، وعدم حرمانهن مما وجب لهن من حقوق .

وهكذا يكون المعنى المقصود من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ إذا جرى عقد النكاح ثم حدث الطلاق من قبل خلوة أو جماع ﴿ فَمَا عَلَيْكُمْ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ فلا تعتد المطلقة التي طلقت قبل الدخول ، أي جرى فسخ عقد الزواج قبل الدخول . وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ؛ أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها ، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرا .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَعَوُّهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴾ فالمتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها . وبهذا الظاهر كان يقول الحسن وأبو العالية . « وقد أخرج عبد بن حميد عن الحسن أن لكل مطلقة متاعاً سواء أدخل بها أم لم يدخل ، وسواء فرض لها أم لم يفرض . وظاهر هذه الرواية الوجوب في الكل عملاً بظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة / ١٤١ . ولكن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ

(١) انظر : شرح قانون الأحوال الشخصية ، د. مصطفى السباعي ، ج ١ ، ص ٢١٧ و ٢١٨ .

ما فرضتم ﴿ البقرة/ ٢٣٧ _ فهو كما ذكرنا في تعريف المتعة لم يجعل الله للتي طلقت قبل الدخول وقد فرض لها مهر إلا نصف ما فرض لها ، ولم يجعل لها متعة ، لأن وروده في مقابلة ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . . . ﴾ يجعله كالبيان المفهوم القيد الذي هو عدم الفرض ، فيكون كالصريح في أن التي طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر ليس لها متعة وقد علم أن ظاهر الآية التي معنا يوجب لها المتعة فكان بين الآيتين تعارض في ظاهرهما . وللعلماء في دفع هذا التعارض طرق ، فمنهم من جعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب التي معنا أو ناسخة لعمومها . ويكون المعنى : فمتعوهن إن لم يكن مفروضاً لهن في النكاح فوجوب المتعة الاستفادة من قوله تعالى : ﴿ فمتعوهن ﴾ خاص بمن لم يفرض لها من المطلقات قبل الدخول دون من فرض لها . وبهذا قال ابن عباس ، وهو مذهب الحنفية والشافعية . ويؤيد ذلك أن المتعة إنما وجبت للمطلقة لإيحاش الزوج إياها بالطلاق . فإذا وجب للمطلقة قبل الدخول نصف المهر كان ذلك جابراً للإيحاش فلم تجب لها المتعة»^(١) .

جاء في تفسير القرطبي ما يلي : « ١ - المطلقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك . فإن دخل بها فعليها العدة إجماعاً .

٢ - النكاح حقيقة في الوطء . ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد ، وهو من آداب القرآن .

٣ - استدل بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ ثم طلقتموهن ﴾ على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح .

(١) انظر تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ٢٠ ، وهناك آراء للعلماء لدفع التعارض يمكن الرجوع إليها في كتب الفقه أيضاً .

٤- هذه الآية مخصصة لقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ البقرة/ ٢٢٨ ، ولقوله أيضاً : ﴿وَاللَّائِي يَئْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ الطلاق/ ٤ .

٥- قوله تعالى : ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ فيه وجهان : أحدهما ؛ أنه دفع المتعة بحسب الميسرة والعسرة . والثاني ؛ أن طلاقها طاهراً من غير جماع . وقيل : فسرحوهنَّ بعد الطلاق إلى أهلِهِنَّ ، فلا يجتمع الرجل والمطلقة في موضع واحد . انتهى كلام القرطبي .

النداء الثالث و السنون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَازِلٍ مِنْ إِيَّاهُ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنَكَحُوا أزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾

—الأحزاب/ ٥٣—

هذا النداء يتضمن توجيهين رئيسيين :

— التوجيه الأول : ما يجب أن يتحلى بها المسلمون من أدب حين يدعون إلى

طعام من الاستئذان وعدم الإثقال . وقد اتفق جمهور المفسرين على أن هذا التوجيه نزل في شأن وليمة (زينب بنت جحش) لما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أخرج أحمد والشيخان وابن جرير والبيهقي وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب ، دعا القوم ، فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا كان يتهيأ للطعام ، فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام ، وقعد ثلاثة ، ثم انطلقوا ، فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم انطلقوا ، فجاء حتى دخل ،

وذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بيني وبينه ، وأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ . . ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ^(١) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيدخلون عليه قبل الطعام قبل أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ أي يحظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن كما كانوا يصنعون ذلك في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام ، فأمرهم بأن لا يدخلوا بيوت النبي « المقصود ؛ بيوته التي أعدها لسكنى أزواجه المتعددات . وقد نهى الله المؤمنين أن يدخلوا هذه البيوت إلا دخولاً مصحوباً بالإذن . والاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي لا تدخلوا في حال من الأحوال إلا حال كونكم مصحوبين بالإذن لكم . والمسألة خلافية من خلافات النحاة والأشهر أنه لا يجوز . وقوله تعالى : ﴿ إِلَى طَعَامٍ ﴾ أي لا ينبغي الدخول للطعام إلا بدعوة إليه وإن وجد صريح الإذن بالدخول ، ﴿ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ ﴾ إنى الطعام ؛ نضجه ، أي لا تدخلوا في حال من الأحوال إلا حال الإذن لكم غير منتظرين النضج أو وقته (وهنا خلاف بين النحاة) ولكن المهم أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل في وقت الطعام من غير سابق دعوة ، وكانوا يسمّون الثقلاء ، من أجل ذلك يكون المراد نهيمهم عن أن يدخلوا فجأة ، أو يدخلوا ويتنظروا وقت الطعام وساعة أكله . . » ^(٢) ، ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ أي ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ، ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ وهذا أمر بخروج الجميع بعد الإطعام . روى أبو هريرة عن النبي صلى

(١) هذه الرواية ذكرها ابن كثير ، والحاظن ٤/ ٤٧٦ ، والقرطبي ١٤/ ٢٤ ، وغيرهم .

(٢) تفسير آيات الأحكام : ٤٠/ ٤ .

الله عليه وسلّم قوله: "لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إليّ كراع لقبلت" ^(١) . فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض . ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أي لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضهم بحديث بعض كما فعل أصحاب الرسول الذين استرسل بهم الحديث في وليمة زينب ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ أي إن صنيعكم هذا يؤذي الرسول ويضايقه ويثقل عليه ، ويستحيي من إخراجكم ، وهو شديد الحياء: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه .

- التوجيه الثاني : موضوع الحجاب ؛ قال أكثر المفسرين : « هذه الآية مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ، كما ثبت في الصحيحين عنه أنه قال : وافق ربي عز وجل في ثلاثة ، قلت ؛ يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . وقلت : يا رسول الله ؛ إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلّم لما تملأن عليه في الغيرة ؛ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكُن ، فنزلت كذلك وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر ، وهي قضية رابعة . وروى البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه قال : يدخل عليك البرّ والفاجر ولو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . » ^(٢) . وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب . وقيل : المتاع ؛ ما يستمتع به حسيّاً كالماعون ، أو معنويّاً كتعرف الأحكام . وقال الطبراني : الصواب أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا ، وأن في هذه الآية

(١) البخاري: ٢٤٢٩ و ٤٨٨٣ . وأخرجه الترمذي عن أنس برقم ١٣٥٣ وقال : حسن صحيح .

(٢) ابن كثير ، ج ٢٢ ، سورة ٣٣ ، آية ٥٣ .

دليل على أن الله أذن في مسألتهم من وراء حجاب في حاجة تعرض ، أو مسألة يستفتين فيها ، « ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى ، فلا يجوز كشف شيء من جسدها إلا الحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعين كون الجواب عندها . قال القاضي عياض : فرض الحجاب بما اختصصن به فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين ، فلا يجوز كشف ذلك في شهادة ولا غيرها . »^(١) . ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي ذلك أنفى للريبة ، وأبعد للتهمة ، وأقوى في الحماية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ والمعنى أنه لا يكون من شأن المؤمنين أن تقع منهم أذية للرسل أي كان نوعها سواء كانت من النوع الذي ذكر في الآية مما يتصل بالبيوت أم من غيرها . وهذا التعميم يرشد إليه إطلاق الفعل (تؤذوا) فدل ذلك على أن شأن المؤمنين ألا يكون منهم للرسل إلا ما يكون إكراماً وشكراً على ما أسدى إلى الأمة من خير . ﴿وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زَوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ أي ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبداً ، لأنهن كالأمهات لكم وهو كالوالد ، فلا يجوز أن تؤذوه في نفسه أو في أهله ، وامتهان فراش رسول الله من أكبر الأذى ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إيذاء الرسول ونكاح أزواجه من بعده ، أو مخالفة هذا الأمر الإلهي تعتبر مخالفة عظيمة ، فكونوا على تمام اليقظة والحذر أيها المؤمنون ، والله أعلم .

(١) التفسير المنير: ج ٢٢ ص ٩٤ .

النداء الرابع والسنون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ .

الأحزاب/ ٦٩

نداء الله تعالى إلى عباده الذين آمنوا يوجههم فيه إلى أن طاعة الله ورسوله سبيل
النجاة ، إذ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا ﴾ في تعاملكم مع نبيكم محمد صلى الله عليه
وسلم ﴿ كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ وهم اليهود الذين لم يقيموا حرمة للأنبياء ، فقتلوا بعضاً
منهم ، وكالوا الاتهامات للبعض الآخر ، ومنهم الذين اتهموا موسى بقتل أخيه هارون ،
ومنهم من اتهموه بأن في جسده عيباً ، أو اتهموه بالفاحشة .

« قال الرازي : وبالجملّة ، الإيذاء المذكور في القرآن كاف ، وهم أنهم قالوا له :
﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ _المائدة/ ٢٤_ وقولهم : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ
جَهْرَةً ﴾ _البقرة/ ٥٥_ وقولهم : ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ _البقرة/ ٦١_ إلى غير ذلك
فقال للمؤمنين : لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القتال . أي
لا تقولوا : اذهب أنت وربك فقاتلا . ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه ، وإذا أمركم الرسول
بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(١) .

(١) التفسير المنير: ج ٢٢ ص ١٢١ ، عن تفسير الرازي ٢٥/ ٢٣٣ ، والجملّة الأخيرة حديث رواه
البخاري/ ٦٨٥٨ ، و مسلم/ ١٣٣٧ ، عن أبي هريرة ، و يلفظ : " وما أمركم به فأتوا منه ما استطعتم " .

﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أي من كثير من التهم الباطلة ، منه أنه وضع ثوبه على حجر ليغتسل ، فطار الثوب على الحجر ، حتى استقر أمام ملاء من بني إسرائيل ، فأدركه موسى ، فأخذ ثوبه فاستتر به ، فأرأوه ولا أدرة به ، وهي نفخة في الخصىة ، ﴿وكانَ عندَ الله وحيها﴾ ذا قرينة ووجهة . وقال ابن عباس : كان حظياً عند الله لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه . وقيل : كان مستجاب الدعوة . وقيل : لم يسأل شيئاً إلا أعطاه الله . ولكن منع الرؤية لما يشاء الله عز وجل . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله فقال : ﴿ووهبنا له مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ - مريم / ٥٣ .
ومع كل ما ذكر فإن الخطاب يمكن أن يكون للمؤمنين عامة بأن لا يتبعوا سبيل بني إسرائيل في ذلك . وعليهم أن يحيطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعاية والحب ، ويدافعوا عنه وعن أفعاله وأقواله وسنته . وعليهم أن يذكروا دائماً أن هذا رسول الله ، وطاعته طاعة لله ، وإغضابه إغضاب لله تعالى .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : لما كان يوم حنين أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً في القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشرف العرب وآثرهم في القسمة . فقال رجل : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله . فقلت : والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأتيته ، فأخبرته بما قال فتغير وجهه ثم قال : " فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله " ، ثم قال : " يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر " ^(١) .

وهكذا لم تقتصر عناية القرآن وتحذيره على فئة من الناس دون فئة .

« نهى الله المؤمنين من التشبه ببني إسرائيل في إيذائهم نبيهم موسى عليه السلام . ومظاهر إيذاء محمد صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام مختلف فيها ، فقليل إن

(١) صحيح مسلم / ١٠٦٢ ، وروي من وجوه أخرى .

أذيتهم محمداً صلى الله عليه وسلم قولهم : زيد بن محمد ، أو أنه قسم قسمة ما أريد بها وجه الله . . . وأما أذية موسى عليه السلام فقال ابن عباس وجماعة : هي اتهامه بالأدرة ، كما تقدم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : آذوا موسى بأن قالوا : قتل هارون ، مع أنه مات في جبل سيناء بعد خروج موسى وهارون من التيه (قلب شبه جزيرة سيناء) . وقيل : إن أذية موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون . وقيل : بغير ذلك . وقال القرطبي : والصحيح ؛ الأول ، ويحتمل أن يكونوا فعلوا ذلك كله ، فبرأه الله من جميع ذلك .^(١)

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٤٨٠ ، و التفسير المنير: ج ٢٢ ص ١٢٢ .

النداء الخامس و السنون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

الأحزاب/ ٧٠

سبق لنا أن عرفنا (التقوى) لغة وشرعاً ، وقد أتينا على شرح معناها وثمراتها ^(١) ، ونضيف هنا ما يلي :

« التقوى ؛ هي أثر الإيمان الكامل بالله ، وهي النتيجة الطبيعية التي يصل إليها كل من يؤمن بأن الله خلقه وأبدع كل دقيقة في جسمه ، قادر على تعذيبه عاجلاً أو آجلاً إذا هو أقدم على معصيته واستهان بأوامره . كما يوقن بعلمه تعالى بكل شيء يصدر عنه بحيث يتصوره مشرفاً عليه حتى في خلواته ، ورقياً على جميع حركاته وسكناته ، فيحمله هذا على محاسبة نفسه عن كل فعل ، فلا يقدم على أي أمر فيه معصية خالقه أو الإضرار بمصالح عباده ، وفي هذا المعنى يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ _الأعراف/ ٢٠٠_ . وفي هذا إشارة إلى أن التقوى من الأمور التي يشعر بها الإنسان في نفسه فيدرك مبلغ قربه من ربه . ويقول تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ _آل عمران ٣٢-٣٣_ . وهذا صريح في أن التقوى ليست بكثرة الصلاة والصوم ، ولا بالتقشف والدروشة ، وإنما تنحصر بخمس خصال :

١- حب البذل والإنفاق في سبيل الله في حالتي الشدة والرخاء .

(١) انظر النداء الثالث عشر والنداء الرابع والخمسين .

٢- ضبط النفس ومقاومة هواها فيما يغضب مولاها .

٣- الأخذ بمبدأ التسامح والعفو عند المقدرة .

٤- الإحسان إلى المسيء .

٥- مراقبة الله ودوام الخوف منه ، والرجوع إليه إثر المعاصي بالندم

والاستغفار»^(١) .

ففي هذا النداء يخاطب _ سبحانه _ عباده الذين آمنوا بالله واليوم الآخر أن يتصفوا بالتقوى التي عرفنا معانيها السامية فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، إنه الأمر الإلهي بأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه . ثم يخاطبهم مردفاً ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ أي صدقاً وحقاً قال ابن عباس : أي صواباً . وقيل : عدلاً . وقيل : هو قول ؛ لا إله إلا الله . « قال قتادة ومقاتل : قولوا قولاً سديداً في شأن زينب وزيد ، ولا تنسبوا البغي إلى ما لا يحل . وقال عكرمة وابن عباس : القول السداد ؛ لا إله إلا الله . وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره ، وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض والقول السداد يعم الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك »^(٢) .

ونقيض القول السداد ؛ الكذب أو النفاق ، النفاق الذي كثر أصحابه باسم الثقافة أو التحرر أو التقدم . ومثاله قول أستاذ بكلية الآداب في الدار البيضاء : « إن ارتفاع نسبة تعليم المرأة ومشاركتها المتزايدة في الحياة العملية قد يبدو ولأول مرة كمؤشر على تعزيز مكانة المرأة داخل المجتمع ، وعن توجه واضح نحو الانفتاح والتحرر الاجتماعي والثقافي . ولكننا إذا نظرنا إلى هذا المؤشر في تشابكه مع مؤشرات اجتماعية أخرى ، يمكننا أن نلاحظ عند ذلك النسبة التصاعدية لارتداء الحجاب في السنوات الأخيرة ، بما يفضي إلى توجه معاكس

(١) أسمى الرسائل : ص ٣٧٣ .

(٢) تفسير القرطبي : ج ٢٢ ، الأحزاب ، آية ٧٠ .

لعملية التحرر الاجتماعي والثقافي . «^(١) . فهذا الدكتور (الذي أغفلنا اسمه) لم يقل قولاً سديداً ، لأن التعرّي ليس دليلاً على التحرر ، كما أن الحجاب ليس دليلاً على التخلف . فكم من محجبة نالت شهادة وثقافة عالية ، وحظيت بمركز اجتماعي استطاعت من خلاله خدمة مجتمعتها ، وكم من سافرة تحمل كثيراً من التخلف الفكري والاجتماعي وغيره . وهناك فئة من عقلية الدكتور المذكور ورثت من الإسلام الاسم ، تتشدد بكلمات فلسفية توحى للقارئ أنها حريصة على تقدم الأمة والمجتمع ، ولكن هذا التقدم لن يتحقق من وجهة نظرها (ما دام هناك مسلمين تحكمهم النصوص القرآنية والأصول أو المصادر الفقهية) . ومنهم الذين يأبون الدخول في حوار مع المسلمين (الذين يتخلف فكرهم أربعة عشر قرناً من الزمان . حين يبدأ الإسلاميون في التطوير سيسهل عندئذ على العلمانيين محاورتهم بتمسك سبل الرشاد)^(٢) . هؤلاء (الماركسيون) قولاً وعملاً أشد خطراً على المسلمين لاحتكاكهم المباشر بأبناء الأمة الذين نعوّل عليهم البناء لا التهديم . إنهم يريدون التحلل من كل منهج يقيّد غرائزهم . مع أنه لا توجد دولة من دول العالم دون دستور يحكم شؤونها وشؤون رعاياها . والله تعالى الذي خلق الإنسان وكرّمه ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض ليسعى ثم يرى سعيه ، أرسل إلى هذه الأمة رسولاً وزوّده بمنهج إلهي يبين له الطريق المستقيم والسعي وأسلوبه . وهؤلاء يريدون التقدم بخروجهم على الدستور الإلهي ، وعلى كل نداء من نداءات الرحمن .

وهذا النداء يتمتع بصفة الاستمرار والعمومية في التحذير من الكذب أو النفاق الذي هو نقيض السداد . وإذا كان الكذب شعار المنافقين ، فإن الصراحة في القول والجرأة في العمل الموافق للعقيدة شعار المؤمنين الصادقين . إذ لا يكفي القول السدّيد دون عمل مؤيد له ، وإن الإيمان والخوف من الله هو الذي يجعل ما تكته النفوس منسجماً مع الأقوال ،

(١) مجلة الوحدة ، العدد : ١٠١ و ١٠٢ ، فبراير ومارس : ١٩٩٣ .

(٢) الكلام المحصور بالقوسين قائله : م ، أ ، مجلة النقاد ، العدد ٧٠ ، ص ٧٨ ، ١٩٩٤ .

والأقوال مع الأفعال . قال تعالى : ﴿ وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ فَأَحْذَرُوهُ ﴾ وهذا الحذر يجعل الإنسان يحاسب نفسه ويراقبها قبل أن يحاسبها خالقها ، وهذا من أعلى درجات التربية في الإسلام ، حيث لا تنفصل النظرية عن التطبيق ، ويندمج الإيمان مع العمل .

يقول محي الدين بن عربي : « عليك بمراعاة أقوالك كما تراعي أعمالك ، فإن أقوالك من جملة عملك . و لذلك قال بعض العلماء : من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه واعلم أن الله راعي أقوال عباده ، وأن الله عند لسان كل قائل . فما نهاك الله عنه أن تتلفظ به فلا تتلفظ به وإن لم تعتقده ، فإن الله سائلك عنه . قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ يريد الملك الذي يحصي عليكم أقوالكم ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ، كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وأقوالك من أفعالك . . فإذا تكلمت فتكلم بميزان الشرع ، و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزج ولا يقول إلا حقاً ، فعليك بقول الحق الذي يرضي الله » ^(١) .

إذن هذا النداء يوجه المؤمنين إلى اتباع أمرين أساسيين كما رأينا : التقوى أولاً ، ثم القول السديد الذي يستقيم مع منهج الله ، والاستجابة للنداءات هي موضوع هذا الكتاب فما وافق هذا المنهج فهو السديد ، وما تعارض مع نص وارد فيه فهو باطل ، وما لم يتعارض يمكن أن تحكمه المصلحة العامة .

وفي الآية التالية ذكر سبحانه ثمرات الاستجابة لهذين الأمرين بقوله تعالى : ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ صدق الله العظيم .

(١) الوصايا ، الوصية / ١٠ ، ص ٦٨ .

الداء السادس و السنون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

— محمد/ ٧ —

نداء الله تعالى إلى الذين آمنوا به إلهاً قادراً عليماً ، وبالقرآن منهجاً ومرجعاً لهم في جميع أمور دينهم ودنياهم ، يدعوهم فيه إلى نصره دين الله وشريعته الغراء ، فيخاطبهم قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ على أعدائكم مهما كانت صفاتهم ما دمتم تنصرون أولياء الله وحزبه . وهذا مثيل قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ فإن الجزء من جنس العمل ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ عند مقاتلتكم لأعداء الله ، ويثبتكم على دينكم الذي ارتضاه لكم . وقيل: يثبت أقدامكم على الصراط المستقيم . وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن ، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في مواطن الشدة والحرب . وقد حملت هذا المعنى الآية التالية: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ _ الأنفال/ ١٢ _ فالذين يلجؤون إلى الله ويباشرون ما سنه لهم من الأسباب بما في ذلك أسباب القتال ، مع اعتقادهم بأن النصر لا يُنال إلا من عند الله ، ولا يُطلب إلا منه ، فإذا صح اعتقادهم ، وصحَّت عزميتهم ، أيدهم الله بنصره وقذف في قلوب أعدائهم الخوف ، وهو من أعظم الأسلحة التي تحطم معنوياتهم وتجعلهم يلقون أسلحتهم من غير حرب . فتلَمَسَ القدرة الإلهية وهي تعمل لنصر الضعيف على القوي بطرق وأسباب لم تكن بالحسبان ، يحتم علينا الإيمان بقوة الله وعظم سلطانه ، ويجعلنا نثق بنصر الله لنا أكثر من ثقتنا بمعدائنا وقوتنا ، ما دمنا متبعين لدستوره الذي سنه لنا ، والذي يقضي بأننا إذ نشكو تألب خصومنا

علينا ، ونريد لأنفسنا النصر ، فمن واجبنا أن نتبع السبيل الذي رسمه المنهج القرآني ، والذي جاء فيه ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ _ الأنفال / ٦٠ _ . وسبق أن ذكرنا في مجال آخر أن التمسك بهذا الأمر في الإعداد يعني ضرورة الانسجام مع الزمان والمكان ، فإذا كانت الحرب بالسيف والرمح يكون الإعداد لها بذلك ، وإن كانت بالصواريخ والطائرات يكون الإعداد لها بذلك . وقد رأينا كيف استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أفكارهم في الإعداد لمعركة الأحزاب ، فحفروا الخندق لجانب وسائل الإعداد الأخرى ، ثم وقف الرسول يناجي ربه ويطلب نصره وتأييده . فمن الخطأ الاعتماد على القوى المادية فقط بحجة أن هذا الزمن لا تفيد فيه غير القنابل الذرية والمدافع والصواريخ ، وأن النصر مرتبط بكثرة العدد ووافر العدة . كما أنه من الخطأ الاعتماد على أن التوكل على الله بالأقوال كاف للانتصار على الأعداء دون اتخاذ الأسباب الأخرى . ورأينا كيف ترد في المنهج آيات تفسر أو تكمل معاني آيات أخرى ، ورأينا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسير في الحياة وفق سنن الله وتطبيق دستوره الأزلي الذي يقضي بتوافر الشروط الأساسية التالية لدى من يريد النصر :

- ١- الإيمان بأن النصر من عند الله ، فلا بد من طلبه منه تعالى .
 - ٢- الإعداد النفسي ؛ وفي مقدمته تقوية الروح المعنوية ، وعدم الخوف من الآخرين .
 - ٣- الأخذ بأسباب القوة والاستعداد للحرب بقدر المستطاع .
- أما التزام أحد الشروط دون الأخرى ربما كان سبباً في الخذلان . والشواهد التاريخية على ما نقول كثيرة . وإني لأعتقد أن نصرة دين الله لا تكون بإعداد العدة أو المراقبة أو التوجه إلى ساحة الوغى فقط . . فهناك وجوه أخرى لنصرة دين الله ، ناهيك عن الإيمان وتربية النفس والفرد والاهتمام بتربية الأسرة وإعداد أبناء المجتمع ليكونوا أعضاء مقدرين للعلم والعمل ، متعاونين ومبدعين ليتمكنوا من مواجهة التحدي (الحضاري) أو المدني . .

من وجوه نصرته دين الله ؛ النصره بالقلم ، بكشف أباطيل المغرضين من أعداء العروبة والإسلام ، تلك الأباطيل التي تتمتع حيوية الأجيال الحاضرة ، وتورث الأجيال المقبلة ضعف الحياة وذبول الأمل . وإنني لأعرض مثلاً واحداً لتوضيح المراد ؛ فكم من تقرير نجم عن مؤتمر (الإسلام والغرب) الذي شهدته مدينة جنيف في ٣-٦/١٠/١٩٧٩ م أشاد بأخلاقيات الديانات السماوية دون أن يعطي صورة واضحة عن مسار الإسلام ، بل بترها عن جذورها في الجزيرة العربية . «عرض الإسلام كأنه كتلة انحدرت في التاريخ ، كأنها غارات الهون والفندال والمغول . وفي عرض الإسلام ترد في الكتب _ المدرسية وغيرها _ ألفاظ العنف ، والقسوة ، وأن المسلمين هم السبب . لقد أحس بعض علماء الغرب بمرارة ما اجترحه بعض الكتاب والمؤرخين الغربيين في حق الإسلام والحضارة الإسلامية ، وحاول بعضهم أن يفسر ذلك بالصراع الذي كان بين الحضارتين الإسلامية والأوربية المسيحية ، مما اقتضى في الغرب تكوين صورة مشوهة عن الإسلام والرسالة والرسول لتكون (مبرراً فكرياً) لحرب الإسلام ومحاولة القضاء عليه . ونحن كمسلمين فينا من يقوم ببعض المسؤولية في هذا ، فلقد مرت على العالم الإسلامي _ ولا تزال _ في بعض أقطاره دورات من العداوة أدت إلى إخراج حشد من الكتب المذهبية استطاع الغرب أن ينفذ من هذه الثغرات وأن يطعن في الإسلام بأقلام أبنائه ، وأن يشكك حتى في النص القرآني الذي وعدنا الله بحفظه في قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر/ ٩] وفي السنة النبوية المطهرة بعد كل الجهود الجبارة التي بذلها علماء الحديث ، وهو جهد غير مسبوق ولا ملحق في أي حضارة»^(١) .

فالرد على أمثال هؤلاء المشككين ، وعلى مردي أقوالهم بأن العرب والمسلمين مدينون للغرب بكل معطيات العلم والحضارة . ودحض مثل هذه الافتراءات التي تمثل

(١) الإسلام والاستقامة الفكرية ، د. عبد العزيز كامل (مجلة العربي ، العدد ٣٥٨ ، ص ٢٣ ، سبتمبر

غزواً لعقولنا وأفكارنا إنما هو جزء من نصرة دين الله . ولبعض العلماء جهود مشكورة في هذا ، ولكن بعضاً آخر يحاول أن يلوي النصوص الدينية عن مرادها الأصلي بهدف عدم جرح شعور حاكم أو فئة أو دولة لنا معها علاقات اقتصادية أو سياسية في الوقت الذي تتحالف مع أشد الأطراف عداوة لعروبتنا وإسلامنا . بدلاً من أن تتضافر جهود العلماء العاملين مع الأجهزة والوزارات المختصة لمواجهة الطرف الآخر أو الغزو الآخر بفكر متسلح بالعلم ومستفيد من أساليب العصر ، فما زلنا نعاني الكثير من التخلف في طريق عرض الإسلام ودفع الشبهات .

لذا لا بد من حمل لواء النصرة في وجه كل التحديات المتلاحقة ، والتي منها التحامل على لغة القرآن الكريم التي أقبلت عليها الشعوب التي أسلمت . ولقد أدرك الاستعمار الرباط الوثيق بين اللسان العربي والإسلام ، فكان يحاربهما معاً ، إما عن طريق سيادة السنة أخرى ، أو تشجيع اللغات واللهجات المحلية لتزاحم العربية ، وبالتالي تبعد قطاعات كبيرة من المسلمين عن النص القرآني قراءة وفهما .

نخلص مما ذكر إلى النتائج التالية :

١- النصر على أعداء الأمة مشروط بنصرة دين الله والالتزام بالمنهج الذي اختاره لعباده . ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ .

٢- الأمل بنصر الله هو نوع من الإعداد المعنوي الذي يتضافر مع الإعداد المادي . وهذا الأمل يجب أن يكون نابعاً من إيمان حقيقي ومتين بأن الله قادر على نصرة المؤمنين ودحر المعتدين الكافرين في أي زمن كما دحر الأحزاب وردهم دون تحقيق أهدافهم يوم الخندق .

٣- من مكملات الإعداد المادي والمعنوي ؛ اجتماع الكلمة ووحدة الصف . وما الذي نسمع به من تضحيات وعمليات جريئة في الأرض المحتلة وجنوب لبنان وغيرها إلا منارة مضيئة تسترشد بها الأمة ، وأي نصر لدين الله أسمى من أن يقدم المؤمنون أرواحهم فداء لمبادئ الحق والعدل ، لا يقصدون من وراء قتال أعدائهم مغانم مادية ، ولا أمجاداً

شخصية . وقد روي عن أبي موسى رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " ^(١) .

(١) البخاري : ٢٦٥٥ و ١٢٣ . صحيح مسلم : كتاب الأمانة ١٩٠٤ .

النداء السامع والسنون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ .

—محمد/ ٣٣—

لقد خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته جميع الناس ، التزاماً بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ . وأشرنا في المقدمة إلى أن من الناس من استجاب للنداء ، وآمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من صدَّ عن سبيل الله وأخذ يشاقق الرسول . وهؤلاء الذين شاقُّوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، نزل بحقهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يَصْرِوْا اللَّهَ شَيْئاً ﴾ وإنما يضرُّون أنفسهم ، وسيحبط الله أعمالهم ، فلا يثيبهم عليها ، بل يحقها . فلما بين الله حال الكفار خاطب بعد ذلك المؤمنين بلزوم الطاعة فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ . وشرحنا في خطاب مشابه معنى طاعة الله التي تتجلى بالالتزام بالمنهج القرآني ، وعرفنا معنى طاعة رسول الله التي تتجلى بالالتزام بما جاء في سنته من قول أو فعل أو تقرير .

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لا تبطلوا تلك الطاعات بما أبطل به أولئك الكفار أعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء .

« قال عطاء : داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة ، ولا تشركوا فتبطل أعمالكم . وقيل : لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب رسول الله وعصيانه . وقال الكلبي : لا تبطلوا

أعمالكم بالمعاصي والكبائر . وروي عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت الآية ، فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم . » ^(١) .

واستدل بهذه الآية من يرى إحباط الطاعات بالمعاصي ، ولكن حجتهم ضعيفة لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ _الزلزلة/ ٧ و ٨_ .

ويحضرني هنا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزَلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ _النحل/ ٩٢_ ، فالذي يقوم بأعمال فيها طاعات ثم يقوم بأعمال مخزية ؛ يشبه في تصرفه هذا تصرف امرأة حمقاء قليلة العقل سيئة التصرف ، غزلت غزلاً تعبت فيه كثيراً ثم نقضته من بعد أن أصبح طاقات وبسطاً قوية فأجهدت نفسها مرة أخرى في نقضه حتى صار قطعاً مبعثرة . فالقصد أن لا يكون المؤمنون مشابهين لامرأة هذا شأنها . وإذا كان المقصود الأول عدم نقض العهد وضرورة الوفاء به ، فالقصد أيضاً عدم إبطال الأعمال الصالحة وضرورة الحفاظ عليها .

« واستدل بهذه الآية من لا يرى إبطال النوافل حتى لو دخل في صلاة تطوع أو صوم تطوع ، لا يجوز له إبطال ذلك العمل والخروج منه . وهؤلاء أيضاً حجتهم ضعيفة لأن السنة مبينة للكتاب . وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أصبح صائماً ، فلما رجع إلى البيت وجد حيساً ، فقال لعائشة : قريبي ، فلقد أصبحت صائماً ، فأكل . وهذا معنى الحديث ، وليس بلفظه . وفي الصحيحين أيضاً أن سلمان زار أبا الدرداء ^(٢) »

(١) تفسير الخازن : ٤ ص ١٤٢ . والحديث ذكره الإمام النووي في رياض الصالحين ، باب الاقتصاد في

العبادة ، ص ١٤٩ .

(٢) عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي ، ولي القضاء في دمشق بأمر عمر الفاروق (رضي الله عنه) ، قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : عويمر حكيم أمتي . توفي عام (٣٢ هـ) بالشام وله مائة وتسعة وسبعون حديثاً .

فصنع له طعاماً ، فلما قربه إليه قال : كل فأني صائم ، قال : لست بآكل حتى تأكل ، فأكل معه . »^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون من المفلس ؟" قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار . فقال : "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا . . . فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فئت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ، ثم طرح في النار"^(٢) .

فالله تعالى أمر عباده بطاعته وطاعة رسوله ، لأن فيها سعادتهم الدنيوية والأخروية ، ونهاهم عن المعاصي والفحشاء والمنكرات وعن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال الصالحة والأعمال الصالحة كالعبادات يجب أن تكون خالصة لوجه الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فإذا اغتر الإنسان بعمله ، أو أتبعه بالمن والأذى فإن هذا الإتيان مبطل لثواب العمل الذي قام به وقد فصلنا ذلك حين الحديث عن قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ . فالذي يتصدق أو يؤدي زكاة أمواله التي رزقه الله إياها يكون قد أدى الفريضة ، ولكن حين يمن على الفقير كالقول أمامه : قد أعطيتك كذا وكذا ، أو أمام الآخرين فيظهر ما عمله من معروف أمام الناس ، يكون قد أبطل ثواب عمله . فقد جعل الله للصدقة آداباً ترفعها عن أن تكون تفضلاً واستعلاء من الواجد على المحروم ، أو أن تكون رياء صادراً عن شعور غير كريم ، لأن الصدقة إن هبطت دوافعها أو تبعها المن على أخذها استحالت عملاً خسيساً يؤذي النفس والخلق والضمير ، ويؤدي المجتمع كذلك في أفرادهِ وروابطهِ .

(١) المصدر السابق ، أما الحديث فقد ورد أيضاً في رياض الصالحين ، باب الاقتصاد بالعبادة ، ص ١٤٩ .

(٢) رواه مسلم في رياض الصالحين : باب تحريم الظلم والمظالم ص ١١٧ . وذكره الإمام ابن حنبل في

المسند ، المجلد الثاني .

وخلاصة القول في هذا النداء : ١- التأكيد على وجوب طاعة الله ورسوله في كل أمر أو نهى جاء في القرآن أو السنة .

٢- النهي عن إبطال الحسنات بالمعاصي والكبائر ، أو بالرياء . فإذا اغتر المؤمن بإحسانه أو أتبعه بالمن والأذى أبطل ثواب عمله .

٣- « يدل ظاهر نهى المؤمنين عن إبطال أعمالهم على أن من شرع بناقلة ثم أراد تركها ليس له ذلك . (خلاف فقهي يمكن الرجوع إليه في كتب الفقه) ، فقد ذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه لا يجوز ترك ما بدئ به من تطوع كصلاة نافلة وصوم تطوع ، لأن المتطوع أمير نفسه قبل أن يشرع ، أما إذا شرع فقد ألزم نفسه وعقد عزمه على الفعل فوجب عليه أن يؤدي ما التزم به ، وأن يوفي بما عقد ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ . وأجاز الشافعي ترك ما شرع فيه من أعمال التطوع ، لأن المتطوع أمير نفسه . . »^(١)

(١) انظر التفصيل في التفسير المنير: ١٣٤ / ٢٦ ، وتفسير آيات الأحكام: ٧٧ / ٤ .

النداء الثامن و السنون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

الحُجُرَات/ ١

لقد جاء المنهج القرآني لينقذ الناس من سفوح الجاهلية التي كانوا يهيمنون فيها ، ويأخذ بيدهم إلى المرتقى الصاعد إلى القمة ، ويحدد لهم دورهم في البناء الذاتي والاجتماعي . ورفع المستوى الخلقي والنفسي . ومن الآيات التي تضمنها المنهج لتأديب المجتمع الإسلامي بالآداب الإسلامية سورة الحجرات ، لذا سماها البعض : سورة الأخلاق والآداب ، لما تضمنته من آداب تختلف باختلاف من تكون معهم المعاملة . وذلك أنه إما أن تكون المعاملة مع الله تعالى ، أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو مع غيرهم من الناس ، وهؤلاء على قسمين ؛ إما مؤمنون ملتزمون بالطاعة ، أو خارجون عن حدودها (وهؤلاء هم الفاسقون) ، والمؤمن الذي التزم حدود الطاعة إما أن يكون حاضراً أو غائباً فهذه خمسة أصناف . وقد جاء خطاب المؤمنين في هذه السورة خمس مرات ، بين الله في كل مرة مكرمة تتناسب مع من تكون المعاملة معه . فقال في جانب الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، وجاء ذكر الرسول هنا لأنه الذي يوضح معالم الطريق إلى طاعة الله تعالى . وهذا هو التوجيه الأول الذي يوجه المؤمنين إلى أسلوب التعامل مع الرسول صلى الله عليه وسلم بأن لا يقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي رسول الله وقوله وفعله فيما سبيله أن يأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدّم قوله أو فعله على

قول رسول الله أو فعله فقد قدمه على الله تعالى ، لأن الرسول إنما يأمر عن أمر الله عز وجل وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال :

أولها : « ما ذكره الواحدي من حديث ابن جريج قال : حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أخبره أنه قدم وفد من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة ، وقال عمر : ما أردت خلافاً ، أمّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافاً ، وقال عمر : ما أردت خلافاً ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ »^(١) .

وثانيها ما روي عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول ما نبأ به في يومنا هذا يوم الأضحى - " أن نصلي ثم نرجع فتنحر ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم عجله لأهله ، ليس من النسك في شيء " ^(٢) . زاد الترمذي في أوله قال : خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر . وروي عن عائشة رضي الله عنها أنه في النهي عن صوم يوم الشك ؛ أي لا تصوموا قبل نبيكم . وعن عمار بن ياسر قال : " من صام في اليوم الذي يشك فيه فقد عصا أبا القاسم " ^(٣) .

ثالثاً - « قيل في معنى الآية : لا تفتأوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه . وقيل : قي القتال وشرائع الدين ، أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله . » ^(٤) . هذه ثلاثة أقوال وردت حول نزول هذه الآية ، ومما ذكره القرطبي :

(١) التفسير المنير، ج ٢٦، ص ٢١١ . وتفسير الخازن : ج ٤، ص ١٦٣ .

(٢) البخاري ، كتاب العيدين ، ٩٠٨ . ومسلم ، كتاب الأضاحي ، ٧ / ١٩٦١ .

(٣) أخرجه أبو داود رقم ٢٣٣٤ . والترمذي رقم ٦٨١ وقال حديث حسن صحيح . وابن ماجه رقم ١٦٤٥ .

(٤) انظر تفسير الخازن ج ٤ ص ١٦٣ ، والتفسير المنير : ج ٢٦ ص ٢١١ . وقد روى البخاري حديث ابن جريج عن الحسن بن محمد بن الصباح .

« قال القاضي : إذا قلنا إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ، لأن كل عبادة مؤقتة بمقتات لا يجوز تقديمها عليه كالصلاة والصوم والحج ، وذلك بين . إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة لما كانت عبادة مالية ، وكانت مطلوبة لمعنى مفهوم وهو سد خلة الفقير ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين ، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تُعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر ، فافتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والعامين ، فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها ، وإن جاء رأس العام وقد تغير النصاب تبين أنها صدقة تطوع . »^(١)

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في كل أموركم وراقبوه في عدم تخطي ما لم يأذن به الله ورسوله ، فإنكم إن اتقيتموه عافتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم ونياتكم ، لا يخفى عليه شيء من تصرفاتكم .
نخلص مما ذكر إلى أن النداء يرشد إلى مايلي :

« ١ - وجوب طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتقديم حكم القرآن والسنة على ما سواهما .

٢ - يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي ترتيب مصادر التشريع الإسلامي ، حيث أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن : " بِمَ تحكم ؟ " قال : بكتاب الله ، قال : " فإن لم تجد ؟ " قال : فبسنة رسول الله ، قال : " فإن لم تجد ؟ " قال : أجتهد رأيي لا آلو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله " . »^(٢)

(١) انظر تفسير القرطبي للآية / ١ / الحجرات .

(٢) أبو داود (٣٥٩) ، والترمذي (١٣٤٢) .

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله . فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة .

٣- الأمر بالتقوى وإيجابها عام في كل الأوامر والنواهي الشرعية ، ومنها التقدم بين يدي الله ورسوله المنهي عنه . والله يراقب الناس فهو سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم .^(١)

(١) التفسير المنير: ج ٢٦ ص ٢١١ وما بعدها .

النداء التاسع والستون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

الحُجُرَات/ ٢

هذا النداء يتناول أدباً آخر من الآداب الخمسة التي أشرنا إليها في مقدمة النداء السابق، والتي خاطب الله تعالى عباده المؤمنين بها في سورة الحجرات، وهي: تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعليم العرب وغير العرب أصول الخطاب، ذلك أن العرب في معظمهم كانوا يتصفون بالجفاء، وفق الطبيعة الصحراوية، وبسوء أدب في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وتلقيب الناس. من أجل ذلك خاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الخطاب نزل في (ثابت بن قيس ابن شماس)، وكان في أذنه قر، وكان جهوري الصوت، وكان إذا كلمه رفع صوته، وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى النبي بصوته .

«عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية، جلس ثابت بن قيس ابن الشماس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل النبي سعد بن معاذ، فقال: "يا أبا عمر وما شأنه أيشتكى؟" فقال سعد: إنه لجاري، وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله صلى

الله عليه وسلّم، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "بل هو من أهل الجنة" (١).

بناء على ما روي يكون معنى الخطاب: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله؛ إذا تكلمتم مع الرسول فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لأن رفع الصوت يدل على قلة الاحشام وترك الاحترام. وخفض الصوت وعدم رفعه من التعظيم والتوقير. ثم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتهم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين الذي يضاد الجهر، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كأن تقولوا: يا محمد، يا أحمد ولكن قولوا: يا نبي الله، ويا رسول الله، توقيراً له، وتقديراً لمهمته ورسالته، ومراعاة للأدب. وهذا التوجيه للحرص عليكم من: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي نهاكم عن الجهر غير المعتاد، وعن رفع الصوت خشية أن يذهب ثواب أعمالكم من حيث لا تشعرون بذلك. فقد ورد عن بلال بن الحارث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قوله: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض" (٢).

يستنبط من الخطاب المذكور:

١- تعليم الناس مكارم الأخلاق، وفضائل الآداب عامة، وخفض الصوت أثناء مخاطبة النبي صلّى الله عليه وسلّم بشكل لا يصل إلى الجهر المطلق ولا إلى الهمس

(١) اللفظ لمسلم باب ٢٥، ١٨٧/١١٩. وللبخاري نحوه.

(٢) صحيح البخاري/٦٠١٢، والجامع الصغير/١٩٧٣، كما أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهم.

والمخافتة . ويستحب عدم الجهر في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم حتى بعد وفاته حين الدعاء أو التوسل في الروضة الشريفة في الحرم النبوي مراعاة لأبهة النبوة وجلالة مقدارها .
٢- « قال القاضي أبو بكر بن العربي : حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمة حياً ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به . . . »

٣- إن النهي المذكور عن رفع الصوت هو الصوت الذي لا يناسب به العظماء ، ويوقر الكبراء ، أما الصوت المرفوع الذي يقصد به الاستخفاف والاستهانة فلا شك أنه كفر . وأما الصوت الذي يرفع في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوٍّ ، ونحو ذلك ، فليس منهياً عنه ، لأنه لمصلحة ، ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين : " اصرخ بالناس " ، وكان العباس أجهر الناس صوتاً . يروى أن غارة أتهم يوماً ، فصاح العباس : يا صباحاه ، فأسقطت الحوامل لشدة صوته .
٤- إن مخالفة النهي في الآية برفع الصوت أكثر من الحالة المتوسطة يؤدي إلى إحباط الأعمال ، وإبطال الثواب ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إشارة إلى أن ارتكاب المآثم يجزئ الأعمال إلى الحبوط من حيث لا يشعر المرء .^(١)

(١) التفسير المنير : ج ٢٦ ص ٢٢٣ .

الداء السبعون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا
بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ .

الحُجُرَات/ ٦

في هذا الخطاب يرشد الله تعالى المؤمنين ويحذرهم من الاستماع إلى أقوال
الفاسقين ، لأن الاستماع إليهم يوقع الفتنة بين المؤمنين ، مما قد يؤدي إلى الفشل وتفرقة
الكلمة ، وتتمكن العداوة والبغضاء من نفوسهم ، وحين يكتشفون الحقيقة يعضون أصابعهم
ندماً على عدم تأكدهم من صحة ما سمعوا من أخبار ولا ينفع الندم . لذلك قال تعالى
مَحْذَرًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بسعة علم الله وما فيه خير عباده على مر الأزمان ﴿ إِن
جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ والفاسق ؛ هو الخارج من حدود الشرع « من قولهم ؛ فسق
الرطب : إذا خرج عن قشره ، وسمي به الفاسق لانسلاخه عن الخير ، والفسق أعم من
الكفر ، لأنه يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، ولكن تعورف فيما كان بكثيره ، وأكثر ما
يقال : لمن كان مؤمناً ثم أخل بجميع الأحكام أو بعضها . فإن جاءكم أيها المؤمنون فاسق
بنبأ عظيم له نتائج عظيمة فتبينوا . والتبين هو طلب البيان كما التبت طلب الثبات . إذن
لا تقبلوا ما جاءكم به ، بل توقفوا وثبتوا حتى تأمنوا العاقبة .» ^(١) .

وفي آيات القرآن الكريم ما يربط بين الفاسق والمنافق ، من ذلك قوله تعالى :
﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ
أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ _التوبة/ ٦٧_ . فالرجال والنساء

(١) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ٨٠ .

متشابهون في النفاق و صفاء و عملاً ، يستسيغون المعاصي ، أو يدعون إلى استباحتها ، نسوا الله بتجاهلهم لأوامره من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبذل في سبيل الله . و المنافقين هم الفاسقون أي كل من يخرج عن طريق الحق والصلاح . ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "آيةُ المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان"^(١) . والله عز وجل يأمر المؤمنين أن يتأكدوا من صحة حديث الفاسق ، وتبين ما جاء به إن كان صدقاً أم كذباً .

روي في سبب نزول هذه الآية عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : «قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة ، فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله ؛ أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً بأن كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الأوان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه ، احتبس الرسول ، فلم يأت ، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله . فدعا سرورات قومه فقال لهم : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف ، ولا أرى حبس رسول الله إلا من سخطه ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو أخو عثمان رضي الله عنه لأمه إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما سار الوليد إلى أن بلغ بعض الطريق فرّق ، فرجع ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي . ف ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى استقبله البعث وقد فصل عن المدينة . قالوا : هذا الحارث . فلما غشيهم

(١) البخاري : باب ٢٣ ، حديث ٣٣ . ومسلم : ٥٩ / ١٠٧ .

قال : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله . قال : لا ، والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ، ولا أتاني . فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ " قال : لا ، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رأي ، ولا أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يكون سخطة من الله ورسوله . فنزلت الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا . . ﴾ . ولم يختلف الذين رويوا أسباب النزول في أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان الشخص الذي جاء بالنبا ، إنما اختلفوا في أسباب قوله . فمنهم من روى أنه خاف وفرق حين رأى جماعة الحارث ، وقد خرجت في انتظاره فظنها خرجت لحربه ، ومنهم من روى أنه كان بينه وبينهم موجدة في الجاهلية ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنهم قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله فلم يعجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث خالد بن الوليد إليهم وقال : " ارمقهم عند الصلوات ، فإن كان القوم قد تركوا الصلوات فشأنك بهم ، وإلا فلا تعجل عليهم . " (١) .

وروى البعض عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد وأمره أن يثبت ولا يعجل . فانطلق حتى أتى القوم ليلاً ، فبعث عيونه ، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكره ، فعاد إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت الآية ، فكان رسول الله يقول : " التاني من الله والعجلة من الشيطان " (٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي فتبينوا لئلا تصيبوا قوماً جاهلين حالهم ، أو تصيبوهم بسبب جهالتكم أمرهم وما هم عليه ﴿ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ

(١) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ٧٨ و ٧٩ . والخازن ٤ ص ١٦٦ .

(٢) أخرجه البيهقي عن أنس عن الرسول . و ذكره السيوطي في الجامع الصغير برقم ٣٣٩٠ .

نَادِمِينَ ﴿ فتصيروا من بعد تبين الأمر نادمين ، ويستمر معكم هذا الندم . والندم ؛ ضرب من الغم يلحق النادم على ما وقع منه متمنياً أن لا يكون قد وقع منه ذلك التصرف ، لأنه كلما تذكره شعر بالأسى وراجع الندم .

ومما يرشد إليه هذا النداء : ١- الفاسق أهل للشهادة ، وإلا لم يكن للأمر بالتبين فائدة ، قاله الألوسي . أما مذهب الحنفية ؛ أن الفاسق لا تقبل شهادته .

٢- قبول خبر الواحد العدل ، والتبين مشروط بمجيء الفاسق .

٣- هناك خلاف فقهي إن كان من الصحابة فاسق أو ليس بعدل .

٤- الخطاب عام للناس جميعاً في كل مكان وزمان ، للتثبت من خبر الفاسق ، لذا

امتنع بعض العلماء عن قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، والله أعلم .

النداء الحادي والسبعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

الحجرات/ ١١

تعددت الروايات حول سبب نزول هذه الآية . وتلاقت كتب التفسير - ومنها القرطبي ، وتفسير آيات الأحكام ، وتفسير الخازن_ على أن الآية نزلت في وفد بني غيم حين استهزؤوا بفقراء أصحاب الرسول ، مثل عمار وخباب وبلال لما رأوه من رثالة حالهم^(١) ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ أي لايهزأ جماعة بجماعة ، ولا يسخر أحد من أحد ، ولا غني بفقير ، ولا قوي بضعيف ، ولا ذو حسب بليئيم ، وأشبه ذلك مما ينتقصه به ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أي عسى أن يكون المسخور منه عند الله خير من الساخر . وقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : " رَبِّ أَشَعْتُ أَغْبِرُ ذُو طَمَرِينَ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ "^(٢) .

﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ روي عن أنس أنها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عَيْرْنَ أُمَّ سلمة بالقصر .

(١) انظر تفسير آيات الأحكام: ٤ ص ٩٠ . وتفسير الخازن: ٣ ص ١٦٩ .

(٢) الجامع الصغير، باب حرف الراء، ٤٤٠٠ .

وروي عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي ، قال بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ يهودية بنت يهوديين .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضاً ، ولا يطعن بعضكم في بعض ، وقيل : المراد بالأنفس ؛ الإخوان هنا . والمعنى ؛ لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم ، فإذا عاب عائب أحداً بعيب فكأنه عاب نفسه . ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أي لا تدعوا الإنسان بغير ما سمي به . وقال ابن عباس : التنابز بالألقاب : أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها ، فنهى أن يعير بما سلف من عمله . وقال بعض العلماء : المراد بهذه الألقاب ؛ ما يكرهه المنادى به ، أو يفيد ذمّاً له . وأما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها (كالأعمش ، والأعرج ، وما أشبه ذلك) فلا بأس بها إذا لم يكرهها المدعو بها . وأما الألقاب التي تكسب حمداً أو مدحاً ، وتكون حقاً أو صدقاً فلا تكره ، كما قيل لأبي بكر الصديق : (عتيق) ، ولعمر : (الفاروق) ، ولعثمان : (ذو النورين) ، ونحو ذلك . . .

« وقد ذكر الله تعالى في الآية النهي عن ثلاثة أشياء : عن السخرية ، وعن اللمز ، وعن التنابز بالألقاب . من العلماء من يرى أن السخرية احتقار الشخص مطلقاً على وجه مضحك وبحضرته أم لا . وعلى هذا يكون اللمز أعم من السخرية . ومنهم من يرى أن السخرية ؛ الاحتقار ، واللمز ؛ التنبيه على المعاييب أو تتبعها . ويرى بعضهم أن المعنى : لا يسخر أحد من أحد ، ولا يفعلن أحد ما يقتضي أن يلمزه الناس . . . » ^(١) .

﴿ بِئْسَ الْاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ أي لا ينسب أحدكم غيره إلى الفسق الذي كان فيه بعد اتصافه بالإيمان . ويكون ذلك نهياً عن أن ينادى من دخل الإسلام بصفته التي كان عليها ، كأن تقولوا : يا نصراني بعد ما أسلم ، أو : يا فاسق بعد ما تاب . وقيل معناه أن من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز فهو فاسق ، فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق .

(١) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ٩١ .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ مِنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي الضارون لأنفسهم بمعصيتهم ومخالفتهم ، وكأنه لا ظالم سواه لأنه وضع العصيان موضع الطاعة وعرض نفسه للعذاب .

ويستفاد من النداء المذكور أن على المسلم ألا يستهزئ بأهل الله ، أو بدين الله ، كما يتحدث بعض الأشخاص عن تصرفات بعض الأنبياء أو العلماء على سبيل الفكاهة ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ _التوبة/ ٦٥ ، أي يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم إذا سئلوا : ما كنا في شك من أمرك ، ولكن ما حصل لم يكن إلا بمثابة أحاديث السمر التي كنا نقطع بها بعض الوقت . ألم يجدوا ما يقطعون به الوقت ويتسامرون أثناء لعبهم غير الخوض فيما ليس لهم به علم . لذا خاطب الله تعالى نبيه ليرد عليهم قائلاً : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ _التوبة/ ٦٥ . وهذه صورة من الصور التي تحدث في بعض المجتمعات ، ونرى أحياناً من يصغي لأحاديثهم وخوضهم دون أن يتصدى للرد عليهم أو نهيمهم عن ذلك .

وشبيه بهذه الصورة أن يسخر بعض الناس من امرأة هداها الله تعالى إلى الإيمان بعد أن ضلَّت طريقها في الرقص والغناء مثلاً ، أو ممثل عاد إلى رشده و التزم طريق الهدى والرشاد . علماً بأنه من المحال أن يعيش الإنسان أبداً بدون خطأ ، وقد روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " (١) . فعلى المؤمن مراعاة أقواله وأعماله تجاه الحق ، واضعاً نصب عينيه قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ -ق/ ١٨_ وأن يتدبر النداء المذكور أعلاه ، ويسعى إن استطاع أن ينهى المؤمنين عن استهانة أو تحقير أو تنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ولو كان بإشارة ، أو إيماء ، مذكراً لإخوانه بأن مثل هذا الهمز أو اللمز لا يرضاه الله ورسوله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٩٨) . والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠١) وقال : غريب .

لَمْزَةٍ ﴿الهمزة/ ١﴾. وأطلق على الذين يهزؤون من المؤمنين اسم المجرمين ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ ﴿المطففين/ ٣٠﴾
و وعدهم الله تعالى بالانتقام منهم في اليوم الآخر فقال : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿المطففين/ ٣٤﴾.

« قال القرطبي : يقال لأهل النار وهم في النار : اخرجوا ، ففتحت لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم ، فيضحك منهم المؤمنون ﴿هل تُوبَ الكفارُ ما كانوا يعملون﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء ؟ نعم . »^(١).

(١) صفوة التفاسير: ٣/ ٥٣٥، عن (القرطبي ١٩ك ٢٦٨).

النداء الثاني و السبعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

_ الحجرات / ١٢ _

لقد جاء الإسلام بجميع الآداب والفضائل ، ونهى عن جميع القبائح والردائل ، وحذر منها ارتقاءً بخلق وسلوك المسلم ، وارتفاعاً بهما عن كل ما يشين . وهذا النداء إنما هو واحد من تلك الآداب الإسلامية الرفيعة التي يوجه بها الله عباده المؤمنين إلى كيفية التعامل مع المؤمنين الغائبين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ أي ابتعدوا عن كثير من اتهام الناس وإساءة الظن بهم .

« والظنُّ أنواع ؛ منه ما هو واجب ، يكون فيما تعبدنا الله تعالى بعلمه ولم ينصب عليه دليلاً قاطعاً ، فهنا يجب الظن للوصول إلى المعرفة التي تعبدنا الله بها ، من ذلك تحري القبله ، وقبول شهادة العدل . ومنه ما هو محرم ، كسوء الظن بالله ، وسوء الظن بالمسلم مستور الحال ظاهر العدالة . . .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ كما قال أيضاً : ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ _ الفتح / ١٢ _ . أما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث فلا يحرم إساءة الظن به ، فليس الناس أحرص منه على نفسه . ومن الظن ما هو مندوب ؛ وهو ظن الخير بالمسلم . وقد تقول ما دام سوء الظن محرماً فما بال حسن الظن مندوباً ؟ ولكن إذا علمت أن هناك واسطة وهو ألا يظن شيئاً علمت أنه لا يلزم التقليل في الحكم . ومنه ما هو

مباح؛ كالكشف في الصلاة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا ظننتم فلا تحققوا " ، أي لا توجدوا أثراً لهذا الظن . وحرمة سوء الظن بالناس إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير . وأما أن تظن شراً لتتقيه ولا يتعدى ذلك إلى الغير فذلك محمود غير مذموم ، وقد قيل : حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ تعليل للأمر باجتناب الظن . والإثم ؛ الذنب الذي يستحق فاعله العقوبة عليه .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ التجسس ؛ التفتيش عن بواطن الأمور ، وأكثر ما يقال في الشر ، ومنه الجاسوس . والمعنى : لا تبحثوا عن عيوب الناس ، ولا عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم حتى لا تظهروا على ما ستره الله منها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ههنا_ ويشير إلى صدره_ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه . إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم " ^(٢) .

«التجسس صور وألوان ، وفي حقيقته واحد ، وإذا كان في الماضي يقوم على وسائل مادية ، فهو اليوم ألف شكل ولون ، هو اليوم آلات تصوير بالغة الدقة ، وطائرات لا يبلغها المدفع بله النظر ، وآلات تسجيل توضع في زهرة أو في عروة سترة ، أو هاتف وراءه ألف أذن وأذن ، و عيون تتفتح في الظلام ولا تتقي الله في نظرة . هو اليوم أكثر من أن يحصيه حد ، أو يخطر في بال إنسان حكيم . وإذا كان التجسس على أعداء الوطن و

(١) تفسير آيات الأحكام: ٤-٩٢ و٩٣ .

(٢) البخاري/ ٤٨٤٩ . وصحيح مسلم ، باب تحريم الظن : ٢٥٦٣ .

كرامة الناس واحدا ، فإن التجسس على حياة الأفراد خيانة للوطن ، وتهديم للعقيدة ، وإهدار للكرامة ، وتمزيق لوحدة الأمة ، ودفع إلى الهزيمة في كل ميدان ، سواء كان ميدان حرب أم ميدان سلام»^(١) .

وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : "يا معشر من آمن بلسانه ولم يقصد الإيمان قلبه ؛ لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من يتتبع عورة أخيه يتتبع الله عورته ، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته"^(٢) .

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يكره . عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "ذكرك أخاك بما يكره في غيبته" قلت : وإن كان في أخي ما أقول ؟ قال : "إن كان فيه ما تقول ، فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته"^(٣) . . ويراد من هذا النهي ؛ النهي من الإيذاء بتفهم الغير معائب المغتاب ، وذلك يتناول كل طرق الإفهام ، وهو يتناول أيضاً كل ما يكره سواء في دينه أو دنياه ، في خلقه أو خلقه ، في ماله أو ولده أو زوجته ، أو لباسه . . أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفة كذا وكذا _ قال بعض الرواة تعني قصيرة _ فقال صلى الله عليه وسلم : "لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته"^(٤) أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لشدة نيتها وقبحها . وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة .

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ إنه مثال للتنفير من الغيبة وتبعيداً منها . . «إذ لا يستقر في طبع أحد أن يأكل لحم إنسان ، فضلاً عن أن يحبه ، فما بالك إذا كان المأكول لحم أخيه ؟ لا شك أنه يكون أشنع ، وماذا تكون الشناعة إذا كان

(١) التعبير الفني في القرآن ، ص ٢٩٢ .

(٢) أبو داود / ٤٨٨٠ . وزيادة الجامع الصغير / ٤٢٤٩ ، عن أبي برزة الأسلمي عن البراء .

(٣) صحيح مسلم : ٢٥٨٩ / ٧٠ . وذكره الترمذي / ١٩٩٩ . وغيرهما .

(٤) الأذكار النووية : ٨٩٣ / ٥ . والجامع الصغير : ٧٧٨٦ .

الأخ ميتاً؟ . فقد بين الله تعالى بهذا المثل أوضح بيان أن وقوع المغتاب في عرض الناس يذكر معايهم يشبه أن يكون أكلاً للحومهم وهم إخوته ، وليتهم كانوا حاضرين بل هو إنما ينهش أعراضهم وهم غائبون فهو كالكلب ينهش لحوم الجيف . . . »^(١) . ولطالما لا يحب أحد أن يأكل جيفة أخيه ﴿ فَكْرَهُتُمُوهُ ﴾ فاعملوا إذن على استقامة دينكم . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ والتواب ؛ البليغ في قبول التوبة ، « والمعنى : واتقوا الله فترك ما أمركم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه فإنكم إذا اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المؤمنين التائبين »^(٢)

فالنداء يرشد إلى أمور متعددة أبرزها :

- ١- تحريم الغيبة ؛ وقد أجمع العلماء على أنها من الكبائر ، ويجب على المغتاب المبادرة إلى التوبة والاستغفار منها .
- ٢- اجتناب الظن باجتناب أثره . وعلى المرء المسلم أن يحسن الظن بالناس ليكون محله طاهراً من سوء ، فإن الله سبحانه ليسأل العبد يوم القيامة عن سوء الظن بالخلق ، ولا يسأله عن حسن الظن بهم .
- ٣- النهي عن طلب تحقيق الظن بقوله ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، ثم النهي عن ذكر ما عسى أن يكون المتجسس قد وقف عليه .
- ٤- وجوب التوبة عن الغيبة وغيرها بتقوى الله الذي لا يرد تائباً ، إنه غفور رحيم .

(١) انظر تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ٩٥ ، وتفسير الخازن : ٤ ص ١٧١ .

(٢) تفسير النسفي : مجلد / ٤ ، ص ١٧١ .

النداء الثالث والسبعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

—الحديد/ ٢٨—

نداء آخر يخاطب الله تعالى به عباده المؤمنين بتقوى الله ، التقوى التي أتينا على شرح معانيها وثمراتها في أكثر من نداء . وما هذا التأكيد إلا للدلالة على أهمية تقوى الله في حياة المرء المسلم أينما سار وحيثما اتجه ، وفي كل نواياه وأعماله ، وإن كان التأكيد يأتي لقصد معين أحياناً ، فخطابه تعالى في هذا النداء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي يا أيها الذين آمنتم بموسى وعيسى عليهما السلام ، اتَّقُوا اللَّهَ فيما نهاكم عنه ، ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ محمد بن عبد الله خاتم الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ —الأحزاب/ ٤٠— أرسله الله بأسمى الرسالات وخاتمها ليخرجكم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديكم إلى صراط مستقيم . « ولا يعتبر الإيمان بنبوّة سيدنا محمد إيماناً كافياً حتى يضاف إليه الإيمان بأن ما بُعث به من الشرع ناسخ لكل ما كان قبله من شرائع الأنبياء السابقين . » ^(١) . فإذا آمنتم بهذا النبي الأمي الذي أرسل للناس كافة ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أي نصيبين ، فالكفل ؛ هو الحظ والنصيب ، وهو في الأصل كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط . فيكون التأويل : يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي كما يحفظ الكفل الراكب . ﴿ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى والإنجيل ، وبمحمد صلى

(١) كبرى اليقينيات الكونية ، ص ١٩١ .

الله عليه وسلّم والقرآن، كما في الحديث المروي عن أبي موسى الأشعري ^(١) رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "ثلاثة يؤثرون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، والعبد المملوك الذي أدّى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران" ^(٢). ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني هدي يتبصر به من العمى والجهالة. وقال ابن عباس: النور؛ هو القرآن. وقيل: هو الهدى والبيان. أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به. ﴿ ويغفر لكم ﴾ ما سلف من كفر ومعاصي قبل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلّم. ﴿ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾.

قيل: لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله تعالى: ﴿ أولئك يؤثرون أجرهم مرتين ﴾ قالوا للمسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين؛ لإيمانه بكتابكم وكتابنا، ومن لم يؤمن فله أجر كأجركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أي ليعلم، و (لا) زائدة. وأهل الكتاب هنا؛ اليهود وأصحاب التوراة الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلّم وحسدوا المؤمنين..

«أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت: ﴿ أولئك يؤثرون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم فقالوا: لنا أجران ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته .. ﴾ الآية. فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب، وزادهم النور. ليعلم الذين لم يؤمنوا به أنه لا أجر لهم ولا نصيب من فضل

(١) عبد الله بن قيس (٢١ ق. هـ - ٤٤ هـ) من بني الأشعر، قحطاني من اليمن، قدم مكة حين ظهور الإسلام فأسلم وهاجر إلى الحبشة، ولآه عمر رضي الله عنه على البصرة، وتولى الكوفة زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما. كان أحد الحكمين في معركة صفين، شارك في الجهاد وافتتح أصبهان والأهواز زمن ابن الخطاب. له في الصحيحين خمسة وخمسون وثلاثمائة من الأحاديث.

(٢) البخاري: ٩٧ و ٢٨٤٩. ومسلم في باب الإيمان: ١٥٤.

الله ، فقال تعالى في الآية التي تلت : ﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ . ﴾ يعني الذي خصكم به من فضل النبوة و التفضيل على جميع الخلائق .^(١)

و قد جاء في الصحيح عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا ، اعملوا بقية يومكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا ، وتركوا . واستأجر آخرين بعدهم ، فقال لهم : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا ، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا : ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه ، فقال : أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا . فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم حتى غابت الشمس ، واستكملوا أجر الفريقين كليهما . فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور "^(٢) .

(١) التفسير المنير : ج ٢٧ ص ٢٣٦ .

(٢) صحيح البخاري ، الجزء الأول ، كتاب ١٣ ، باب ١٦ ، حديث ٥٣٣ .

النداء الرابع والسبعون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

المجادلة/ ٩

هذا الخطاب فيه قولان :

- القول الأول أنه خطاب للمؤمنين ، لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بأن الله يسمع نجواهم ، ويعلم ما تكن صدورهم ولا يخفى عليه شيء من شؤونهم كافة . ﴿إذا تَنَاجَيْتُمْ﴾ والتناجي هو التسار ، والمناجاة ؛ المسارة . فإذا تساررتم أو تحدثتم بالسر ، وانفقتم على أن تبيتوا مقصداً من المقاصد لتعملوا على تحقيقه ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي لا تسلكوا طريقة اليهود والمنافقين في التناجي ، فقد بينت لكم كيف كان اليهود والمنافقون يتناجون بالإثم والعدوان ليمكروا بالمسلمين ، وعادوا إلى أسلوبهم فعصوا ولم يلتزموا بالأمر الإلهي . والمناجاة بالإثم هي ما يقبح من القول ، والعدوان هو ما يؤدي إلى الظلم ، ومعصية الرسول ما يكون خلافاً عليه . ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أما إذا كان لا بد من أن تتناجوا فيما بينكم فلتكن المناجاة في أمور الخير والطاعة ، وفيما لا يغضب الله ورسوله .

«أريد من النهي هنا التعريض بأولئك الذين كانوا يدورون في المجالس يشيعون السوء ويتناقلونه حتى يؤثر ذلك في أقارب الغائبين في الغزو من المؤمنين الخُلَص ، فكانوا يقولون : تمَّ كذا وكيت ، فكانت تتخلع قلوب أقارب المؤمنين من سوء ما يشاع عن أهلهم ، وكان يكاد يؤثر ذلك فيهم ، لولا أن الكذب حبله غير طويل ، فلم يلبث الغائبون أن يعودوا

منصورين على خير ما يكون النصر ، ويفتضح أمر أولئك الذين لا تخلو منهم أمة ، أولئك دعاة التردد والهزيمة ، ضعفاء النفوس ، لا تقوى نفوسهم على مجالدة أعدائهم ، فيلجؤون إلى مقالة السوء يرددونها ، يرجون من وراء ذلك الفت في عضد خصومهم . ولقد كان اليهود والمنافقون يلجؤون إلى هذه الحال دائماً . فكانوا يتناجون دون المؤمنين ، وكلما مروا بهم يتغامزون . فلما كثر ذلك شكوا منهم المؤمنون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهاهم عن ذلك . ولكن الضعيف دائماً يجد في هذا التناجي سلوة يستر بها ضعفه ، فلم ينتهوا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ . . ﴾ المجادلة / ٨ . وكانت هذه الحال حالاً ذميمة مؤذية ، فهي المؤمنين أن يفعلوا هذا فيكون فيهم هذا الصنف من الناس ، فهم لم يكن منهم هذا التناجي المذموم حتى يُنهوا عنه ، إنما نهوا عنه تعريضاً بأولئك الذين لا يعيشون إلا في الظلام ، ويصطادون في الماء العكر . هو تحذير للمؤمنين أن يفعلوا فعلهم فيستحقوا ما استحق أولئك من العقوبة . » (١) .

- القول الثاني في هذا النداء ؛ أنه خطاب للمنافقين ، وإنما سماهم مؤمنين باعتبار ثوبهم الذي يظهرون فيه . ويرى بعض المفسرين أنه الأصح لأن المقصود : يا أيها الذين آمنوا بألستهم ، وقيل : آمنوا بزعمهم ، كأنه قال : لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . وتناجوا بالبر والتقوى ؛ أي بالطاعة وترك المعصية . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي راقبوه وتصوروه مطّلعاً عليكم أثناء إقدامكم على أي عمل من الأعمال ، مادمتم تؤمنون بجمعيته لكم بالعلم ، ولا تشكون في أمر البعث في الحياة الأخرى ، حيث الحساب والعقاب ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (٢) . ثم قال تعالى في تعليل ما تقدم : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾

(١) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ١٢٥ و ١٢٦ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي : ١١٣٣ .

فأسندت النجوى إلى الشيطان باعتبار أنه الذي يوسوس بها ، ويزينها للناس فيرتكبونها ، وغايته هي : ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، ولكن ما داموا مؤمنين بالله ورسوله والمنهج الذي ارتضاه لعباده فلن يضرهم منه شيء . فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يحزنه" (١) .

وليكن في علم الذين آمنوا إيماناً سليماً أن الشيطان لن يستطيع أن يضرهم إلا بشيء قد كتبه الله عليهم ، وحسبهم أن الله قادر على أن يرد كيده الشيطان ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ ، وما عليهم إلا أن يتوكلوا على الله ويستعينون به من الشيطان الرجيم ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ وَهُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ _ النحل / ٩٩-١٠٠ _ .

نختم بيان النداء بالحديث التالي : عن صفوان بن محرز ، قال : كنت أخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يُعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين" (٢) .

(١) صحيح مسلم / ٢١٣٨ . وروي نحوه عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة .

النداء الخامس و السبعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا ، يَرَفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

— المجادلة / ١١ —

لما نهى الله تعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر، أمرهم بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة، إذ كان المؤمنون يتنافسون في القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتسابقون إلى مجلسه، لا يكاد أحد يؤثر غيره بمجلسه من رسول الله . « واتفق أن رسول الله جلس يوماً في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان الرسول يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس ، منهم ثابت بن قيس ابن شماس ، وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فردَّ النبي عليهم السلام ، ثم سلّموا على القوم ، فردّوا عليهم ، ثم قاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فلم يفسحوا ، وشق ذلك على النبي ، فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ويا فلان ، فأقام نفرأ بقدر أولئك نفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهية في وجوههم .^(١) » .

(١) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ١٢ - ٧ ، والخازن ٤ ص ٢٤٠ ، والقرطبي : ١٧ / ٢٩٧ .

وجد المنافقون من هذا منفذاً للإفساد بين المسلمين ، عسى أن يصلوا منه إلى قلوب المؤمنين ، فقالوا : ما عدل رسول الله بإقامته من أخذ مجلسه وأحب قربه لمن تأخر عن الحضور . فجاء هذا النداء الإلهي يذكر المؤمنين بإيمانهم الذي يوجب طاعته وطاعة رسوله ، جاء يعطيهم درساً جديداً في أدب المجالسة ، وإلى أحسن الآداب مع رسولهم ومع بعضهم ، ويدعوهم للإقلاع عن تقاليد الجاهلية ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ﴾ أي وسَّعوا لغيركم ، ولَبُّوا الطلب وأجلسوا من كان في حاجة إلى الجلوس ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ في رحمته ، أو منازلكم في الجنة والمجالس فيها . وقيل : وسع الله عليه خيري الدنيا والآخرة ، وقيل : وسَّع عليكم في قبوركم ، أو في صدوركم ، أو في رزقكم ، وفي كل ما تحبون التوسعة فيه .

ولئن نزلت الآية في خصوص التوسع في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها دعوة عامة في كل المجالس التي يكون فيها خير الناس كمجالس القرآن والحديث ، ومجالس العلم والذكر ، ونحو ذلك ، ليتساوى الناس بالخط في الأخذ من العلم والخير . ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ أي انهضوا وارتفعوا ، وأصله من الشز ؛ وهو ما ارتفع من الأرض . والمراد هنا ؛ النهوض من المجلس إذا قيل لكم انهضوا للتوسعة على المقبلين . « قال الحسن وقتادة والضحاك : إن المعنى ؛ إذا دُعِيتُمْ إلى قتال أو صلاة أو طاعة فأجيبوا . وقيل : إذا دعيتم للقيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوموا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحياناً يؤثر الانفراد في أمر الإسلام ، أو لبعض من سألته ، ولا مانع من تعميم الحكم في كل مجلس . فإذا دعت الحاجة إلى أن ينفرد صاحب المجلس في أمر أو إلى أن يخلو ببعض الجالسين فله أن يطلب في رفق إلى الجالسين أن يقوموا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم ضرراً من فوات المصلحة التي دعت إلى الانفراد . أما أن يقيم القادم إلى المجلس أحداً ليجلس هو فلا يجوز . فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ،

ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم" ^(١) . إلا أن مكارم الأخلاق تقضي على الجالسين بتقديم أولي الفضل . بذلك جرى عرف الناس وعوائدهم في القديم والحديث . ولقد كان هذا هو الشأن بين الصحابة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يقدمون بالهجرة وبالعلم وبالسن . روى أبو بكر بن العربي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وقد طاف به أصحابه ، إذ أقبل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه فوقف وسلم ، ثم نظر مجلساً يشبهه ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه أصحابه أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر جالساً على يمين النبي صلى الله عليه وسلم فتزحزح له عن مجلسه ، وقال : ها هنا يا أبا الحسن ، فجلس بين النبي وبين أبي بكر ، فقال : " يا أبا بكر إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل " ^(٢) .

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ بالله فلم يخالفوا هذا الأمر الإلهي ، وامتلأوا وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم ﴿ والذين أوتوا العلم دَرَجَاتٍ ﴾ أي ويرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم بأسرار التشريع ، إذ أدركوا ما في هذا الأمر من محاربة النفس والقضاء على غرورها وأنانياتها وكبرياتها ، فلم يجدوا في أنفسهم غضاضة أو استياء من الإذعان له ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ عند الله على من سواهم في الجنة . إذ بقدر ما يخضع الإنسان نفسه لأوامر خالقه وأوامر رسوله الكريم ، بقدر ما يسمو وترتفع درجته عند الله ، ذلك لأن إبليس لم يعص ربه إلا عندما تملكه الغرور بنفسه فأبى أن يطيع ربه ويسجد لآدم وقال : (أسجد لمن خلقت طينا ؟) .

اختلف العلماء في المراد هنا بالذين آمنوا والذين أوتوا العلم . ولكن ما هو أكيد ؛ دلالة الآية على ما يلي :

(١) الجامع لأحكام القرآن ، وزيادة الجامع الصغير / ٣٩٩٥ .

(٢) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ١٢٨ . وجاء مثل ذلك في تفسير الخازن : ٤ ص ٢٤١ . وقد جاء حديث أنس

رضي الله عنه في الجامع الصغير برقم : ٢٦١٣ .

١- ضرورة احترام وتوقير العلماء ومجالس العلم والعلماء .

٢- حث الإسلام على طلب العلم والعمل به ، طالما قال : يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . فلا نكاد نرى ديناً حث على العلم بمقدار ما حث عليه الإسلام ، ولا نرى نبياً حض على العلم وأمر به وشدد عليه مقدار ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نجد كتاباً سماوياً وغير سماوي رفع قيمة العلم وميز العلماء وأشاد بفضلهم وأعلى منزلتهم في الدنيا والآخرة بمثل ما جاء به القرآن الكريم . وسأورد مثلاً واحداً لبيان صحة هذا الأمر وتأكيد موقف الدين الإسلامي من العلم ، وأنه دين المعرفة والفكر والنظر ، ذلك لأن الآيات والأحاديث كثيرة . ففي فضيلة العلماء قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر/٢٨ . وقال صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " ^(١) .

وفي فضيلة التعلم قال الله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل/٤٣ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " ^(٢) .

وفي فضيلة التعليم قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ النحل/١٢٥ . ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : " لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها " ^(٣) .

٣- جانب آخر ترشد إليه الآية ، ومن المفيد التذكير به ، وهو نوع العلم الذي حث عليه الإسلام . ولئن قلنا في كتابنا الأول أن أول ما يجب أن يتعلمه المسلم أمور عقيدته ، ويعمل على تفهم المنهج الإلهي للعمل به ، فإن النداء الذي نحن بصدده والأحاديث

(١) سنن أبي داود : ٣٦٤١ ، وزيادة الجامع الصغير : ٤٢٨٥ .

(٢) انظر ريباض الصالحين ، كتاب العلم : ص ٤٨٧ .

(٣) صحيح مسلم : ٢٩٨٩ / ١٥ .

الشريفة لا سيما الحديث الذي ذكرناه قبل قليل " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " اطلبوا العلم ولو في الصين " ^(١) . فإن في ذلك دعوة لتعلم العلوم المختلفة التي فيها فائدة للمسلمين ، وتساعدهم على التطور والتقدم . إذ لا شك أن بلاد الصين لم تكن مسلمة عند صدور هذا الحديث ، فلا ريب أن كلمة (الصين) في هذا الحديث ذات معنى مجازي ، بمعنى أنه يفهم منها ؛ كل بلد أجنبي بعيد عن جزيرة العرب ، سبق العرب في مجال من مجالات العلم والثقافة . ففي هذين الحديثين إذن حث على الخروج و السفر في طلب العلم ، وأن الله لرضاه على من سافر في طلب العلم بهدف خدمة أمته و دينه ، تكفل به حتى يرجع . « لو كان العلم المقصود هو علم الدين والفقهاء دون غيره لكان أجدر بطالبه أن لا يبرح مكان إقامة خير المسلمين المعلم الأول الذي قال عن نفسه : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " كما قال : " إنما بعثت معلماً " . وهل يعقل أن يطلب النبي من الناس أن يقصدوا غيره طلباً لعلم الدين ؟ . إنه جليّ و واضح أن العلم الذي قصده النبي صلى الله عليه وسلم هو كل علم نافع موجود في الخارج ، تفتقر إليه بلاد المسلمين ، لتنميتها وتقدمها وازدهارها . . . ويمكن للقارئ الكريم أن يلاحظ أن جميع أحاديث النبي المذكورة في هذا الموضوع قد ترددت فيها كلمة (العلم) مجردة من كل صفة تحدد طبيعة هذا العلم أو تحدد مجالاته . وهذا الفهم واضح في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لما دعى لعبد الله بن عباس قائلاً : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " ^(٢) ، فمن خلال هذا الحديث نفهم جلياً و بكل وضوح أن النبي قصد بالتحديد علم الدين و التأويل دون غيرهما لفائدة ابن عباس . ومن هذا نستنتج أن النبي صلى الله عليه وسلم لما يتحدث عن العلم بصفة عامة ، فهو يقصد العلم بمفهومه الواسع . العلم الذي يشمل المعارف المتداولة و المعروفة في جميع الأمصار ذلك الوقت . أجل ، كل هذه العلوم قصدتها

(١) فيض القدير للإمام المناوي / ١١١٠ .

(٢) رواه الإمام أحمد ، و أخرجه : البخاري / ١٤٣ ، و مسلم / ٢٤٧٧ . بلفظ اللهم فقهه في الدين .

القرآن والحديث كما قصدا في نفس الوقت وإلى جانبها علوم الفقه والدين . فالأولى تعتبر علوم البصر، والثانية علوم البصيرة . . . فالبصر لا بد منه لتوجيه الأبحاث والمعارف والتجارب والاكتشافات في المرحلة الأولى ، ثم تأتي البصيرة مكملة ومقوية اليقين والإيمان بوجود الله . فبالبصر والبصيرة نصل إلى الحقيقة الأخيرة ، وبهما يخشى الله من عباده العلماء»^(١) .

﴿والله بما تعملون خبير﴾ فهو سبحانه يرفع في الدرجات بقدر ما يعلمه من أعمال العباد الظاهرة والخفية ، وخبير بالعلم الذي أوتوه . ولن يرفع العلم صاحبه حتى يكون هو من العاملين به لخير نفسه ومجتمعه . فكم من فرد مغمور ذاع صيته بالعلم ، وكم من أسرة لازمتها الفاقة والتعاسة فأنقذها العلم . وكم من أمة خيم عليها الذل والهوان عندما تنكبت طريق العلم .

قال الحسن : قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم ، فإن الله تعالى يقول : يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات . وقيل : إن العالم يحصل له بعمله من المنزلة والرفعة ما لا يحصل لغيره ، لأنه يقتدى بالعالم في أقواله وفي أفعاله كلها .

وعن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي "^(٢) .

(١) القرآن الكريم والطب الحديث : ص ٢٣ و ٢٤ .

(٢) متفق عليه ، ذكره مختصر مشكاة المصابيح برقم ١٣٦ ، ص ٨٠ ، وعقب عليه قائلاً : إن المقاييس التي يطمئن بها الإنسان على سلوكه نحو الجنة : مدى حرصه على التفقه في الدين ، لأنه يدل غالباً على خشية الله ، وفيه إشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك الجنة لأحد .

النداء السادس والسبعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ
صَدَقَةٌ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

المجادلة/ ١٢

درس آخر من دروس التأديب بآداب الإسلام ، وجهه سبحانه وتعالى أولاً إلى
الذين أكثروا من المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه . وعودة
خاطفة إلى النداء السابق تذكرنا كيف كان الصحابة يتنافسون في القرب من رسول الله صلى
الله عليه وسلم في مجلسه ، وكيف كان يصعب على بعضهم أن يقوم لمن يأتي المجلس
متأخراً . وليس لهم من هدف إلا تلقف العلم والتوجيه والإرشاد من رسول الله صلى الله
عليه وسلم . هذا بالإضافة إلى أن بعض الصحابة كان يناجي الرسول في بعض شأنه ،
وكانوا يكثر من هذه المناجاة ، فكان ذلك يشق على الرسول ، وقد يستثقله الحاضرون .
فأراد الله عز وجل وهو الهادي لأحسن الآداب أن يحد من هذه المناجاة ، فخاطبهم قائلاً:
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ أو أردتم مسارته فيما بينكم وبينه ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ
نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ أي عليكم أن تقدموا عند النجوى أو قبلها صدقة تصدقوا بها على الفقراء
وفي هذا تعظيم لأمر الرسول ، وإكبار شأن مناجاته ، وتخفيف عن النبي صلى الله عليه
وسلم بالتقليل من المناجاة ، ومنها تهوين الأمر على الفقراء الذين قد يغلبهم الأغنياء على
مجلس الرسول ، فإنهم إذا علموا أن قرب الأغنياء من الرسول ومناجاتهم تسبقها الصدقة
لم يضجروا ، ومنها عدم شغل الرسول مما لا يكون مهماً من الأمور ، فيتفرغ للرسالة ،
ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ يعني تقديم الصدقة على المناجاة ، لما فيه من طاعة

الله وطاعة رسوله ﴿ وَأَطِئْهُ ﴾ لأنفسكم ، لأنها تعبر عن مبلغ احتقاركم للمادة في سبيل الحصول على رضوان الله تعالى وحسن مثوبته . ويراد بها هنا محاربة النفس وتخلي المرء عن بعض ما هو في حاجة إليه .

بهذا الخطاب التوجيهي انتهى أهل الباطل عن النجوى ، لأنهم لم يقدموا بين يدي الرسول الصدقة المطلوبة . « أما الفقراء وأهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما الأغنياء وأهل الميسرة فضنُّوا . واشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الرخصة . وقال مجاهد : نُهِوا عن المناجاة حتى يتصدقوا ، فلم ينجح إلا علي بن أبي طالب تصدق بدينار وناجاه . ثم نزلت الرخصة ، فكان علي رضي الله عنه يقول : آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، وهي آية المناجاة . وعن علي ابن أبي طالب أيضاً قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : "ما ترى ديناراً ؟" ، قلت : لا يتيقونه ، قال : "نصف دينار" ، قلت : لا يتيقونه ، قال : "فكم ؟" ، قلت : شعيرة ، قال : "إنك لزاهد" ، قال : فنزلت : ﴿ آأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ الآية : ١٣ / المجادلة ، قال : فبي خفف الله عن هذه الأمة . » (١) .

جاء في تفسير آيات الأحكام ما يفيد أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فهموا أن المقصود من شرعية هذا الحكم ؛ الحد من المناجاة الكثيرة التي تضيع وقت الرسول صلى الله عليه وسلم ولو أنهم فهموا أن المقصود التوسل بالمناجاة لتكون باباً من أبواب الصدقة ما تأخروا ، فمنهم من نزل عن جميع ماله ، ومنهم من كان يريد أن يتصدق بالثلثين لئلا يرثه إلا ابنة واحدة . وما دام المقصود من المناجاة التي تشغل الرسول فليحرصوا على أنهم وجدوا في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فسحة (٢) . أي لا حرج عليكم

(١) تفسير الخازن : ٤ ص ٤٢ ، وحديث الإمام علي أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

(٢) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ١٣٢ .

إذ إن هذه الصدقة لم تشرع إلا لتكون محكاً لاختبار مدى حبكم لله وخروجكم عن بعض الأموال العزيزة لديكم من أجله . وإن في حرصكم على مناجاة الرسول وسؤاله عن أمر دينكم وديناكم مع تخلفكم عن تقديم تلك الصدقة ما يعبر عن عجزكم عنها ، وسيكتفي الله بهذا القدر منكم دون مناقشة لأن من صفاته جل وعلا الرحمة والمغفرة .

فالدعاء المذكور يرشد إلى ما يلي : ١ - الحض على تقديم الصدقة لله تعالى ، كلما دعا الداعي لمناجاته في كل أمر يهم الإنسان أن يناله من موله .

٢ - عدم وقوع تقصير من الصحابة ، « ليس في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ما يدل على أن الصحابة قصرُوا . فإنه يحمل على معنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفاً ، ومثل هذا يجوز أن يعبر عنه بالتوبة ، ولذلك عقب عليه بما يكون شكراً على هذا التخفيف فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني أنه إذا تاب عليكم وكفاكم هذا التكليف فاشكروه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومداومة الطاعة ، لأنه المحيط بأعمالكم ونياتكم »^(١) .

(١) المصدر السابق ص ١٣٣ .

النداء السامع والسبعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

الحشر/ ١٩

لاحظنا في النداءات السابقة كيف حض الله سبحانه عباده مرات ومرات على ضرورة تقوى الله . وأشرنا في مناسبة الحديث عن التقوى إلى أن الأعمال التعبدية لم تشرع أصلاً إلا لتكون وسائل لتقوى الله بما تطبعه في النفس من ملكة مراقبة الله ومخافته وتجنب كل ما يغضبه . كما أشرنا إلى أن من أهم ما دعا إليه سيد المرسلين بعد الدعوة إلى الإيمان والإسلام ؛ الدعوة إلى التقوى ، وكيف جعلها معيار التفاضل بين المسلمين بقوله : " لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى " (١) . وقد تكرر الأمر بالتقوى في ثنايا كثير من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ _البقرة/ ١٩٠_ . وهذه الدعوة إلى التزود ذات صلة وثيقة بالخطاب المذكور أعلاه . ففي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ تأكيد على ضرورة اختيار المؤمن للأعمال التي تنفعه في الحياة الأخرى ، إذ على المؤمن أن يتزود من سوق الدنيا الفانية إلى الحياة الباقية . فكما يتزود الإنسان الذي عزم على السفر لأداء فريضة الحج مثلاً _ أو إلى أي بلد آخر _ بما يلزمه من حاجيات تفيده في سفره وترحاله ، فمن الأولى والأهم أن يتزود بما يحتاجه إلى ترحاله الذي هو قادم طال عمره أم قصر . فإن زود نفسه بتقوى الله من أجل غد قريب ، سيلقى سعادة أبدية . لأن الله

(١) أنظر إن شئت صفحة : (٢٨) .

أخبرنا أنه أعد الجنة في الآخرة للمتقين فقال : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ _ آل عمران / ١٢٤ _ ، وفي هذا إشارة إلى ما يترتب على التقوى وخوف الله من مجازبة النفس للشهوات الممقوتة . ثم إننا نذكر هنا بأمرين آخرين :

١- الأمر بالتقوى لم يقتصر على المسلمين ، بل أمر الله تعالى عباده جميعهم بضرورة التقوى ، ومن ذلك قوله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ _ النساء / ١ _ وقوله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ _ الحج / ١ _ والساعة آتية لا ريب فيها .

٢- تأكيد الله تعالى على أن التقوى تخفف مشاكل الحياة الدنيا ، وتيسر سبل الرزق للمتقي من حيث لا يؤمل ، قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ _ الطلاق / ٢-٣ _ .

يقول أبو يزيد البسطامي : (المتقي من إذا قال ، قال الله ، وإذا عمل ، عمل الله) . والتقوى فيها جماع الخير كله ، لذا عني القرآن الكريم بها عناية كبرى ، وأكثر من توجيه النفوس إليها ، وكان له في ذلك أساليب متنوعة .

يقول الشيخ الزكي أبو علي الحسن بن طارق الحلبي ، من المتأخرين :

أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ لَا الدُّنْيَا ظَفَرَتْ بِهَا وَأَنْتَ لَا شَكَّ فِي الْأُخْرَى عَلَى وَجَلْ
دَارُ الْإِقَامَةِ أَوْلَى بِالْعِمَارَةِ مِنْ دَارِ نَعِيمِكَ فِيهَا غَيْرُ مُتَّصِلْ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ مَا تَرْجُو النِّجَاةَ بِهِ فَلَيْسَ يُنْجِيكَ إِلَّا صَالِحُ الْعَمَلِ ^(١)

فالنداء دعوة للذين آمنوا أن يتقوا الله في السر والعلن ، في جميع أوامره ونواهيه ، في أداء فرائضه واجتناب معاصيه ، وأن ينظر كل واحد ما يقدم لغده من خير أو شر ، وما

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الأصفهاني الكاتب ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، قسم شعراء الشام ، تحقيق د. شكري فيصل ، الطبعة الهاشمية ، ١٩٥٩ .

يعمل من الصالحات التي تنجيه يوم القيامة من عذاب الله «لَعَدَ ؛ هو يوم القيامة ، سمي به لقربه وتحقق وقوعه ، وتنكيره للتعظيم وإبهام أمره ، كأنه قيل : لَعَدَ لا يعرف كنهه لعظمه . فيكون المعنى : افعلوا ما أمر الله به ، واتركوا ما زجر عنه ، واتقوا عقابه ، ولتأمل نفس أي شيء قدمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وكرر الأمر بالتقوى للتأكيد والحث على ما ينفع في الآخرة ، فإن الله لا تخفى عليه من أعمالكم وأحوالكم خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم صغيرها وكبيرها ، قليلها وكثيرها »^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي مطلع على أعمالكم وحقائقها وكنهها فيجازيكم عليها .

ننهي الحديث عن هذا الخطاب الإلهي بالتذكير بأمر هامة أرشد إليها :

١- لزوم تقوى الله في أوامره ونواهيه ، وأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

٢- في تكرار الأمر بالتقوى تأكيد ، وقال البعض : يحمل الأمر الأول على أداء

الواجبات والتوبة فيما مضى من الذنوب ، والثاني على ترك المعاصي مستقبلاً .

٣- كان النبي يستشهد بهذه الآية في الحث على عمل الخير وأداء المعروف .

(١) التفسير المنير: ج ٢٨ ص ١٠٢ .

النداء الثامن والسبعون: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسَرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .

—المتحنة/ ١—

هذا النداء هو مطلع سورة المتحنة ، وقد ابتدأها تعالى بالنهاي عن موالة المشركين ، نظراً لكثرة إيذاء المؤمنين وعداوتهم لله وللمن آمنوا ، وإلجائهم إلى الهجرة وترك ديارهم وأوطانهم .

وقد اتفق المفسرون على أن السورة تشير إلى نفر من المؤمنين الصادقين ، صدرت منهم بعض أعمال المنافقين ، ولكنها لم تكن عن سوء قصد . وأكثر الروايات على أن سبب نزولها قصة (حاطب بن أبي بلتعة) .

« وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم . . فلما عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على فتح مكة لما نقض أهلها العهد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتجهز لغزوهم ، وقال : " اللهم عمّ عليهم خبرنا " ، فبعث حاطب كتاباً مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً

فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك ، استجابة لدعائه . فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها . .
فقد أخرج الشيخان عن علي رضي الله عنه أنه قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنا والزبير والمقداد ، فقال : "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة ، معها كتاب ،
فخذوه منها" ، قال : فانطلقنا تتعادي بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ،
فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين
التياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من أبي بلتعة
إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا حاطب ، ما هذا ؟ " فقال : يا رسول الله لا
تعجل عليّ ، إني كنت امرأةً ملصقةً في قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من
المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب
فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا
أرضى بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه قد صدقكم " فقال
عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" إنه قد شهد بداراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد
غفرت لكم " . ففاضت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . وأنزل الله عز وجل هذه
الآية . (١) .

ولتعليم أصحاب رسول الله ، ولتعليم من يأتي بعدهم من المسلمين أنزل الله تعالى
هذا التشريع فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عن عقيدة ثابتة ويقين راسخ على مدى الأزمان :
﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أي عدو الله الذي كفر به أو أشرك ولم يؤمن بوحديته وبما
أنزله في كتبه ، ولا عدو المؤمنين الذي خانهم أو أضر بمصالحهم أو قاتلهم أو أعان على

(١) صحيح البخاري : ج ٢ ، كتاب ٦٠ ، باب ١٩١ ، حديث ٢٩١٥ . وروضة خاخ : موضع بين مكة
والمدينة ، أما الظعينة : فهي المرأة في الهودج ، والعقاص : الشعر المظفور .

مقاتلتهم ﴿أُولِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْكَوْدَةِ﴾ والمراد هنا ؛ النصيحة بالمكاتبة وإرسال أخبار الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم ، ويقاس على هذه المكاتبة ما يمكن أن يحدث عن طريق وسائل الاتصال الحديثة في هذا الشأن ، ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي دين الإسلام والقرآن ، ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة بالتضييق عليكم ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي فقط لأنكم آمنتم بالله ، ولولا ذلك لما أخرجوا الرسول ولا أخرجوكم من دياركم ، فلا تتخذوهم أولياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي إن كنتم خرجتم من أوطانكم للجهاد في سبيل الله وطلب مرضاته ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي أنا أعلم منكم بما في نفوسكم فلا تنقلوا أخبار الرسول إلى أعداء الله ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ فيتخذ من يعادي الله و أهل الإيمان بالله أولياء يؤملون نصرهم في يوم من الأيام ، أو يشك في كمال علم الله ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الصواب ، وإن أظهر المعادي له الحب ، فإنما يعادونكم من أجل العقيدة ، فمتى سنحت لهم الفرصة لن يحترموا المادة التي منحتموها إياها . وقد أثبتت الأحداث التاريخية منذ عهد الرسالة النبوية كيد الكفار للعرب والمسلمين في كل مكان . لذا يعتصمنا الألم إذا رأينا أو سمعنا أن في المجتمع العربي والإسلامي من يفضي إلى أعداء الأمة بمعلومات تضر بمصالح العرب والمسلمين ومستقبل أمتهم وبلادهم ، أو حين نرى من يتنكر لشهداء أمتنا الأبرار الذين بذلوا دماءهم رخيصة للذود عن حياض الوطن والأمة وإعلاء كلمة الله ، فيضع يده بيد أعداء المؤمنين الذين اغتصبوا الأرض المقدسة وانتهكوا حرمانها . والله _ سبحانه _ يحذّرنا من هؤلاء الأعداء بقوله : ﴿إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمُ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ _ الممتحنة / ٢ . فلن يعتبرونكم أصدقاء مهما تقربتم إليهم سواء بحجة دفعهم إلى عملية السلام ، أو بحجة الفصل بين الرياضة والسياسة ، أو الاقتصاد والسياسة ، وما شابه من مثل هذه الأقوال التي لا تنطلي على المؤمنين .

«وقد دلّنا حديث رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم لحاطب بن أبي بلتعة ، وجوابه له والقرآن الذي نزل بسببه ، على أنه لا يجوز للمسلمين _ في أي الظروف كانوا _ أن

يتخذوا من أعداء الله تعالى أولياء يلقون إليهم بالمودة ، أو أن يمدوا نحوهم يد الإخاء والتعاون ، وذلك رغم ما كان قد اعتذر به حاطب من أن ليس له في قريش شيعة تدافع عنه أو يحمي بها ، فهو يريد أن يتخذ عندهم يداً يحمي بها ، عندما يحمي غيره بماله بينهم من قرابة أو أهل . . إن الآيات القرآنية نزلت صريحة تأمر المسلمين أن يجعلوا ولاءهم لله وحده ، وأن يقيموا علاقاتهم مع الناس أيّاً كانوا على أساس ما يقتضيه ولاؤهم لهذا الدين الحنيف والإخلاص له . وإلا فكيف يتصور أن يضحي المسلمون بأموالهم وأنفسهم وشهواتهم وأهوائهم في سبيل الله ؟ . . وتلك هي مشكلة كثير ممن يعدون أنفسهم مسلمين في هذا العصر . يقبلون إلى المساجد للصلاة ، ويتمتمون بالكثير من الأذكار والأوراد ، وتظل مسابحهم تطلق في أيديهم ، ولكنهم يقيمون علاقاتهم مع الناس على أساس الولاء للأهل والعشيرة ، أو مصلحة المال والدنيا ، أو وحي الشهوات والأغراض ، ولا يهمهم أن يبيعوا بذلك الحق بالباطل ، أو أن يجعلوا من دين الله غلاباً للأُماني الدنيوية الحقيرة . أولئك هم المنافقون الذين بسببهم يعاني المسلمون من صنوف التأخر والتفريق والضعف . وتلك هي الواجهة التي تقام في كل مرة وفي وجه المؤامرات المختلفة التي تحاك ضد إسلام المسلمين ودينهم .^(١)

(١) فقه السيرة ، للدكتور البوطي ، ص ٤٣٠ .

النداء التاسع والسبعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَأَتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكَمْ حُكْمُ اللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

—المتحنة/ ١٠—

يقول الأستاذ الشيخ محمد علي السائيس : « غير المؤمنين فريقان :

- الفريق الأول ؛ كافر عدو لله وللمؤمنين ، لا يألو جهداً في أذاهم والإيقاع بهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وهؤلاء قد نهانا الله عن برّهم وتوليّهم وموادّتهم . بل وأمرنا أن نقعد لهم كل مرصد ، وأن نعد لقتالهم ما استطعنا من قوة . . .

- الفريق الثاني ؛ قوم كافرون ، ولكنهم لم يقاتلونا ، ولم يخرجونا من ديارنا ، ولم يظاهروا ، إما لعهد بيننا وبينهم ، وإما لأنهم قوم ضعاف لا يستطيعون حرباً ولا قتالاً ولا إخراجاً ولا مظاهرة على إخراج . وهؤلاء قد بين الله أنه لا ينهانا عن برّهم والإقساط إليهم بقوله : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ . . . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ﴾ _المتحنة/ ٨ و ٩_ .

وهناك فريق لا يعلم المؤمنون حالهم على الجزم ، وهم يظهرون الإيمان ، فهؤلاء بين الله حكمهم في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ۞ ﴾ الآية (١) .

وقد تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآية ، واتفق تفسير ابن كثير والخازن والقرطبي وغيره على بعض الروايات ، ومن خلاصتها نعلم أن الآية إنما أنزلت في امرأة أو نساء جئن مهاجرات بعد صلح الحديبية ، فجاء التوجيه الإلهي بامتحان إيمانهن ، حيث قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ۞ ﴾ لمعرفة حقيقة ما إذا كن قد هجرن مكة وجئن إليكم حباً في الله ، وفراراً بدينهن من أذى المشركين لضعفهن وعدم قدرتهن على تحمل أذى المشركين . « فإذا قضى نص العهد أن يبقى الرجال ، فهم يتحملون الأذى ، أما هؤلاء اللاتي اضطررن إلى الهجرة فكيف تلزمهن البقاء وهن لا يستطعن حماية أنفسهن ، فاخبروهن بما ترونه موصلاً إلى غلبة الظن بإيمانهن .

روي عن ابن عباس في كيفية امتحانهن أنه قال : كانت المرأة إذا جاءت النبي صلى الله عليه وسلم حلقها عمر رضي الله عنه بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله . . . » (٢) . فإذا حلفت على ذلك لم يردّها .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَ ۖ ۞ ﴾ منكم ، فإنكم وإن اخترتم أحوالهن فالغرض من الامتحان الوصول إلى غلبة الظن ، وإلا فالحقيقة لا يعلمها إلا الله وحده ، فهو المطلع على ما في القلوب ويعلم السر وأخفى . ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ۖ ۞ ﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم ، وهو الظن الغالب ، ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ ۞ ﴾ أي لا تردوهن إلى أزواجهن الكافرين ، إذ لاحل بين المؤمنة والمشرک ، لوقوع الفرقة بينهما بخروجها مسلمة ، وهذا

(١) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٣ .

معنى: ﴿لَا هُنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وهذا يفيد أن النكاح في المستقبل لا يستأنف للكفار . قال الألوسي : والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرک .^(١) ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي ادفعوا لأزواجهن الذين وجب التفريق بينهم مثل ما أنفقوا عليهن من المهر ، «وقيل : إن ذلك واجب ، وقيل : إنه مندوب . . . وقد فعل ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روي أن ربيعة الأسلمية لما تزوجها عمر أعطى زوجها ما أنفق . وقيل : إن هذا الحكم غير باق ، لأن ذلك كان في المهاجرات ، وقد ذهبت الهجرة ، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح : "لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا"^(٢) ، فقد انتهى العهد بما فيه بعد الفتح . . إنما لا مانع من أن يعمل بهذا الحكم في العهود التي تجري بين المسلمين والكفار في مثل تلك الحالة التي كان عليها المسلمون يومئذ . فإذا عاهدناهم على أن من جاءتنا مؤمنة من أزواجهم رددنا عليهم ما أنفقوا وجب الوفاء بذلك العهد . . ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي إنه لا تثريب عليكم في إجراء عقود الزواج معهن بعد إعطاء الأجور . وهناك خلاف فقهي حول وقوع الفرقة بين المؤمنة التي جاءت مهاجرة ولها زوج كافر في دار الحرب ، فقال أبو حنيفة بوقوع الفرقة بينهما ولا عدّة عليها ، وقال الإمام الشافعي ومالك والأوزاعي بوقوع الفرقة بانقضاء عدتها ، فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي زوجته .^(٣)

﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ عَصَم : جمع عصمة ، وهي ما اعتصم به من العقد أي من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها ، فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما . ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة فاطلبوا ما أنفقتم من المهر من

(١) انظر تفسير الألوسي : ٢٨ / ٧٦ .

(٢) صحيح البخاري : باب ٢٧ ، حديث ٢٦٧ ، وباب ١٩٠ ، حديث ٢٩١٢ .

(٣) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ١٤٤ .

تزوجها منكم، ﴿وَلَيْسَالُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ و ليطلبوا هم_المشركون_ ما أنفقوا على أزواجهم المهاجرات .

«قال ابن العربي : كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار يقول للكفار : هاتوا مهرها . و يقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمة مهاجرة : رُدّوا إلى الكفار مهرها ، و كان ذلك نَصَفًا و عَدْلًا بين الحالتين .^(١) ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ فاتَّبِعُوهُ و لا تحيدوا عنه وهو استثناء النساء من بنود صلح الحديبية ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يحكم به لكم و عليكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يصدر أي حكم إلا عن حكمة و لغاية سامية جلّت حكمته جل جلاله»^(٢) .

(١) انظر تفسير القرطبي: ٦٨ / ١٨ .

(٢) صفوة التفاسير: ٣ / ٣٦٥ .

النداء الثمانون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ
الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ .

المتحنة/ ١٣

قل في مناسبة نزول هذه الآية: إن أناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود
بأخبار المسلمين ويواصلونهم فيصيبون من ثمارهم ، فهاهم الله عز وجلّ عن ذلك وعن
موالاتهم واتخاذ الأصدقاء أو الأخلاء منهم ، بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ فاستحقوا الطرد من رحمته أولياء ، ولا تأمنوا نصرتهم لأنهم لن يكونوا
صادقين في نصرتكم ولا مؤتمنين . ذلك لأنهم ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي من ثواب
الآخرة ، وأصبحوا لا يوقنون بالجنة ونعيمها بسبب كفرهم وعنادهم بالرغم من قيام الأدلة
والبيّنات والمعجزات على الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾
أي كيأسهم من موتاهم لا اعتقادهم عدم البعث .

«قال ابن عباس : يريد حاطب بن أبي بلتعة ، بقوله : لا تتولّوا اليهود والمشرّكين ،
وذلك لأنّ جمعاً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم ،
فنهوا عن ذلك ، ويئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، أي كما يئس
الذين لا يؤمنون بالبعث من موتاهم أن يرجعوا ، وسبب يأسهم تكذيبهم بصحة نبوة
الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم .»^(١)

(١) التفسير المنير: ج ٢٨ ص ١٥٥ .

هذا النهي عن موالاة اليهود ليس مقصوداً على مناسبة النزول ، وإنما هو عام ينبه المؤمنين إلى عدم طلب النصره من الذين غضب الله عليهم ، مهما اختلف الزمان والمكان ، ما دام هناك مسلمون يؤمنون بالله واليوم الآخر وأن النصر بيد الله يؤتاه من يشاء ، وما دامت هناك فئات معادية لهم من اليهود وأنصارهم . ولو التزم به المؤمنون _ كلٌّ في موقع مسؤوليته _ لما هروا إلى طلب النصره من الذين يفتكون بالعرب والمسلمين ويخربون ديارهم ، ولما أودع الأغنياء منهم أموالهم في مصارف الدول التي تتحكم فيها الرساميل الصهيونية . . أجل ، لو أنهم استمعوا إلى نداء الله هذا ، واستوعبوا أن خالق البشر أعلم بنفوس البشر ، وبما يصلح أحوال المؤمنين ، لكفوا عن موالاة أعداء الله . كيف لا وقد مضت خمسون عاماً في محاولات سلمية نزولاً عند ادّعاءات بعض زعمائهم وأعوانهم . وكلما اقترب العرب من اليهود ، كلما فجر اليهود معركة لضرب العرب والمسلمين . وكلما عاهدوا عهداً تقضوه . وإلا فأين مساحة فلسطين العربية ؟ وأين حدود تقسيم فلسطين لعام ١٩٤٨ ؟ بل أين القدس الشريف مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأين ؟ . وأين ؟ . إنها سياسة حكماء صهيون المرسومة تنفذ بحذافيرها ، والتي جاء فيها : « لكي نصل إلى هذه الغايات _ نشر الفتنة والمنازعات والعداوات المتبادلة _ علينا أن ننطوي على كثير من الدهاء والخبث خلال المفاوضات والاتفاقات . ولكننا فيما يسمى (اللغة الرسمية) سوف نظاهر بحركات عكس ذلك ، كي نظهر بمظهر الأمين المتحمل للمسؤولية ، وبهذا ستنظر إلينا حكومات (الأميين) التي علمناها أن تقتصر في النظر على جانب الأمور الظاهري وحده ، كأننا متفضلون ومنقذون للإنسانية »^(١) . ومن أكبر الأمثلة وأحدثها على السياسة الإسرائيلية ؛ ما حدث ويحدث في مباحثات السلام عقب حرب الخليج وحتى اللحظة . سنوات مرت وانقضت مليئة بالمراوغات من جانب العدو الصهيوني وحلفائه لإفراغ عملية السلام من مضمونها الحقيقي ، بعد أن وضعوا لها مبدأ (الأرض مقابل

(١) بروتوكولات حكماء صهيون : ص ٣٧ .

السلام) وقرارات مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة . ومن صور هذه المزاوغات أقوال رئيس الكيان الصهيوني (باراك) عن رغبته بإقامة السلام مع سورية الصامدة التي تفرق بوضوح بين السلام والاستسلام ، وفي الوقت ذاته تعلن السلطات الإسرائيلية عن إقامة (١٦٥٠) وحدة استيطانية جديدة في الضفة الغربية ، وتعتدي على المسجد الأقصى ، وترفض تطبيق اتفاق (واي بلانتيشن) مع أنه لا يعطي إلا الفتات من الحق العربي الفلسطيني فأين هو السلام الذي يتحدث عنه زعماء اليهود الذين غضب الله عليهم ولعنهم ؟ إنه سلام الابتسامة والمصافحة لالتقاط الصور الإعلامية بهدف خداع المجتمع الدولي « لنظهر على أننا المتفضلون الذين أعادوا السلام المفقود والحرية الضائعة للعالم المكروب ، وسوف نمنح الفرصة لهذا السلام وهذه الحرية ، ولكن في حالة واحدة ليس غيرها على التأكيد ، أي حين يعتصم العالم بقوانيننا اعتصاماً صارماً . . . »^(١).

أليس ما ذكرته _ وهو غيظ من فيض _ كافياً لأن يترث الذين يهرولون لأجل لقاءات مع إسرائيل ظاهرها تبادل علاقات رياضية أو اقتصادية ، وفي حقيقتها خطة للسيطرة على المجتمع العربي واقتصاده ؟

إن الغيرة على العروبة وعلى الإسلام ليست بالخطابات البليغة والشعارات التي لا مضمون لها ، إنما الغيرة تتجلى باتخاذ خطوات عملية تكشف مناورات العدو الصهيوني وحلفائه ، وتظهر الحق العربي وكيف صبر أصحابه على الضيم طويلاً أملاً في أن يرتدع المعتدي أو أن يرضى بالقليل من الحق العربي ، وأملاً في أن يفهم بعض أحلاف اليهود حقيقة الأمر فيقفوا إلى جانب الحق لا الباطل . كم من وسيلة إعلامية _ عربية وإسلامية _ بحكم تبعيتها لوسائل الإعلام الأمريكية والغربية تردد أقوالها عن مزاعم دولها في (الديمقراطية) الغربية وحتى الصهيونية أحياناً ، دون أن تفضح هذه الأساليب التضليلية ولو بشواهد من العصر . يحضرني منها افتراء سلمان رشدي في كتابه (آيات شيطانية) على

(١) المصدر السابق : ص ١٨ .

رسول الإسلام ، فكتابه لا يمثل أي اجتهاد أو رأي بل هو هلوسة وحقد ، إذ يضع النبي صلى الله عليه وسلم في مواقف لاتليق بأي إنسان ، وهم يدركون أن محاولة النيل من شخصية الرسول إنما هي للنيل من مكانة الإسلام ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الرمز الأساس للإسلام والمسلمين . ومن هنا فكتاب سلمان رشدي ليس مجرد لعب بالأحاسيس الإسلامية ، وإنما هو تهديد لأصل الوجود الإسلامي و الأمة الإسلامية . فكتابه فتوى غريبة لقتل الإنسانية المثلة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وحين صدرت فتوى الإمام الخميني ضد هذا الفرد قام الغرب وقعد يصور الفتوى على أنها ضد الحريات ، ووقف مع سلمان رشدي يدافع عن (حرية الكتابة) . إذا كان الأمر كذلك لماذا هاجموا (روجيه غارودي) عندما أصدر كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) يفند أكاذيب اليهود ويكشف حقيقتهم أمام العالم ، والذي جاء فيه : «إن هيمنة الصهيونية الإسرائيلية شبه الكلية على وسائل الإعلام في أمريكا وفرنسا تفرض على العالم هذا القلب للمعنى . . يجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان ويوقع فيه آلاف القتلى ، فتسمى العملية : (السلام في الجليل) . في أول كانون الثاني ١٩٨٩ سمعت في التلفزيون حصيلة انتفاضة الحجارة (٣٢٧) قتيلاً لدى الفلسطينيين ، و٨ قتلى في الجانب الإسرائيلي (معظمهم جنود يطلقون الرصاص) وفي اليوم نفسه صرح وزير إسرائيلي : لن تكون المفاوضات ممكنة إلا عندما يكف الفلسطينيون عن العنف . . »^(١) . لقد نجح اللوبي الصهيوني في تسمية مقاومة الضعفاء ؛ إرهاباً ، وعنف الأقوياء ؛ نضالاً ضد الإرهاب . « في عام ١٩٨٥ صدر قانون يحظر في الدولة العبرية طرح أي فكرة حول يهودية الدولة أو إنكار الجرائم النازية ، حتى للمناقشة ، ومن يطرح ذلك يسجن ويحكم عليه لمدة خمس سنوات . هذا القانون صدر في إسرائيل ، ولكن على ما يبدو فهو مطبق في العالم الغربي

(١) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية : ص ٢٣٤ .

كله . . . »^(١) والدليل توقيف الكاتب ومحاكمته . وكما حوكم (غارودي) حوكم المؤرخ البريطاني (ديفيد إيرفينج) وتعرض لهجوم شرس من وسائل الإعلام _حتى البريطانية_ ، ووقف ضده ثلاثون محامياً لأنه شكك في (المحرقة) وما نسج حولها من تضليل .
والأمثلة التي تدعو الإعلام العربي والإسلامي ألا ينساق وراء الإعلام الغربي كثيرة جداً ، ووصلت بالبعض أن يضع اللوم على سورية لعدم الاستجابة إلى دعوات إسرائيل وحليفاتها بتوقيع معاهدة استسلام يطلقون عليها اسم سلام . الحق أقول : لو تدبّر المهرولون التوجيه الإلهي المذكور أعلاه ، والتزموا بخطوطه العريضة ، كما التزم اليهود بخطوط (بروتوكولاتهم) ، لما تردّت الأوضاع العربية في السنوات الأخيرة إلى الشكل المخزي الذي عليه الآن . والحديث في هذا المجال يطول ويطول ، فلننّه ببعض ما جاء في تفسير الآية :

« أكدت الآية على تحريم موالاة الكفار ، وتزويدهم بأخبار المسلمين ، والإسرار إليهم ، واتخاذهم أصدقاء وأخلاء ، لأنهم لا يؤمنون على مصالح المسلمين ، بل يخونونهم ، ويفيدون من ذلك في قتالهم ومعاداتهم . ولأنهم قوم كفروا بالآخرة ، ولم يؤمنوا بالبعث والحساب ، ويسوا من ثواب الآخرة ، كما ينس الكفار الأحياء من رجوع موتاهم أصحاب القبور إلى الدنيا . . . »^(٢) .

(١) المصدر السابق : ص ٦ .

(٢) التفسير المنير : ج ٢٨ ص ١٥٦ .

النداء الحادي والثمانون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

الصف/ ٣ و ٢

خطاب بصيغة استفهام يحمل أسلوب التوبيخ والإنكار ، إنما يريد الله به إرشاد الخلق إلى فضائل الأخلاق والأعمال ، وتجنب ما يغضب الله تعالى ، ليكونوا على علم بحقيقة الإيمان وما ينبغي أن يتصف به المؤمنون ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بهذه الحقيقة ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ تقولون بألسنتكم فعلنا كذا ، أو سنفعل كذا ، في حين أنكم لم تفعلوا ذلك الشيء أو لا تريدون أن تفعلوه ، فأنتم في الحالتين كاذبون ، والكذب علامة من علائم النفاق .

« أخرج الترمذي والحاكم ، وصححه الدارمي عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . . ﴾ الآية ، فقرأها علينا رسول الله حتى ختمها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه : إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به ، وإقرار برسالة نبيه صلى الله عليه وسلم . فلما نزل الجهاد ، كره ذلك ناس من

المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . . ﴾ الآية ^(١) .

فهذا إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به . ومنه استدل علماء السلف على وجوب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم للموعد أم لا . فقد جاء في تفسير القرطبي : « الآية توجب كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها ، والملتزم على قسمين : أحدهما النذر ؛ وهو على قسمين : نذر تقرب مبتدأ ، كقول : لله عليّ صلاة وصوم وصدقة ونحوه من القرب ، فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً . ونذر مباح ؛ وهو ما علق بشرط رغبة ، كقول : إن قدم غائبني فعليّ صدقة ، أو علق بشرط رهبة كقول : إن كفاني الله شرّ كذا فعليّ صدقة . فاختلف العلماء فيه ، فقال مالك وأبو حنيفة : يلزمه الوفاء به .

أما قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعني أنه عظم جرماً أن تقولوا قولاً وتفعلون غيره ، فإن خلف الوعد دليل على الأنانية ، وإهدار لمصلحة وكرامة ووقت الآخرين ، ويؤدي أحياناً كثيرة إلى إخلال بالثقة بين الأفراد والجماعات . ولذا كان خلف الوعد مبغوضاً عند الله ورسوله ، كما هو مستنكر عند الناس جميعاً . وقيل : المقت شدة البغض وأبلغه وأفحشه . وقيل المعنى : هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يأمره به ، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمُرُّونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ . وإن الذي نخلص إليه بعد ما تقدم :

١- وجوب كل من يلزم نفسه عملاً فيه طاعة ؛ أن يفي بها ، فإن من التزم شيئاً لزمه شرعاً .

٢- وجوب الوفاء بالوعد في جميع الأحوال ، إلا لعذر قاهر جداً .

(١) التفسير المنير: ج ٢٨ ص ١٦١ ، وابن كثير: ٣٥٨/٤ .

٣- خلف الوعد مذموم شرعاً ، مستوجب للإثم والمؤاخذه ، وهو من علائم النفاق التي ذكرها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في قوله : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان" (١) .

٤- هناك شواهد كثيرة من واقع الحياة اليوم تؤكد عدم اهتمام بخطاب الله تعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأختصر شاهدين ، وللقارئ أن يقيس عليهما بهدف التذكير ، علّ ذلك يحفز على ضرورة انسجام أفعال المسلم مع أقواله :

- المثال الأول يتعلق بغلاء المهور ، وهو جزء من الأزمة التي تعاني منها مجتمعاتنا ، مرتبط بأزمة اخلاقية واقتصادية . فكم من آية حضت على الزواج ، ورغبت به ، من مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ _ النور / ٣٢ . وكم من حديث شريف أكد على عدم التغالي في المهور ، يتداولها أولياء أمور كثير من الشباب حين يتوجهون لاختيار زوجات لأبنائهم ، ذاكرين قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ _ النور / ٣٣ ، أما حين يتقدم شاب لخطبة ابنة أحدهم ممن لا خلاف حول سمعته ودينه ، وثقافته . تراه يضع شروطاً لا تتوافق مع ما كان يتلوه من آية أو يستشهد به من حديث شريف ، وتجعله ينسى المجتمع الذي ينتمي إليه والمستوى الاقتصادي المعاش وما سوى ذلك . بل يتناسى كيف بدأ حياته الزوجية ضعيف الحال فأغناه الله من فضله شيئاً فشيئاً . فهذا يطالب الشاب الذي أنهى خدمة العلم حديثاً ، أو تخرج من إحدى كليات الجامعة وعين براتب شهري محدود ، يطالبه بأن يكون مالكا لسكن خاص باسمه ، وبكمارليات يدعي أنها أصبحت من ضروريات الحياة ، وهو يعلم _ إن حكّم عقله _ أن اقتناءها يحتاج إلى مرتبات أكثر من عشرة أعوام إذا كان حسن الخلق والدين . يدعي التمسك بالإسلام ، ويتناسى أن عقد

(١) صحيح البخاري / ٣٣ ، عن أبي هريرة . ن عن أبي هريرة . وفي رواية : " وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم " . ذكره الإمام النووي في رياض الصالحين في الصفحة ١٠٦ و ٢٩٤ .

الزواج ليس معاوضة مالية ، بل هو في نظر الإسلام ارتباط قائم على المودة والرحمة لتحقيق أغراض اجتماعية وإنسانية . فالقرآن الكريم قرّر بصراحة لا لبس فيها أن المهر إنما هو (نَحْلَةٌ) أي عطاء ومنحة من الزوج رمزاً لتقديره المعنوي لدور المرأة ومكانتها ، وتكريماً لنفسها ، وليس عوضاً عن شيء ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نَحْلَةً ﴾ النساء / ١٩ . وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة على أن يعلم زوجته ما يحفظه من القرآن . أما ما جرت عليه تقاليد بلادنا من التغالي في المهور ، واعتبار قدر المهر دليلاً على سمو مكانة الأسرة فليس له أصل في الشريعة ، بل الذي دعت إليه الشريعة هو التهوين في شأن المال في الزواج ، وجعلت الدين والخلق أساس الاختيار .

عن سهل أن امرأة عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل : يا رسول الله زوجنيها ، فقال : " ما عندك " قال : ما عندي شيء ، قال : " اذهب فالتمس ولو خاتماً من حديد " فذهب ثم رجع فقال : والله ما وجدت شيئاً ولا خاتماً من حديد ، فقال له : " ماذا معك من القرآن ؟ " فقال : معي سورة كذا وسورة كذا لسور يعددها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أملكناكها بما معك من القرآن " ^(١) . وروى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم : " خير الصّدّاق أيسره " ، ومعنى الصّدّاق : المهر ، وأيسره : أقله وأسهله .

فأين الالتزام بمنهج الله الذي ندب إلى النكاح وحثّ عليه استجاباً لأنه معين على الدين ومهين للشياطين ؟ وأين أقوال الآباء وانتقاداتهم _ بل محاضرات بعضهم _ عن غلاء المهور قبل أن يتقدم أحد لخطبة ابنة لهم ؟ ألم يستمعوا إلى نداء الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ .

لا أريد أن أفتش على عيوب الناس ، وإنما أرجو أن يكون هذا التذكير علامة من علائم الإيمان ، حيث ورد في الأثر أن ثلاثة من علائم الإيمان : اغتمام القلب بمصائب المسلمين ، وبذل النصيحة ، والإرشاد إلى مصلحتهم . وأنا أرى أن الفكرة التجارية العامة

(١) أخرجه البخاري باب ١٥ ، كتاب ٧٠ ، حديث ٤٧٩ . وأخرجه مسلم برقم : ١٤٢٥ .

في عقد الزواج خلقت نتائج وخيمة في مجتمعاتنا ، وضرراً بمستقبل الأمة ، وأرى في التذكير بندائه تعالى نصيحة وإرشاداً إلى ما فيه مصلحة المجتمع .

يقول محي الدين بن العربي : « إذا قلت خيراً ، ودلت على خير ، فكن أنت أول عامل به ، والمخاطب بذلك الخير ، وانصح نفسك فإنها أكد عليك ، فإن نظر الخلق إلى فعل الشخص أكثر من نظرهم إلى قوله ، والاهتداء بفعله أعظم من الاهتداء بقوله . واجهد أن تكون ممن يُهتدى بهديك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لئن يهتدي بهداك رجل واحد ، خير لك مما طلعت عليه الشمس " ، فإذا تلا الإنسان القرآن ولا يرعوي إلى شيء منه ، فإنه من شرار الناس بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الرجل يقرأ القرآن والقرآن يلعنه فيلعن نفسه ، ويقرأ ﴿ لعنة الله على الكاذبين ﴾ ^(١) .

والتفصيلات كثيرة ، يمكن أن يتبادر للقارئ من خلال هذه الكلمات الموجزة صور شتى ، كأن تمر أمام مخيلته صورة مسؤول كبير يتبجح بالعروبة والإسلام ، وإذا حضر مؤتمراً في بلد آخر ألقى خطاباً يوحى إليك في خطابه أنه في قمة الإسلام وخدمة المسلمين ، وبعد عودته إلى مقر عمله تصدر عنه أفعال تتناقض مع كل أقواله ، أفعال لا تخدم العروبة ولا الإسلام ، فكيف للرعية أن تكون على رأي واحد وهدف واحد ؟ . وترى من يدعو إلى الوحدة يكرس التجزئة حفاظاً على بعض المصالح والمكتسبات الشخصية أو الآنية ؟ كيف تلتزم الرعية وترى من يدعو إلى الالتزام بالمنهج هو أول المخالفين له ؟ صور كثيرة نراها في واقع الحياة اليومية من قبل بعض المؤمنين . وهذا ما يستهجنه الإسلام لقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ _ البقرة / ٤٤ _

هذا المبدأ الإلهي جعل السلف الصالح يتخرج من الدعوة إلى الله وتعليم الغير قبل أن يحاسب نفسه وأولاده وأهليه ، ويأمرهم بالبر والتقوى والعمل المنسجم مع القول .

(١) الوصايا ، لابن عربي ، الوصية ٥٨ ، ص ١٠٨ .

« فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان قبل أن يأمر الناس بأمر وينهاهم عن نهي ، يجمع أهل بيته ويقول لهم : (أما بعد فإنني سأدعو الناس إلى كذا وكذا ، وأنهاهم عن كذا وكذا ، وإنني أقسم بالله العظيم لا يبلغني عن أحد منكم أنه فعل ما نهيت الناس عنه ، أو ترك ما أمرت الناس به ، إلا نكلت به نكالا شديداً . ثم يخرج فيدعو الناس إلى ما يريد ، فما يتأخر أحد عن السمع والطاعة »^(١) .

وخير ما أختتم به الحديث عن هذا النداء ؛ ما رواه أسامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقولون يا فلان ! مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية " ^(٢) .

فللداعي إذن شروط ذكرها الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) وجمال الدين القاسمي في (موعظة المؤمنين) ^(٣) ، وأول تلك الشروط :

- أن يكون الداعي قدوة حسنة ، ومتصفاً باللطف وعدم العنف ، قال تعالى : ﴿ لو كنت قظاً غليظ القلب لا نفّضوا من حولك ، فاعفُ عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ﴾ آل عمران / ١٥٩ _ .

- أن يكون مسلحاً بالإيمان والثقافة العصرية إلى جانب الثقافة الإسلامية ، متابعاً للتطورات الفكرية في العالم كي يتمكن من تشخيص الأفكار الضالة والمنحرفة المتلبسة بلباس العلم ، فيفضح حقيقتها .

- أن يراعي وحدة الأمة وعدم إيقاع الفتنة بين الناس ، والله أعلم .

(١) تربية الأولاد في الإسلام : ١ ص ٤٨٣ .

(٢) صحيح مسلم : ٢٩٨٩ / ١٥ . والجامع الصغير : ٤٢٨٥ .

(٣) انظر موعظة المؤمنين ، ص ٢٢١ وما بعدها . (كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

النداء الثاني والثمانون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ،
ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

_ الصف / ١١ _

كلما سمعنا نداءً من الله تعالى ، وجدنا فيه توجيهات جديدة كأنها تنزل اليوم
لتعالج مسائل اليوم ، ولتنير الطريق إلى المستقبل . فهذا النداء مثلاً ينبه إلى أمور عظيمة ،
وفي مقدمتها بيان أن الإيمان بالله سلاح ماضٍ يعمل العجائب ، لأن معناه اليقين الكامل
بوحداية الله ، وأنه وحده النافع الضار ، الفعال لما يريد ، ويدل على أحسن تجارة تفيد
المؤمن وتدر عليه الربح الوفير دنیا وآخرة .

قل في سبب نزول هذه الآية أن الصحابة _ رضوان الله عليهم _ قالوا: لو كنّا نعلم
أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل ؟ فنزلت الآية جواباً على تساؤلهم ، فقال تعالى: ﴿ يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ أي سأدلكم وأرشدكم ﴿ عَلَىٰ تِجَارَةٍ ﴾ نافعة رابحة ومضمونة
النتائج ﴿ تُنْجِيكُمْ ﴾ تحققون بها النجاح ﴿ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ فالناس في هذه الحياة إنما
يتعاطون التجارة ويعملون لزيادة الربح لغرض واحد ، قد يحصلون عليه أو لا يحصلون ،
ألا وهو النجاة من محنة الفقر وآلامه ، وهذه التجارة التي أصفها لكم تضمن لكم النجاة من
شيء اسمه عذاب أليم ، سواء في هذه الحياة الدنيا أو في الحياة الآخرة . وهذا أسلوب فيه
تشويق وترغيب ، وقد جعل العمل الصالح لنيل الثواب العظيم بمنزلة التجارة ، لأنهم
يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار . قال تعالى: ﴿ إِنَّ

الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿التوبة/ ١١١﴾ . فهذه التجارة لا تكلفكم رأس مال كبير قد يعسر عليكم الحصول عليه ، كلا ، بل إنه سهل ، وهو على ثلاث درجات :

١- ﴿تؤمنون بالله﴾ وهذا الإيمان يحمل الإنسان على أن يكون دائم الصلة بالله في الحياة ، فلا يرجو غيره ولا يعتمد على سواه ، بل يلقي بنفسه تحت إشرافه ويتكل عليه ، ويسأله بلوغ الآمال وقضاء الحوائج ، فلا يخيبه الله أبداً ، وينال من طمأنينة النفس ما يشعره بحقيقة السعادة .

٢- أن تؤمنوا بأن محمداً نبي الله ﴿ورَسُولِهِ﴾ الذي قد خلت من قبله الرسل ، يبلغكم رسالة ربه ، فاثمروا بأمره ، وانتهوا عما نهاكم عنه وزجر ، واتباعكم لسنة نبيكم تنالون سعادة الدارين .

٣- ﴿وتجاهدوا﴾ أي تبذلون ما في وسعكم ﴿في سبيل الله﴾ أي لإعلاء كلمة الله والحصول على رضاه . وهذا الجهاد المطلوب منكم هو على نوعين ؛ إما أن يكون ﴿بأموالكم﴾ التي من الله عليكم ، بأن تضعوها فيما يدعوكم إليه الإسلام من عون كل محتاج ، وإعداد العدة للقتال ، ونصر دين الله بمختلف الوسائل ، وإما أن يكون بأنفسكم ، أو بأموالكم ﴿وأنفُسِكُمْ﴾ أي لاتضنوا بتقديم أرواحكم في ساحة الوغى من أجل الدفاع عن عقيدتكم ودياركم . ونلاحظ أن الله تعالى ذكر الأموال أولاً لأنها التي يبدأ بها في الاتفاق التجاري ، كما نلاحظ أن الآيات القرآنية التي تحض على الجهاد كثيرة ، والأحاديث أكثر من أن تحصر ، فمن الآيات قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۖ ۝﴾ النساء/ ٩٥ .

ومن الأحاديث ؛ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ العمل أفضل ؟ قال : " إيمان بالله ورسوله " قيل ثم ماذا ؟ قال : " الجهاد في سبيل الله " ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : " حجٌّ مبرورٌ " ^(١) .

والجهاد ؛ هو بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع في مدافعة العدو . وهو قسمان عظيمان تحت كل منهما أنواع .

فالقسم الأول : جهاد النفس ؛ وهو منعها عن الشهوات ، وترك الطمع ، والشفقة على الخلق ورحمتهم .

والقسم الثاني : جهاد العدو الظاهر ؛ وتحت ثلاثة أنواع : ١ - جهاد الكفار . ٢ - جهاد المنافقين . ٣ - جهاد أهل الظلم ، وهذا هو أصل الجهاد وأشد أنواعه ، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما عاد من غزوة تبوك قال : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " . أما جهاد الكفار والمنافقين فيكون بالحجة والبيان أولاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا . فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ _ الفرقان / ٥٢ _ . فالمطلوب مجاهدتهم عندما يتآمرون على المجتمع الإسلامي ويكيدون له ، لا حباً في الحرب والقتال . وقد أثبتت النصوص أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ميالاً للسلام « فقد عمد في نشر دعوته إلى مجادلة المشركين وإقناعهم بالدليل والبرهان ، فلما اشتد أذاهم على المسلمين واضطروهم إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة أولاً ، ثم إلى المدينة ثانياً ، رأى الرسول أن يوحد بين المهاجرين والأنصار حتى يتيسر لهم الوقوف في وجه أعدائهم ، وكان قبل هجرته إلى المدينة قد بايعه فريق من الأوس والخزرج في بيعة العقبة الثانية ، وتعهدوا له بالدفاع عنه وحمايته ، كما تعهد لهم بالعمل على نصرتهم ، وبذلك تهيأ المسلمون للذود عن أنفسهم . ولما استقر لهم الأمر بالمدينة وقويت شوكتهم فرض الله عليهم الجهاد في

(١) صحيح مسلم : باب الإيمان : ١٣٥ / ٨٣ . وأخرج الإمام البخاري عن ابن مسعود مثله برقم ٥٠٤ .

السنة الثانية للهجرة ، فنزلت هذه الآية ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۚ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ الحج / ٣٩ و ٤٠ - والمراد بهذه الآية أن الله أحل القتال للمسلمين لأنهم ظلموا وأُخرجوا من ديارهم لا لسبب إلا عبادتهم لله وحده ^(١) .

وفي آخر النداء ينبه الله تعالى الذين آمنوا قائلاً ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أن المهم النتائج والغايات ، ولا يدرك تلك الغاية النبيلة أهل الجهل . وإذن فليجاهد المؤمنون في سبيل الله ، وليقدموا الأموال والأرواح مستيقنين أن لا فرع من الموت ولا خوف من الفقر ما دامت الأنفاس معدودة ، فمن الخير لهم أن يعيشوا الحياة قوية طليقة شجاعة كريمة ، ومردّهم بعد ذلك إلى الله ، وسينيلهم الثواب على جهادهم في سبيل نفي عوامل الفتنة والضلالة في الحياة الدنيا ، وفي سبيل عزة الإسلام والمسلمين الذين يريد الله لهم أن يعيشوا أحراراً في عقيدتهم وحقوقهم ، فهم لا يكرهون الناس على دينهم ، وبالتالي يجب أن يحترم الآخرون دينهم وعقيدتهم وحقوقهم ، ما دامت حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان التي يثبت لديها وصف إنسان . وإنه لمن المؤلم حقاً أن تنتشر اعتراضات جديدة ، شعارها (مالنا وما للحرب) . ولن أخوض في مثل هذه الأفكار المريضة ذات النزعة الفردية النفعية ، ولكنني أتساءل هنا : ما هي ضمانات عقيدة الأمة وكرامتها وحقوقها ؟ ونحن ما عرفنا عدونا الصهيوني إلا ناكساً للعهود والذمم متحاملاً على العرب والمسلمين ؟ إن كل أمة أو دولة إذا لم يكن لها ضمان من نفسها ، ومن قوتها هي ، فلا ضمان لها في الحياة ، وهذا ما أثبتته التاريخ ، كما أثبت أن الدين يمارس تأثيراً مختلفاً على روح الإنسان ، يجعله يمجّد القيمة الإنسانية ويشعر بالمسؤولية تجاه نفسه وتجاه الآخرين . والدلائل كثيرة على أن الدين كان عبر تاريخ العالم القوة المحركة لوحدة الشعور بين البشر .

(١) قيام الدولة العربية الإسلامية ، ص ٨٠ .

ولئن حاول العالم الحديث خنق الحس الديني بفعل النزعة المادية ، وساعدت وسائل الإعلام _المفتقرة إلى الأصالة_ على تنمية السلبية أكثر فأكثر بدلاً من أن تشجع على اليقظة ، فإن في المنهج القرآني مواضع كثيرة تقرر حقيقة أن العبودية لله وحده هي نقطة الانطلاق البشري من سلطان الأوهام والشهوات ، ومن استغلال الأعداء لما في بلادنا من ثروات وخيرات ، بل استغلال الأفكار والعقول .

يقول الدكتور وهبة الزحيلي : « إن سيرة المسلمين أنهم لم يبدؤوا واحداً بقتال ، وإنما القتال لمن قاتلهم ، أو ظاهر عليهم ، وإذا كانت هناك حالة حرب مع قوم ، فليس غريباً أن يهاجم المسلمون منطقة تابعة لعدوهم لإضعاف شأنه ، وذلك هو شأن الحرب . والحرب ليست دائمة بين المسلمين وغيرهم إلا بمقدار توافر الأسباب الموجبة لذلك ، وجماع ذلك هو وجود العدوان . والعدوان حالة اعتداء مباشر أو غير مباشر على المسلمين وأموالهم أو بلادهم . وأمير المؤمنين هو المنوط به تقدير توافر العدوان بحيث يكفل للمسلمين صيانة عزتهم وكرامتهم وتحقيق أمنهم وسلامتهم . والعمل على تحقيق هذه المعاني هو المقصود بكون الجهاد في سبيل الله أي في سبيل الحق والتوحيد ورفع الظلم ، دون أن يشوب ذلك غرض دنيوي رخيص . . أما آيات القرآن الكريم الواردة في شأن الجهاد فلا يصح فهمها على ظاهرها ، وإنما لا بد من مراعاة أسباب النزول فيها . . وكذلك حال الأحاديث النبوية التي وردت بخصوص الجهاد فهي أيضاً في حال دفع الشر مثل حديث : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " فالمراد من ؛ (الناس) هنا مشركو العرب خاصة بإجماع العلماء . وكلمة (أقاتل) تعني وقوع القتال بين الجانبين . »^(١) .

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي : ص ٥٠-١٢٢ .

النداء الثالث والثمانون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَأَمَنْتُ
طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

_ الصف / ١٤ _

نداء الخالق المالك لجميع من في السموات ومن في الأرض ، إلى المؤمنين للنهوض
بتكاليف دورهم في نصره دين الله ، متخلصين من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة ، ناداهم
بالنداء المحب إليهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ بالقول والفعل بدءاً من طاعة
أوامر الله واجتناب نواهيه ولو تطلب الأمر تحمّل بعض المصاعب والأذى . إذ لا بدّ من
اختبار المؤمنين ببعض ما يكرهون ليتبيّن الذين صدقوا و ليصلب عود أصحاب العقيدة . فمن
سخط وتبرّم سقط في الاختبار . فيا أيّها المؤمنون اثبتوا على إيمانكم وعلى التكاليف
الإلهية دون حاجة لأن يقول لكم ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾ الناصحين ، وهم
أصفياء عيسى وأول من آمن به .

ومما جاء في تفسير النسفي : حوارى الرجل : صفيه وخالصة ، من الحور ، وهو
البياض الخالص . وقيل : كانوا قصارين ، سمّوا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب ، أي
يبيضونها .

وجاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال : ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق ، فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير " (١) .

وقوله تعالى ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي قال عيسى بن مريم : مَنْ يَنْصُرُنِي وَيَعِينُنِي فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ مَنْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى عَقِيدَتِهِ وَالتَّضَحِّيَةِ بِنَفْسِهِ وَالْمَالِ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الْمُتَصَرِّفِ فِي شُؤْنِ الْخَلْقِ ؟ ﴿ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ « وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، فَقَالُوا : نَحْنُ أَنْصَارُكَ عَلَى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ ، وَمُؤَاوِزُوكَ عَلَى ذَلِكَ . وَلِهَذَا بَعَثَهُمْ دَعَاةً إِلَى النَّاسِ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ . وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ : " مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ فَإِنْ قَرِشًا مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي " . حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَبَايَعُوهُ ، وَوَاوَزُوهُ ، وَشَارَكُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ ، إِنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بَيْنَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَفَوَالِهِ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ . وَلِهَذَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْأَنْصَارَ . وَصَارَ ذَلِكَ عِلْمًا عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ » (٢) .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ ؛ قَدْ كَانَ ذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ ، جَاءَهُ سَبْعُونَ رَجُلًا فَبَايَعُوهُ عِنْدَ الْعُقْبَةِ ، وَأَوْوَهُ وَنَصَرُوهُ ، حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَنْتُ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ﴾ أي لما بلغ عيسى بن مريم رسالة ربه إلى قومه ، وَنَاصَرَهُ الْخَوَارِيُّونَ ، اهْتَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَيْدِيهِمْ « اهْتَدَتْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ ، وَآمَنُوا بِعِيسَى عَلَى حَقِّقَتِهِ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ . وَضَلَّتْ طَائِفَةٌ

(١) صحيح البخاري / ٢٦٩١ . وصحيح مسلم / ٢٤١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٢٨ ، سورة ٦١ ، آية ١٤ .

أخرى، وكفرت بعيسى وجحدوا بنبوته، واتهموه وأمه بالفاحشة . وتغالت جماعة أخرى من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، فوصفوه بأنه ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة (الأب، والابن، وروح القدس)، وصارت النصرارى فرقاً وأحزاباً ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ أي فنصرنا المؤمنين على من عاداهم من فرق النصرارى، وقوينا المحقين منهم بالحجة والروح من عندنا على المبطلين . ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي عالين، غالبين عليهم، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ _ غافر/ ٥١ _ «^(١)» .

وفي حديث مطول، أورده ابن كثير في تفسير هذه الآية، جاء فيه : «﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾؛ أي عليهم، وذلك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله؛ حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال، يعني ابن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شبيهه فقتلوه، وصلبوه، وكفروه بعضهم بعد أن آمن به، فتفرقوا فيه ثلاث فرق، فقالت فرقة : كان الله فينا ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله، ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ بإظهار محمد صلى الله عليه وسلم دينهم على دين الكفار . «١٠ هـ

أخيراً طالما قلنا أن المقصود بقوله تعالى : ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ : انصروا دين الله وأعلوا مناره كما نصر الحواريون المسيح عيسى بن مريم حين قال : من أنصاري إلى الله . لا

(١) التفسير المنير: ج ٢٨، ص ١٧٨ .

بدّ من التذكير بما قلناه في النداء السادس و الستين من أن النصرة تكون بالقول والفعل ومختلف الأسلحة التي تكشف أباطيل المغرضين من أعداء العروبة والإسلام ، والتحديات المتلاحقة ، والتي منها محاولات تزييف الوعي العربي والإسلامي ، وتغيب خطر العدوانية التوسعية والتبعية ذات الأشكال المتعددة . إن رفض التبعية ، وكشف مساوئها ، والنضال ضد الاستعمار بأشكاله الثقافية والعسكرية . والاعتزاز بعروبتنا وإسلامنا ، والسعي لما فيه وحدة العرب والمسلمين ، إنما هو أحد مقاصد النداء المذكور ، والله أعلم .

النداء الرابع والثمانون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

الجمعة/ ٩

صلاة الجمعة وشعائرها مظهر للجانب الاجتماعي في التربية الإسلامية الدينية ، وذلك لأن الانفعالات النفسية _ كما يقرر علم النفس _ تقوى وتتضاعف آثارها في الأوساط المجتمعة أكثر مما تكون عليه في نفس الإنسان المنفرد . وحاجة الإنسان للتعارف إلى بني جنسه وارتباطه بهم بوثاق الألفة والمحبة حاجة حيوية كحاجته للغذاء والكساء ، كما هو مقرر في علم الاجتماع . وقد رعى الإنسان هذا الجانب غاية الرعاية ، وحقق للنفس هذه التربية على كافة مراتبها ؛ على نطاق المجتمع الصغير في الحي بصلاة الجماعة ، ونطاق البلدة أو منطقة منها في صلاة الجمعة والعيد ، وعلى نطاق العالم الإسلامي في فريضة الحج . في صلاة الجمعة يلتقي المسلمون من أهل البلد أو المنطقة في المسجد الجامع وقد سعوا كلهم إلى بيت الله ، لم تجمعهم دنيا يصيبونها ، بل طاعة الله وفي سبيل رضاه . وهنالك يتوثق التعارف ، ويزداد نطاق المسلم الاجتماعي وارتباطه بأمته . . إن الجمعة مدرسة تربية لتهديب النفوس . . . (١)

وجه الله تعالى الخطاب للمؤمنين ليحرصوا على أداء صلاة الجمعة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ والمراد بالنداء : الأذان والإعلام ، والمراد بالصلاة المنادى

(١) هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخاصة : د . نور الدين عتر ، ص ٧٨ و ٨٠ .

لها؛ صلاة الجمعة، بدليل قوله: ﴿من يوم الجمعة﴾، إذ غيرها من الصلوات التي يؤذن لها لا مزية لها في يوم الجمعة عن غيره. إنها الصلاة التي حدد لإقامتها أول الوقت، واشترط فيها الجماعة، وأن تؤدى بركعتين إلى خطبتين ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ أي بادروا إلى إجابة داعي الله لتسمعوا موعظة الإمام. وليس المراد بالسعي الإسراع بالمشي إليها، فقد روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا"^(١). وقال الحسن: والله ما هو بالسعي على الأقدام، وقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكنه سعي بالقلوب والنية والخشوع^(٢).

﴿وَدَرُوا الْبَيْعَ﴾ الذي هو وسيلة الربح وغيره من باب أولى، بمعنى اتركوا ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا عندما يحين الوقت لإجابة داعي الله، أو لأداء ما فرض عليكم. وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال، فقليل لهم بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأمور. ذلك أن من عمل للآخرة ورجا ثواب ربه أعانه على أمور دنياه ويسر له سبل الرزق من حيث لا يحتسب، وآتاه في الآخرة أضعاف ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها"، زاد في رواية: "ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة"^(٣). فالحديث ظاهر في فضل يوم الجمعة على أيام الأسبوع.

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب ٢١، حديث: ٦١٠. ومسلم في باب المساجد: ٦٠٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/١٠٣.

(٣) صحيح مسلم: ٨٥٤/١٧٦. والجامع الصغير للسيوطي: ٤١٢٤. وغيرهما.

وقد وردت عدة أحاديث صحيحة في فضل صلاة الجمعة ، منها ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت ، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى ، وزيادة ثلاثة أيام ، ومن مسَّ الحصى فقد لغا " (١) . وقوله عليه الصلاة والسلام : " من مسَّ الحصى فقد لغا " معناه أنه يشغله عن سماع الخطبة كما يشغله الكلام ، فجعله كاللغو . وفي الحديث دلالة على مراعاة التأهب للجمعة بالوضوء ، وقال البعض بضرورة الغسل ، وبذلك تكتمل النظافة مع تحسين الملبس ، نزولاً عند قوله تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ الأعراف / ٣١ - تعبيراً عما يحمله المؤمن من جمال العقيدة .

وهناك أحاديث أيضاً حول صلاة الجمعة وخطبتها ، استدلت العلماء منها على ما يلي :

١ - صلاة الجمعة من فروض الأعيان ، فتجب على كل مسلم ، حرّ ، بالغ ، عاقل ذكر ، مقيم ، إذا لم يكن له عذر في تركها ، ومن تركها من غير عذر استحق الوعيد . ولا جمعة على النساء (باتفاق الفقهاء) ، وتجب الجمعة على أهل القرى والبوادي إذا سمعوا النداء من موقع تقام فيه الجمعة .

٢ - وجوب خطبة الجمعة ، وهو مذهب الجمهور ، واستدلوا على الوجوب بأدلة منها : مواظبة النبي صلى الله عليه وسلم على خطبة الجمعة ، والخلفاء من بعده ، ثم قوله تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، وقد بينَّ فعله صلى الله عليه وسلم أن الذكر الذي طلب السعي إليه ؛ هو الخطبة والصلاة ، وما كان السعي له واجباً فهو واجب .

٣ - أجمع العلماء على اشتراط العدد في صلاة الجمعة ، بل هي ما سميت جمعة إلا لما فيها من الاجتماع . جاء في روح المعاني (٢٨ / ١٠٠) أن يوم الجمعة ما سمي بذلك إلا

(١) صحيح مسلم / ٨٥٧ . وغيره .

لاجتماع المسلمين فيه للصلاة . وقد كان يسمى في الجاهلية يوم العروبة ، ومعناه الرحمة^(١) . (وهناك خلاف فقهي حول أقل عدد تنعقد به الجمعة) .

« وخلاصة ما ترشد إليه الآية : وجوب السعي عند الجمعة ، ووجوب ترك البيع وشؤون الدنيا من أجل الصلاة . . وما ينبغي لأحد أن يهجر عبادة الله من أجل شيء إن كان له فسوف يأتيه ، وإذا لم يكن له فلن يفيد فيه الإسراع والجري وراءه ، وهو لو شاء _ سبحانه _ حرمانه منه لحرمه وهو في البيت بل وفي اليد إلى الفم . . . »^(٢) .

(١) صفوة التفاسير : ٣ ص ٥٩٨ .

(٢) تفسير آيات الأحكام : ٤ ص ١٥٤ .

النداء الخامس و الثمانون : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ،
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

المنافقون/ ٩

من المعلوم بداهة أن قلب الأبوين مفطور على محبة الأبناء ومتأصل بالمشاعر النفسية ، والعواطف الأبوية لحمايتهم والرحمة بهم ، والاهتمام بأمرهم ، ولولا ذلك لا تقرض النوع الإنساني من الأرض ، ولما صبر الأبوان على رعاية أولادهما ، ولا عجب أن يصور القرآن الكريم هذه المشاعر الأبوية الصادقة أجمل تصوير ، فيجعل من الأولاد تارة زينة الحياة الدنيا : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ _الكهف/ ٤٦_ ، ويعتبرهم تارة أخرى نعمة عظيمة أو قرّة عين : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ _الفرقان/ ٧٩_ . وقد قال تعالى أيضاً : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرثِ ، ذَلِكَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ _آل عمران/ ١٤_ . وهذا يعني أن بعض الناس قد تثبّط الأموال أو النساء همهم عن التسابق في ميدان الجهاد لنصرة دين الله ، أو أن حب المتعة بأموالهم وأولادهم قد يصرفهم عن العمل لإعلاء كلمة الله ، بل حتى عن ذكر الله تعالى ، لذا جاء هذا النداء الإلهي ليحذّر المؤمنين من الانشغال أو اللهو بملذات الحياة الدنيا وزينتها عن ذكر الله تعالى فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، أي لا تشغلكم الأموال والأولاد عن الصلوات الخمس والعبادات الأخرى كما شغلت المنافقين ، إذ قالوا _ بسبب من الشح بأموالهم ﴾ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ

رسول الله ﷺ في الآية السابقة من هذه السورة . وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أكبر الذكر قول : لا إله إلا الله . وذكر القرطبي في تفسيره عن ذكر الله ما يلي : « قيل : عن قراءة القرآن . وقيل : عن إدامة الذكر . وقيل عن الصلوات الخمس . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أي آمنتم بالقول فأمنوا بالقلب » . ويمكن أن يكون المقصود : تأملوا الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته في كل ما هو مشاهد لكم من الأشياء لتعترفوا بتوحيد الألوهية ، ولا تشركوا مع الله أحداً غيره في الحمد على النعم . ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي ومن يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في تجارتهم ، الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة لانشغالهم بمتاع الحياة الدنيا وزينتها .

« وعندما حذر الله تعالى عباده من الانشغال بالأموال والأولاد ، إنما ذكرهم بما قاله في سورة أخرى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ والفتنة بمعنى الاختبار . وأعظم الفتن النساء والمال والولد والجاه . وما سمي المال بهذا الاسم إلا لكون الإنسان ميال إليه بالطبع فاختر تعالى به عباده ، حيث جعل تيسير بعض الأمور بوجوده ، وعلق القلوب بمحبة صاحب المال وتعظيمه ولو كان بخيلاً فإن العيون تنظر إليه بعين التعظيم لتوهم النفوس باستغنائه عنهم لما عنده من المال . . وأما فتنة الولد ؛ فلكون الولد سرّ أبيه وقطعة من كبده ، وألصق الأشياء به ، فحبه حب الشيء نفسه . . » ^(١) .

وإني لأرى ضرورة التذكير بأمرين هامين :

الأمر الأول ؛ أن ذكر الله لا ينحصر بدعاء معين . والذكر قد يكون بتلاوة القرآن ، أو في الصلاة التي هي عماد الدين ، أو في الزكاة والصدقات ، وفي الحج ، وأثناء الجهاد ، وفي كل مكان ، وفي السر والعلن . ولكن يمكن أن يشمل كل عمل يقوم به المسلم ابتغاء مرضاة الله ، كالإحسان في تربية الأبناء ، والإصلاح بين الناس ، وتعميق حب المثل العليا الإنسانية . فالأبناء فتنة لمن حاد عن ذكر الله وإقامة شريعته . أما المؤمن الذاكر لربه يرى من

(١) الوصايا : ص ٣١ و ٣٢ .

واجبه الديني أن يقوم على تربية أبنائه تربية قويمه توضح العقيدة الصحيحة ، و توجه نحو طاعة الله والاهتداء إلى ما في الإسلام من حق و خير و فلاح . و تبعدهم بالتالي عن التخبط و التطرف و الانفعالات النفسية التي تسبب ضياع الرشد و السير وراء الإغراءات المادية . و مثل هذه الظواهر النكدة نراها بوضوح في جوانب الحياة البشرية .

الأمر الآخر ؛ أن الله تعالى حين حذر عباده من الانشغال في الأموال و الأولاد عن طاعته لم يقصد عدم الاهتمام بالسعي لكسب الرزق الحلال ، ذلك أن تربية الأولاد من أهم الواجبات الدينية كما هي من الواجبات الاجتماعية ، والسعي لكسب الرزق أيضاً من الواجبات الدينية كما هو من الواجبات الاقتصادية . إنما هذه الواجبات أصبحت ضرورتها أمراً معروفاً بالفطرة والتوجيه . إنما التحذير كان من أجل أن لا تطغى المشاعر الصادقة من الحب و العطف والحنان نحو الأولاد على ذكر الله ، و لئلا تأخذ هذه الاهتمامات كل أوقات المؤمن . فإن بعض الآباء من شدة حرصهم على مستقبل أولادهم يسعون دائماً إلى توفير ما ينفعهم سواء في حياتهم أو بعدها . والبعض يظن أن أهم ما يدخره لأولاده هو المال فقط ، وهذا ليس صحيحاً وإن كان الأفضل أن يترك الرجل أولاده من رزق حلال بناء على ما رواه عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس"^(١) . ولكن أهم من المال تقوى الله . فإذا كان السعي الحثيث وراء المال ينسي الواجبات الدينية والفرائض من العبادات ، هنا تكون الأموال والأولاد فتنة ، لأنها شغلت الرجل عن ذكر الله تعالى ، وبذلك يكون من الخاسرين . فالإسلام يدعو إلى تحقيق موازنة كاملة في كيان الإنسان المسلم بين جوانبه العقلية والنفسية والروحية والمادية ، بحيث لا يطغى جانب على آخر لكي يحصل التوازن المطلوب الذي يؤهله لحمل الأمانة التي كلفه خالق الخلق بها .

فالنداء يرشد إلى التالي :

(١) صحيح البخاري/ ١٢٣٣ ، و صحيح مسلم/ ١٦٢٨ .

- « ١ - وجوب الاشتغال بطاعة الله تعالى ، كقراءة القرآن ، وإدامة الذكر من تسييح وتحميد وتهليل ، وأداء فرائض الإسلام وحقوق الله تعالى .
- ٢ - عدم الاشتغال بتدبير الأموال والاهتمام بشؤون الأولاد عن أداء حقوق الله تعالى كما فعل المنافقون . وتحذير عن المخالفة وتوعد اللاهين بالدنيا ومتاعها وزخارفها .
- ٣ - حث المؤمنين على الإنفاق مما رزقهم الله في سبل الخير ، شكراً على النعمة ورحمة بالفقراء ، ورعاية لمصلحة الأمة العامة ، من قبل مشاهدة علامات الموت . . وهذا يدل على أن كل مفرط يندم عند الاحتضار . . ولكن بعد فوات الأوان »^(١).

(١) التفسير المنير: ج ٢٨ ص ٢٣١ .

النداء السادس و الثمانون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

التغابن/ ١٤

يلاحظ أن كثيراً من الأسر الإسلامية قد بدت عليها أمارات التفكك والانهيار ، وسارت في جرف التيارات الفاسدة والأهواء الضالة ، والأشد من ذلك سوء الاختيار عند بداية القران الزوجي . و الإسلام بتشريعه السامي ونظامه الشامل قد وضع أمام كل من الخاطب والمخطوبة قواعد وأحكاماً إن اهتدى الناس بهديها ، ومشوا على نهجها كان الزواج في غاية التفاهم والمحبة والوفاق ، وكانت الأسرة المكونة من البنين والبنات في ذروة الإيمان المكين ، والنفسية المطمئنة الصافية . ومن هذه التوجيهات الإسلامية قوله صلى الله عليه وسلم : " ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله . " (١) .

وفي هذا النداء العظيم ينبّه الله سبحانه عباده المؤمنين إلى بلاء عظيم قد يصيب الإنسان وهو لا يشعر إذا أذعن لعاطفته واستسلم لما تدعو إليه ، ولما كانت الزوجة والأولاد هما في مقدمة ما يسيطر على عواطف الإنسان في هذه الحياة قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ولم يقل أيها الناس ، إشارة إلى أن الأمر الذي سيبينه لا يخص الناس كافة ، بل

(١) رواه ابن ماجه .

المؤمنين منهم ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾ الذين تحبونهم وتبالغون في العطف عليهم ﴿عَدُوًّا لَكُمْ﴾ عداوة أخروية ، يشغلونكم عن الخير والأعمال الصالحة التي تنفع في الآخرة ﴿فاحذروهم﴾ أن يؤثروا في عواطفكم ويصدوكم عن طاعة الله .

روى الترمذي عن ابن عباس ؛ وسأله رجل عن هذه الآية فقال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة ، وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم . فلما أتوا الرسول رأوا أن الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(١) .

ومما جاء في تفسير ابن كثير والخازن أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه ، فقالوا : إلى من تدعنا ؟ فيرق ، فيقيم فنزلت هذه الآية . وزاد ابن كثير : قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا يبين وجه العداوة فإن العدو لم يكن عدواً لذاته ، وإنما كان عدواً بفعله ، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة .

وفي رواية عن ابن عباس قال : (كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته ، فيقول : أما والله لئن جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لأفعلنّ ولأفعلنّ ، فجمع الله بينهم في دار الهجرة ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ . أي إن تعفوا عنهم في الشيط عن الخير ، وعن ذنوبهم بترك المعاقبة ، وتصفحوا عما بدر منهم من أمر أساسه العاطفة لا قصد إلحاق الضرر بكم ، وتغفروا بالتجاوز عما فعلوا والتمهيد للمعذرة ، بسبب أنكم لم تهاجروا وأقمتم مع أهلكم وأولادكم . أما من هاجر فرأى الذين سبقوه بالهجرة قد فقهوا في الدين فهم أن يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه ومنعوه عن الهجرة لما لحقوا به ولا ينفق عليهم ولا يصيهم بخير ، فأمره إلى الله بالعفو والصفح عنهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح . وذكره في تفسير هذه الآية : كل من الخازن وابن كثير ، والتفسير المنير : ج ٢٨ ص ٢٥٣ .

رحيم ﴿ غفور لذنوب عباده ، رحيم بهم ، يعامل الناس بأحسن ما عملوا . وهذا يرشد إلى طلب المغفرة من الله تعالى وهو القائل : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ، يُرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين . ﴾ نوح / ١٠-١٢ .

وقد زاد الله تعالى الأمر بياناً بقوله : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي أن الله عز وجل قد جعل من حب الأموال والأولاد سبيلاً لا اختبار الإيمان في قلوب المؤمنين ، وقد يصل الإنسان بسببهم إلى تناول الحرام ، أو إلى منع الحق وغصب مال الآخرين ونحو ذلك . لذا قال : ﴿ والله عنده أجرٌ عظيم ﴾ لمن أثر محبة الله على محبة الأموال والأولاد والسعي إليهم . وقد أشرنا إلى هذا القصد الإلهي في النداء السابق / ٨٥ ، ويزيد الأمر وضوحاً ما ذكره النسفي بهذا الشأن : « أي من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ، ويخاصمنهم ، ومن الأولاد أولاد يعادون آباءهم ويعقونهم ، فكونوا منهم على حذر ، ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم »^(١) .

وأخرج الطبراني عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك ، ولكن الذي لعله عدو لك ولدك الذي خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك مالك الذي ملكت يمينك " ^(٢) .

وروي أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء " ^(٣) .

(١) تفسير النسفي : ٤ ص ٢٧٦ .

(٢) فيض القدير في شرح الجامع الصغير ، حرف اللام (٧٦٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم برقم ٢٧٤٠ ، و البخاري برقم ٤٨٠٨ وعقب قائلاً : المقصود بكلمة (فتنة) سبباً للفتنة ، وذلك بتكليف الرجال من النفقة ما لا يطيقون أحياناً وبإغرائهن وإمالتهن عن الحق إذا خرجن واختلطن بالرجال ، لا سيما إذا كنَّ سافرات متبرجات . (أضرب) أكثر ضرراً أو أشد فساداً لدينهم ودنياهم .

وجاء في تفسير ابن كثير: كما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوًّا ، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوًّا بهذا المعنى ، لأن قوله : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يدخل فيه الذكر والأنثى دخولهم في كل آية . فالمقصود إذن : التحذير الإيماني من الاندفاع وراء الضعف البشري إزاء النساء كما حذر تعالى ، إذ كثيراً ما يؤتى المرء من ناحية حرصه على ماله وبنيه ، وحين يتأثر في إلحاح زوجه على تأمين متطلبات ليس من السهل حصوله عليها ، فيقبل ما لم يكن ليقبل ، ويخضع لما لم يكن ليخضع ، ويرتكب ما لم يكن ليرتكب ، يحتاج إلى اللقمة فيذل وليس أشد من الحاجة إذلالاً . ولقد يضطر إلى الاستجداء فتذهب كرامته كلها ضياعاً . هنا يتولى الإسلام الأمر بالتشريع لمنع أسباب الحاجة بما شرع من زكاة وصدقة من جهة ، وبالتحذير من الانجراف العاطفي وراء تحقيق رغبات بعض الزوجات اللاتي يطالبن الزوج بالكثير الكثير دون تفكير بمقدار دخله وقدرته وإنتاجه .

قال بعضهم : « لما ذكر الله العداوة أدخل (مَنْ) للتبويض فقال : ﴿ إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ لأنهم ليسوا كلهم أعداء . ولم يذكر (مَنْ) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لأنهم لم يخلوا عن الفتنة واشتغال القلب بهم . وكان عبد الله بن مسعود يقول : (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ وَمَالٍ وَوَلَدٍ إِلَّا يَشْتَمِلُ عَلَى فِتْنَةٍ ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَضَلَاتِ الْفِتَنِ .) » ^(١) .

إذن فإن خلاصة ما يرشد إليه النداء :

« ١ - التحذير من بعض الأزواج والأولاد الذين يلحقون ضرراً دينياً أخروياً ، أو ضرراً بدنياً متعلقاً بالدنيا . وضرر الدين عدم الطاعة لأوامر الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم ، مثل ترك الهجرة التي كانت مفروضة في العهد الإسلامي الأول ، وترك

(١) تفسير الخازن : ٤ ص ٢٧٧ .

الإنفاق في سبيل الله ، أي الجهاد بالمال . وضرر الدنيا كارتكاب معصية إرضاء لهم ، مثل السرقة للإنفاق ، أو هجر الضرّة مثلاً ، أو قطيعة جار أو صديق قريب . . .

والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد ، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

٢- ليس الأزواج والأولاد أعداء بالذات ، وإنما أعداء بأفعالهم ، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوًّا .

٣- إن العفو والصفح ومغفرة الزلّات والخطايا ، أفضل من الانتقام والعقاب . وإن الله غفورٌ للسيئات رحيمٌ بالعباد ، فلا يعجل بالعقوبة ، ويجازيكم خيراً حال العفو والصفح .

٤- إن الأموال والأولاد فتنة واختبار يحمل على كسب الحرام ومنع حق الله تعالى ، فلا طاعة لهم في معصية الله .

٥- عند الله الأجر العظيم ، وهو الجنة ، فهي الغاية ، ولا أجر أعظم منها في قول المفسرين . وهذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة . «^(١)» .

(١) التفسير المنير: ج ٢٨ ص ٢٥٨ .

النداء السامع والثمانون: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا
يُؤْمَرُونَ ﴾ .

التحريم/ ٦

الإسلام بمبادئه الشاملة وأنظمته الخالدة، تضمن فيما تضمن جملة من القواعد
التربوية التي تضع أمام الآباء والمربين المنهج القويم في بناء ذات الإنسان، وفي توجيه الأبناء
وتربيتهم، وفي تنشئة الأسرة النشأة الإيمانية والسلوكية القادرة على حمل أعباء الرسالة .
ومن مبادئ هذا المنهج ؛ الوقاية الكاملة من كل ما يسبب للآباء والمربين والمسؤولين غضب
الله تعالى الذي من صفاته أنه حلیم وأنه جبار، وهذه الوقاية والمسؤولية ونتائجها تضمنها
النداء التالي الذي جاء بصيغة الأمر (قوا) من ؛ وقى، يقي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا
أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا . ﴾ أي لازموا على الطاعة لتحملوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله،
واجعلوا لأنفسكم وقاية من النار بفعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه . وإن المؤمن
الحق حين يسمع هذا النداء يدرك وجوب البدء بحماية النفس، فكيف تكون حمايتها ؟ ثم
كيف تكون وقاية الأهل بعد النفس ؟

أرى أن الوقاية تبدأ من الإحساس بالمسؤولية الفردية أولاً، ومن إصلاح النفس، ثم
بإصلاح الأسرة، إذ من الثابت علمياً وواقعياً أن سلامة المجتمع وقوة بنيانه مرتبطتان بسلامة
أفراده، فالمجتمع ظاهرة تكونها الأفراد . ومن هنا كانت عناية الإسلام منصبية في توجيهاته
الدينية ومبادئه الخلقية، وفي تشريعاته على إعداد الفرد للحياة . وتكامل الفرد مع نفسه

تنعكس آثاره حتماً على المجتمع الذي يعيش فيه . والتوجيه القويم للفرد مآله تحقيق سلوك إنساني في المجتمع ﴿ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ _ الشمس / ٨-١٠ . فمن طهر نفسه من بواعث الشر والفساد أفلح في الدنيا والآخرة . وإصلاح النفس وتطهيرها بحاجة إلى تقوية الثقة بالذات ، ثم إرادة تبلغ مرحلة التصميم ، فالعمل ، والإقدام والالتكال على خالق الإنسان خير محك .

« قال الإمام الشافعي لمؤدب أولاد الرشيد ، حين قال له سراج الخادم : يا أبا عبد الله هؤلاء أولاد أمير المؤمنين ، وهذا مؤدبهم ، فلو أوصيته بهم . فأقبل عليه الشافعي فقال : ليكن أول ما تبدأ به إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاح نفسك ، فإن أعينهم مقصودة بعينيك ، فالحسن عندهم ما تستحسنه ، والقبیح عندهم ما تكرهه . علّمهم كتاب الله ولا تكرهم عليه فيملّوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مقتلة للفهم . » ^(١) .

إذن لا بد من السيطرة على النفس لنهيها عن الشهوات ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ _ النازعات / ٤٠ و ٤١ ، وهذا أمر صعب ولا شك على أبناء هذا الجيل الذين أضعفهم امثالهم لوسائل الراحة ، وأسباب التراخي الكثيرة المتنوعة . وإني لأجد الكثيرين منهم ليرتعد لمجرد كلمة (الكبح) أو النهي والمنع ، فقد اعتاد أن يعيش مدفوعاً بالعادة والإحساس . ولكن ما دمت قد آمنت بالله خالقاً عليمًا حكيمًا قائلًا : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وما دمت أعطيت لنفسك صفة المؤمن ، فالواجب يقتضي أن أعلم أن عبادة الله ليست شعاراً ، وإنما هي حقيقة تتمثل في عقيدة تعمر القلب ، وفرائض تقام تصديقاً لما آمنت به ، ونظام يصرف الحياة ، ولا يقوم دين الله إلا في هذا الكل المتكامل .

(١) مجلة نهج الإسلام : العدد : ٢٢ ، عام ١٩٨٥ .

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلاهلك ، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك ، فإن فضل شيء عن ذي قرابتك فهكذا وهكذا " ^(١) . وإذا تعمقنا في معنى هذا الحديث أدركنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسى فيه قاعدة هامة في الأولويات بالنسبة لموقف الإنسان تجاه نفسه ، وتجاه أهله ، وتجاه أقرائه من حوله ، وتجاه المجتمع والناس . فالأولوية للنفس الإنسانية ضمن المعايير الشرعية بطبيعة الحال ، ولهذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقييد الجوارح فقال : " زنا العيون النظر ، وزنا اللسان النطق بما حرم الله ، وزنا الأذن الاستماع إلى ما حجر عليه ، وزنا اليد البطش . " ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ _ الإسراء / ٣٦ _ وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا " ^(٣) .

فالإسلام دين العقل لاتبعية الهوى ، وإذا كان التقويم والحكم على الحياة ليسا كافيين لتوجيه السلوك إلا بالإرادة القوية ، فالعبادة المستمرة الدائمة كفيلة بأن تنقذ الإنسان من شرِّ هواه . وفي طريق إصلاح نفسك وتقويم سلوكك أيها المؤمن تأتي على المراحل التالية :

١ - حسن اختيار شريكة حياتك ، بهدف إنشاء أسرة مؤمنة قادرة على إشاعة السعادة في بيت الزوجية ، انسجاماً مع قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ _ الروم / ٢١ _ فالإسلام بمبادئه الحكيمة رسم للخاطب المنهج القويم في حسن اختيار الزوجة ، كما رسم لأولياء المخطوبة قواعد

(١) صحيح مسلم : باب ١٣ : ٩٩٧ / ٤١ . ذكره النسائي في سننه ، والسيوطي في الجامع الصغير .

(٢) الجامع الصغير / ٥٧٥١ ، عن ابن حبان . وفي رواية : (العينان تزنيان ، واليدان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، والفرج يزني)

(٣) ذكره الترمذي برقم : ٢٥٧٧ .

وأحكاماً إن اهتدى الناس بها ومشوا على هديها يتحقق التفاهم والتعاون ، كما تتحقق المودة والرحمة المشار إليها في الآية . وأهم هذه القواعد ؛ الاختيار على أساس الدين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تُنكح المرأة لأربع ؛ لمالها ، وجمالها ، وحسبها ، ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك " ^(١) . بمعنى اظفر بذات الدين قبل أن تلتفت إلى المال وغيره . فالمال ربما زال أو أدى إلى الهلاك ، وأشد الهلاك ؛ التحكم في توجيه وإدارة الأسرة حال كونها سيئة الخلق والدين . والجمال طاغ بقدر ما هو مساعد على الطاعة . والحسب إن خلا من الدين والخلق فهو مدمر . وليس معنى هذا أن الجمال غير مرغوب فيه في الزوجة ، بل مرغوب فيه لكمال ردع الشهوة عن الخروج إلى انتهاك حرمة الآخرين ، وإنما المنهي عنه جمال خلا من التحلي بالدين والخلق . فمن أراد زواجاً يعصم به نفسه ويتقي ربه لا يقدم إلا على المرأة ذات المنبت الحسن . علماً بأن من حق الولد على أبيه أن يختار له أمّاً صالحة يفتخر بها ويعتز .

٢- حسن المعاملة الزوجية ؛ لتحقيق سعادة الأسرة ، ونجاة الأولاد ، وحسن السيرة في المجتمع ، وهذا يعتمد على الفقرة السابقة . وقد أفرد الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) باباً خاصاً في آداب المعاشرة الزوجية ، جعله في قسمين : - القسم الأول في حقوق الزوجة ، وذكر فيه اثني عشر أمراً ، منها : حسن الخلق مع الزوجة ، واحتمال الأذى منها ترحماً ، لقوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : " الله في النساء ، فإنهن عوانٌ في أيديكم ، أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله " . ومنها المداعبة والمزاح فيما لا يسقط الهيبة أو يفسد الخلق . ومنها ؛ الاعتدال في الغيرة ، وعدم المبالغة في إساءة الظن .

(١) متفق عليه ، وذكره الإمام النووي في رياض الصالحين ، في باب زيارة أهل الخير ، ص ١٧١ . وتربت يداك : كلمة تفيد الحث والتحريض ، والدعاء له بكثرة المال .

- القسم الثاني في حقوق الزوج على زوجته ، وأولها ؛ طاعة الزوج في كل ما لا معصية لله فيه .^(١)

٣- بعد إشهار الزواج يصبح كل من الزوجين راعياً في أسرته ، ومسؤول عن رعيته لقوله صلى الله عليه وسلم : " . . والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها . " ^(٢) . وهذه المسؤولية ذات شقين : الأول يتعلق بالحرص على احترام الزوجين لبعضهما ، ولأهليهما ، ومعرفة واجبات كل منهما تجاه الآخر . ومن ذلك أن يأخذ الزوج بيد زوجته في الأيام الأولى ليغير من طباعها التي اعتادت عليها في بيت أهلها ، ويغرس فيها محبة الله ورسوله وطاعتهما . والشق الثاني ؛ هو مسؤولية الزوجين تجاه أبنائهما . وإلاّ فما معنى الرجل مسؤول ؟ وما معنى أن المرأة مسؤولة ؟ « أليس معنى هذا أن يلحظ المربي الولد ، ويلاحقه ، ويراقب حركاته وسكناته ، حتى إذا أهمل حقاً أرشده إليه ، وإذا قصر في واجب حضّته عليه ، وإذا رأى منكراً نهاه عنه ، وإذا فعل معروفاً شكر له صنيعه » ^(٣) . وتفصيل هذا يأتي بالبند التالي :

٤- بعد أن ينظم الإسلام العلاقة بين الزوجين ، ينظم شؤون الأبوين مع الأولاد ، وهذه مسؤولية كبيرة وشاقة ، تبدأ من الولادة ، إلى التمييز ، فالمرحلة ، إلى أن يصبح مكلّفاً سوياً .

« ولو تتبعنا آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للقيام بمسؤولياتهم لوجدناها أكثر من أن تحصى ، وما ذاك إلاّ ليعلم كل مربٍّ ضخامة مسؤوليته ، فمن هذه الآيات : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ طه / ١٣٢ ۖ . وإذا كان المربون مسؤولين عن تربية الأولاد وتكوينهم وإعدادهم للحياة فعليهم أن يعلموا حدود مسؤوليتهم

(١) أنظر إحياء علوم الدين : ص ٤٠-٥٥ .

(٢) رواه البخاري برقم : ٤٩٠٤ ، وذكره مسلم برقم : ١٨٢٩ / ٣٣ .

(٣) تربية الأولاد في الإسلام : ٧٢٩ / ٢ .

ومراحلها المتكاملة ليستطيعوا أن ينهضوا بمسؤوليتهم على أكمل وجه . وأهم هذه المسؤوليات في نظر الكثير من المربين ، مرتبة على الوجه التالي : مسؤولية التربية الإيمانية - الخلقية - الجسمية - العقلية - النفسية - الاجتماعية - الجنسية . والأولى تعني ربط الولد منذ تعقله بأصول الإيمان ، وتعويده منذ تفهمه أركان الإسلام ، و تعليمه من حين تمييزه مبادئ الشريعة»^(١) . فما دام الولد صغيراً يعيش في كنف أبويه ، وما دام في سن التربية والتعليم ، فيجدر بالمربين ألا يتركوا وسيلة من وسائل إصلاحه وتهذيب وجدانه وأخلاقه إلا سلكوها ، وعليهم أن يعرفوا أن أجدى الوسائل التربوية في إعداد الأبناء خلقياً وتكوينهم نفسياً واجتماعياً؛ تتركز بالقدوة الحسنة ، ذلك لأن الآباء والمربين هم المثل الأعلى في نظر الأطفال ، ويأتي بعدها في التأثير ؛ الموعظة الحسنة ، والنصيحة الراشدة ، والقصة الهادفة . وإلا فكيف يقي المربي أهله وأولاده ناراً إذا هو لم يعظهم ويراقب تصرفاتهم . روي عن علي رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ : أدّبوهم ، وعلموهم . وقال عمر رضي الله عنه : (تنهونهم عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهم بما أمركم به ، فيكون بذلك وقاية بينهن وبين النار) . وقد جاء عن أبي حفص عمر بن أبي سلمة قال : كنت غلاماً في حَجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت يدي تطيش في الصحيفة ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا غلام ، سَمَّ الله ، وكُلَّ بيمينك ، وكل ممّا يليك " ^(٢) . فمن أول ما يرشد إليه الحديث : توجيه الولد ، وملاحظته ، ووعظه . حتى الأمر بالصلاة فله أسلوبه التربوي ، والذي يتجلى بقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ طه / ١٣٢ . كما روي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسَبْعَ ، واضربوهم عليها لعشر ،

(١) المصدر السابق : ١٥٢ / ١ .

(٢) البخاري ، كتاب الأطعمة : ٥٠٦١ ، ومسلم ، باب الأشربة : ٢٠٢٢ .

وفرقوا بينهم في المضاجع^(١). وكلها نماذج لضرورة توجيه وتربية الأطفال لأن مرحلة الطفولة الأولى هي التي تخلق شخصية الطفل، وما يفعله الأبوان ومن حول الطفل ينعكس في أفعاله وإحساساته. أما أمه فإنها تعني لديه الشيء الكثير لما تتمتع به من حنان ورأفة أودعها الله تعالى في قلب الأم. ولكن عليها أن تراعي عدم تحول الرحمة والشفقة إلى دلال يضعف الشخصية ويجعلها اتكالية، ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم إذ قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

كما يجب أن لا تتحول الأبوة إلى قسوة تلغي شخصية الابن، فالعقوبة كما أبانها الحديث المذكور لا تأتي إلا بعد استنفاد جميع الوسائل التأديبية والزجرية، وبعد بلوغ الطفل العاشرة من عمره، ومنعاً للتماذي في المفاسد والمنكرات. وعلى الأب أو المربي أن يكون حكيماً في استعمال العقوبة الملائمة التي تتفق مع ذكاء الطفل وثقافته ومزاجه، وأن يتجنب الضرب وهو في حالة من الغضب، ولا يضرب الأماكن الخطرة كالرأس والوجه والصدر. فالمسؤولية كبيرة، وتزداد صعوبة يوماً بعد يوم عما كانت عليه في الماضي.

«في الماضي عندما يربى الأطفال بمفاهيم مجتمعتنا كالصدق والغيرة على الجار والجارة، كنا جميعاً داخل البيت وخارجه نراقب مدى التزام أطفالنا بأهداف تربيتهما. أما الآن فليس كل ما يدخل مفهوم الأطفال والياقين والشباب هو فقط من صناعتنا... إن الخوف الآن وبشكل أكبر وأسرع هو (الغربة) بين ما نحن عليه، وما يُعطى لنا، إلا أنه ليس كل ما نحن عليه سيء، وليس كل ما يعطى لنا جيد... من الضروري جداً أن نجدنا أولادنا دائماً معهم، وأن يرى فينا أولادنا الملجأ الأول والأخير ما أمكن ذلك في كل شيء... يجب أن ندرك أن المعرفة الصحيحة هي من أعمدة بناء شخصيتهم الآن وللمستقبل ولكل عمر... فلا يجوز الخلط كي لا يقع أولادنا عرضة إلى تفسير الآخرين... يجب أن لا ننسى أن ما يعطى لنا بواسطة الأطباء يقدم عن طريق شباب

(١) الجامع الصغير/ ٨١٧٤، وذكره أبو داود برقم/ ٤٩٥.

حلوين من الجنسين في بيوت جميلة ، ومع خلفيات حلوة ، بهدف التأثير ما أمكن أثناء تقديم الفكرة أو توجيه الانتباه . . ومن هنا تكمن خطورة الموقف السلبي للأهل . يجب المقاومة ولكن بتبصر ، ويجب المساهمة بتقديم المعرفة ، ولكن ببساطة . ذلك هو المطلوب في معركة يجب أن نكون مهيين لها وبشكل صحيح . . . »^(١) .

بالتربية القويمة التي يجب أن تنهأ لها بشكل صحيح يمكن أن نقى أنفسنا ، ونوجه أبناءنا ليميزوا الخبيث من الطيب في ما يعترضهم في مسيرة حياتهم ، وفي ما أصبح مفروضاً من برامج إعلامية دخلت كل بيت تقريباً ، برامج منها الخبيث ومنها الطيب في آن واحد . وإذا استطاع الأبوان توضيح المنهج الحق ، وغرس ميزان التمييز بين الحق والباطل ، يمكن أن يكفّا عن توجيه الأولاد بالأوامر المتعاقبة في كل خطوة وخطرة ، ولا يتدخلوا إلا حينما يتبدى لهما أن هناك خللاً في التمييز بين ما أريد به وجه الحق ، وما يراد به إرضاء نزوات الشيطان وأعوانه من الساعين إلى هدم المجتمع الإسلامي والعربي في آن واحد .

ومسؤولية التوجيه قد تكون أشق تجاه البنات ، سيما وأنتا نرى رجالاً التزموا إلى حد ما بأوامر الله ورسوله ، ولكنهم لم يتمكنوا من التأثير في توجيه زوجاتهم أو بناتهم لما يرضي الله ورسوله ، بل خالفن الشريعة مظهراً وسلوكاً بحجة مسابقة العصر ، أو متأثرات بالذوق الهابط الذي تفشى في بعض المجتمعات ، وروجت له وسائل الإعلام تحت أسماء مختلفة . « وقد سبب الجهل والتقليد الأعمى انحرافاً خطيراً بالمرأة المسلمة ، ونجح والصهيونية فيما لم يستطيعوا تحقيقه بالحروب الصليبية والغزوات المعروفة عبر التاريخ ، وقد أخرجوا المرأة من إيمانها وحجابها ، فخرجت مبتذلة ، عارضة مفاتنها . . وأصبح لموضات الأزياء مواسم خاصة يعرض فيها كل لون من ألوان الإغراء والإثارة . . .

(١) مؤيد أبو الشامات/ نحن وأولادنا والثقافة القادمة/ مجلة تنظيم الأسرة، ص٥١/ ١٩٩٦ .

وبالجملة فقد أدى التهتك إلى انحلال الأخلاق ، وتدمير الآداب التي اصطلاح الناس عليها في جميع المذاهب والأديان .»^(١).

أجل لقد تكشفت لنا أمور عن طريق الاتصالات الحديثة تدل على هبوط في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين لدى بعض المجتمعات ، وتردي وتساقط على الشهوات ، وتخط في النظر إلى المرأة في حياة المجتمع الإنساني . وللأسف الشديد أخذ الكثير من حولنا يتهم المسلمين بالتعقيد ، ومن دلائل هذا التعقيد أو التعصب _ كما يدعون _ إدخال العنصر الأخلاقي والديني في كل أمر ، لذلك ترى حياة الغربيين سهلة بسيطة مريحة وغير معقدة . . ومن هنا يتسلل المغرضون ليقولوا بأن الإسلام قابل للتطور وفق قاعدة (تبدل الأحكام بتبدل الأزمان) ولكن فقهاء يعقدون الأمور ويتسيبون في تخلف المجتمعات الإسلامية . . إلى مثل هذا الكلام والافتراءات التي إن أردنا الخوض فيها طال الحديث كثيراً ، وربما خرجنا عن البيان المقصود من النداء الذي نحن في صدده .

أعود إلى ما نبّهت إليه من ضرورة تربية الأبناء وتوجيه الأسرة لما فيه طاعة لله ورسوله ، مشيراً إلى أن هذه التربية لا تعني انتقاد الترفيه بعد فترة من النشاط الإيجابي البناء ، وإنما قصدت أولئك الذين غرّتهم الحياة الدنيا حتى يكاد ينحصر نشاطهم كله في اللهو والتقليد الأعمى ، دون تحكيم للعقل والوجدان في أهداف الغرب الرامية إلى تدمير مجتمعاتنا للسيطرة على جميع مقدراتنا . فإذا لم نفهم معنى المسؤولية ، ولم نفعل ما ينسجم مع المنهج القرآني ، ولم نسهم بنصيبنا في حركة التقدم والبناء ، فسوف نسمع صوت التعاسة يرف في أعماق أنفسنا ، وسوف يعلو هذا الصوت مع الزمن حتى لا يعود في الوسع تجاهله . إن ضحايا الفشل من اللاهين أو المندمجين في نشاط عقيم يفلحون في شغل كل دقيقة من أوقاتهم بما لا طائل تحته ، وهذا مما يهدد كيان أمتنا وينسبنا رسالتنا وعلّة وجودنا . فقد روي عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها ، أن النبي

(١) منهج سورة النور: ص ٢٧٥ .

صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه _ وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها _ " فقلت : يا رسول الله ؛ أنهلكُ وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم ، إذا كُثِرَ الخبث " ^(١) .

من أجل هذا الذي يتعرض له مجتمعنا ، ومن أجل هذا الذي يهدد كياننا ، قلت بأن المهمة التربوية أصبحت أشق وأصعب مما مضى . ولكن ما يخفف من صعوبتها بناء ذات الإنسان أولاً للوقاية من الغوايات ، ثم بناء الأسرة الصالحة التي يمكن أن تأخذ دورها في بناء المجتمع . فالإنسان لا يتكوّن إلا في يدي الإنسان ، والأسس الأولى لتكوينه تقوم داخل الأسرة ، فمن المهم أن تجري في الأسرة محاولة للتجديد الإنساني ، لتغيير الحياة الداخلية في الإنسان الذي تلهيه الحياة الحديثة عن حالته الطبيعية وعن سيره السوي . وكل حل اجتماعي معرض للخطر إذا هو لم يحقق تحسين الإنسان الروحي أولاً ، الإنسان المؤمن بمنهج الله . ومما تعارف عليه العامة منذ القدم (العلم في الصغر كالنقش على الحجر) . ومن هنا يبرز دور الأبوين _ اللذين لا تلهيهم الحياة الحديثة عن سيرهما السوي _ في التربية ، التربية التي تفتح المواهب الحسية والحياة الداخلية ، التربية التي تخاطب الطفل من أجل توجيه إنسان المستقبل المؤمن بالعقيدة الصحيحة ، والمؤدي للعبادات المفروضة ، والمتحلي بالآداب والفضائل ، وإذا تضافرت المناهج المدرسية مع التربية الأسرية شب الطفل على حب العلم وكيفية الاستفادة منه معرفة وعملاً صالحاً ، وعلى حب الحرية والشعور بالمسؤولية . ولا شك أن الأبوين اللذين يضعان هذا النداء الإلهي نصب أعينهما ، ويستشعرا مراقبة الله في نفسيهما ، يكونان اندفاعهما للتربية أقوى ، ونهوضهما بهذه المسؤوليات أكبر . فالأولاد أمانة في أعناق الآباء ، وإذا لم يقدرُوا الأمانة الملقاة على عاتقهم فلن يستطيع الجيل الجديد خوض غمار الحياة بقلوب مؤمنة وعقول ناضجة متزنة ، ومن جهة أخرى قد

(١) صحيح البخاري/ ٣١٦٨ . وصحيح مسلم/ ٢٨٨٠ . (الخبث : الفسق والفجور ، وفي الحديث أن الخبث إذا كثّر قد يحصل الهلاك وإن كثّر الصالحون) .

يفاجئهم الموت بغتة وهم لا يشعرون ، ويلاقون العذاب الموعود في نار جهنم التي ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ، وجاء في التفسير : المراد بالناس ؛ الكفار ، وبالحجارة ؛ الأصنام التي تعبد ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ _ الأنبياء / ٩٨ .
﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أي خزنة غلاظ الخلق والطباع ، أقوياء ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

ختاماً أقول : لو تدبر كل إنسان في مجتمعنا هذا النداء لأصبح مجتمعنا في مصاف المجتمعات المتقدمة علماً و عملاً بكل ما في ذلك من معنى ، و حصلت أمتنا على خير كثير و كانت بحق خير أمة أُخْرِجَتْ للناس ، والله أعلم .

النداء الثامن و الثمانون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نورهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ـ التحريم / ٨ ـ

من فضل الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهج شامل قويم في تربية النفوس ، وتنشئة الأجيال ، وما ذاك إلا لتحويل البشرية من ظلمات الضلال والفوضى إلى نور الهداية والاستقرار . ومن فضله عليهم أن يعفو عما مضى ولا يحاسبهم عما أخطؤوا بحق هذا المنهج وعما اقترفوه بحق الله تعالى ، أو بحق أنفسهم ، أو بحق الآخرين ، إذا تابوا وأنابوا إلى بارئهم . وفي هذا النداء الذي يعتبر النداء الإلهي الختامي في كتابنا هذا نرى كيف دعاهم إلى التوبة من السيئات والمعاصي التي اقترفوها ، وفتح لهم باب التوبة على مصراعيه إن رجعوا إلى الله تائبين من ذنوبهم مستغفرين ربهم فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي ارجعوا دائماً إلى الله الذي خلقكم ليلوكم ويختبر إيمانكم ، ارجعوا تائبين من ذنوبكم مستغفرين ربكم . ولطالما جاء النداء بصيغة الأمر (توبوا) فهذا يدل على أن التوبة فرض في كل الأحوال والأزمان . وقد تضافرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأئمة على وجوب التوبة .

وقيل في معنى التوبة ؛ الرجوع عن الخطأ، وترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، فإذا كانت التوبة واجبة، ومن عموم العباد، لقوله تعالى: ﴿جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾، فمعرفة الذنوب التي يجب التخلص منها على الفور إذن واجبة. وما الذنب إلا مخالفة لأمر الله تعالى في ترك الأمر الذي فرضه علينا، أو فعل ما نهانا عنه. وقيل: التوبة ندم يورث عزمًا وقصدًا. و﴿توبة نصوحاً﴾ أي إقلاع عن الذنب في الحاضر، وندم على ما سلف، وعزم على ألا يفعل في المستقبل. وزاد آخرون: ثم إن كان الحق يتعلق بأشخاص فعليه رد الحق إلى أصحابه، أما أن يأكل مال الغير دون حق، ثم يستغفر الله فهذا ما لا يقبله المنطق السليم.

«وقال ذو النون^(١): علامة التوبة النصوح ثلاث: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام. وقال سري السقطي: لاتصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين، لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله. وقد روي عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب ومعاذ: التوبة النصوح؛ أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع.»^(٢)

والنداء الذي نحن بصده يغري كل مذنّب يطمع بالعودة إلى جادة الصواب للحصول على عفو قابل التوب أكرم الأكرمين القائل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ النساء/ ١١٠ - فالله جلّت قدرته موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب. والذي يعمل السوء يظلم نفسه قبل أن يظلم الآخرين، لأن الذنوب والسيئات تفسد الإيمان. فمن اقترف السيئة أو المعصية ثم استيقظ وعلم أنه وقع في المخالفة، عليه أن يلجأ إلى خالقه ﴿وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ،

(١) ثوبان بن ابراهيم المصري، كان أوحده وقته علماً وأدباً وورعاً، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضي الله عنه. - وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٢) تفسير القرطبي: ج ٢٨، سورة ٦٦، آية ٨.

وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴿٢٧﴾_ الشورى/ ٢٧ . وكلما سارع إلى التوبة كلما ظهر حرصه على إيمانه ، لأن الأدران إذا تراكمت تصعب إزالتها . وهذا ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ ، وخير الخطّائين التوّابون " ^(١) . فالمؤمن لا يتهاون في الرجوع إلى باريه ، والندم على ذنبه ، والمؤمن حذرٌ من وساوس الشيطان ودسائسه ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾_ الأعراف/ ٢٠١ . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتبع السيئة الحسنة تمحها " ^(٢) . والعبد لا يستغني في حال من الأحوال عن محو السيئات عن قلبه ، بمباشرة حسنات تضاد آثارها تلك السيئات ثم إن الإنسان لا يدري متى يأتيه الأجل ، وهذا الأجل إذا جاء يغلق باب التوبة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾_ النساء/ ١٨ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾_ النساء/ ١٧_ بمعنى أن الذي يقترف ما لا يرضي الله وهو بحالة نفسية جامحة من ثورة الشهوة أو سورة الغضب تجعله ينسى الحق ولا يعرف أوجه الصواب ، يجب عليه بعد زوال تلك الحالة مباشرة التوبة وقبل أن يأتيه نذير الموت من مرض أو نحوه . أضف إلى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بضرورة تحاشي الغضب لما يؤدي من فقدان السيطرة على النفس الأمارة بالسوء ، فيصل إلى ما لا يرضي الله من جهة ، وإلى ما يسيء إلى جسمه وصحته في الحياة الدنيا ، « ورد في الأثر أن أعرابياً جاء يستوصي الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : أوصني ، فقال له الرسول : " لا تغضب " ، ثم أتاه من بين يديه فقال له أوصني ، فقال له الرسول : " إياك والغضب ، فإن الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر

(١) أخرجه الترمذي/ ٢٦١٦ ، عن أنس بن مالك ، وابن ماجه/ ٤٢٥١ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي : ١١٥ .

العسل" ^(١) . وكثيراً ما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الغضوب بالوضوء ، وذلك لما في الوضوء من أثر في تهدئة غضبه والتخفيف من فوران نفسه . فالغضب يؤدي إلى إفراز مواد متعددة ، منها مادة الأدرينالين التي تفرزها لب الكظر ، الأمر الذي يؤدي إلى تقييض الأوعية مما يساهم في إحداث الجلطة القلبية . . . » ^(٢) .

إذن على المرء المسلم أن يتجنب الغضب لئلا يقع في معصية ، وإن وقع فيها فليسارع إلى التوبة .

« ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطيرين عظيمين : أحدهما ؛ أن تراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو ، ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ _ المطففين / ١٤ _ . فمثل هذا القلب قد لا يرجع ولا يتوب . ثانيهما ؛ أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، فيأتي الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . . . وقد روي أن المؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره ، وكذلك يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبران بقدر معرفة المخالف . . . » ^(٣) .

والتوبة أقسام : ١- توبة عن الكفر بالله تعالى ، والشرك به ، وهذه واجبة على الذين لا يؤمنون بالله أو يشركون به . فيتحتم على هؤلاء أن يتوبوا معلنين بأن الله واحد لا شريك له وأن محمداً رسول الله . ولا تقبل التوبة من الكافر يوم القيامة ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُستعتَبُونَ ﴾ _ الروم / ٥٣ _ . وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة

(١) رواه البيهقي ، وابن عساكر ، والحكيم .

(٢) الطب والإيمان ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٣) موعظة المؤمنين : ص ٣١٩ و ٣٢٣ .

فلا يؤمن إلا كان من أصحاب النار" ^(١). وقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ سبأ/ ٢٨ .

٢- توبة عن المعاصي التي بينه وبين ربه ، أو عن الذنوب التي فيها حق لله تعالى ، كترك صلاة أو زكاة ، فإن التائب عليه أن يضم إلى الندم والاستغفار والحسنات قضاء ما فاته من صلاة ، وهكذا إن ترك صوماً أو فرط في زكاة .

٣- توبة عن الجرائم التي بينه وبين الخلق « وهذه لا تصح إلا ببرد المظالم ، وإرجاع الحقوق المغتصبة إلى أصحابها . ومن أهم ما يجب تداركه ؛ الحقوق المالية . . . فإن كانت المعصية مالاً ونحوه ؛ رده إلى صاحبه . وإن كان حدّ قذف أو نحوه ؛ مكّنه من نفسه أو طلب عفوّه . وإن كان غيبة ؛ استحلّه منها ، وهكذا . . . حتى إذا كان عنده مال ولم يعرف مالكة ولا ورثته عليه أن يتصدق به عنه ، ويدعوله ، ويرجوره التجاوز والقبول . وإن كان قد قتل بريئاً عمداً فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم ، وإن شاء عفا عنه ، أو أخذ الدية . . .

٤- توبة العابدين والطائعين : فالتوبة ليست مقصورة على المخطئين فقط ، أو المجرمين ، فإن أهل الطاعة محتاجون إلى التوبة من عدة جهات :

أ- من الخلل الذي يقع في الطاعات نفسها ، إذ قلما يأتي بالعبادة المطلوبة مبرأة من كل عيب .

ب- من الظن بأن هذه الطاعات هي منتهى حق الله عليه ، وأنه بأدائها قد دفع الله ثمن نعمه .

ج- من التمسك ببعض القربات ، وغيرها أوجب منها ، كالغني الذي يستكثر من الصلوات ويقتصد في النفقات والمحتاجون يثنون حوله من ألم الحرمان . . . » ^(٢) .

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة محمد (ص) ، حديث : ١٥٣ .

(٢) الحب بين العبد والرب : ص ٣٣ و ٣٧ .

نعود إلى خطابه تعالى بفرض التوبة منبهاً المؤمنين أن توبوا توبة صادقة تنصح صاحبها بعدم العود إلى ما تاب منه ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ ﴾ بهذه التوبة ﴿ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ التي اقترفتموها ، لأن في الاعتراف بالجرم وطلب الغفران ما يستدعي الرحمة ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ ﴾ بردّ شفاعته ، وهو يوم القيامة ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ « أي نور المؤمنين يضيء لهم طريقهم ويسعى أمامهم ، وعن أيمانهم حال مشيهم على الصراط كما جاء في سورة الحديد : ﴿ وَيجعلُ لكم نوراً تمشون به . . ﴾ _ الحديد / ٢٨ _ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إِنَّكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ ويدعوا المؤمنون حين يطفئ الله نور المنافقين يوم القيامة قائلين تقرباً إلى الله : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا . . ﴾ أي ابقه لنا فلا ينطفئ حتى نتجاوز الصراط ، واستر ذنوبنا ، وتجاوز عن سيئاتنا ، ولا تفضحنا بالعقاب عليها حين الحساب ، فإنك على كل شيء قدير ، ومنه إتمام نورنا ، وغفران ذنوبنا ، وتحقيق رجائنا ، فأجب دعاءنا . . » ^(١) .

ختاماً ، لا بدّ من التعجيل بالتوبة ، والدوام عليها . ومن الوسائل المفيدة في الحفاظ عليها ؛ تلاوة القرآن الكريم . فقد روي عن قتادة قوله : (القرآن يدلکم على دائکم ودوائکم ، فداؤکم الذنوب ، ودواؤکم التوبة) والله أعلم .

(١) التفسير المنير : ج ٢٨ ، ص ٣٢٠ .

خلاصة و نتائج

عند استعراضنا لنداءات الرحمن التي خاطب بها عباده الذين آمنوا وصدقوا برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وجدنا فيها هدايات متنوعة ، وهذا أمر يدهي لأنها جزء من هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم . وعند دراستنا لهذه النداءات رأينا نصوصاً متعددة الأغراض :

- منها ما عني بعقيدة التوحيد ، لأنها أصل الإيمان ، وأساس العقيدة السليمة ، وأصل كل عمل صالح . وبعضها أكد على أركان الإيمان كالنداء (٢٦) ، وبعضها الآخر تناول جانباً من جوانب العبادات كالنداء الخامس .

- ومنها ما عني بأحكام تشريعية ، فبيّن أساليب الحرب والسياسة ، وأهمية الاستعدادات المعنوية والمادية لمجابهة قوى الشر والبغي والعدوان ، أو دعا إلى الوحدة وعدم التنازع كالنداء (٤٩) . ورأينا أن من أهم ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إزالة كل ما يدعو إلى التفرقة كالنداء الثالث عشر .

- ومنها ما عني بالتوجيه الشخصي والاجتماعي ، وحض على التربية وإقامة دعائم المجتمع الفاضل ، (كنداءات سورة الحجرات) . كما حذر بعضها من إخلاف الوعد ، وأمر الوفاء بالعقود والالتزامات المالية (نداء / ٢٨) .

- ومنها ما وعظ المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب (نداء / ٧٧) ، أو كرر الحث على التقوى ، كما في التعقيب على التنظيمات الاجتماعية (نداء / ٢٤) ، وفي التعقيب على التكليف التعبدية (نداء / ٥) ، وفي التعقيب على القصاص (نداء / ٤) ، وعقب آية البر التي استوعبت قواعد التصور الإيماني ، والسلوك العملي ، وغيرها كثير . ولاحت لنا التقوى من خلالها غاية يدرك قيمتها المؤمنون بهذا المنهج .

وخلال بيان الغرض من كل نداء كنا نلمح إلى بعض الأمراض التي أصابت مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، وكيف جاءت النداءات علاجاً لتلك الأمراض ، أو حذرت

من الوصول إلى أزمات متعددة الجوانب إن أعرض الناس عن منهج الله تعالى بعد الذكرى ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ طه / ١٣٤ . فما علينا إلا أن نتدبر هذا الذكر أو القرآن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُذَكِّرَ بِهِ آيَاتِهِ﴾ وتدبر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب (العقل) . ولعل من نافلة القول أن نذكر أن ديننا الحنيف قد جعل العقل مصدراً للتكليف ، والتفكير وسيلة للتدبر ، والحوار طريقاً للوصول إلى الحق ، وهي عناصر مهمة في صياغة التفكير السليم ، ومساعدة على وضع الخطط الكفيلة بتحقيق التقدم والتخفيف من وطأة القلق الذي سببته الأزمات ، ولا حاجة للتفكير كثيراً في هذا المجال ، لأن القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم خففت على الإنسان كثيراً ببيان سبل السلام ، والتحذير من طرق الغواية ونتائجها الخطيرة ونتائجها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأن القرآن لن يكون عرضة للخطأ ، وليس بدايات تتجدد كل يوم وفق أهداف البعض أو قصور إدراكهم .

ولئن كانت أنواع الأخطار كثيرة ، فإنني لن أتعرض إلا لما أراه أشد خطراً على إسلامنا وعروبتنا . وهي من وجهة نظري تكمن في نقطة رئيسية تشعب عنها أمور كثيرة . إنها الجهل بأنواعه ، انطلاقاً من الجهل بالمنهج الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إلى الجهل بقوانين الوجود . وإذا كان لبعض الأمم عذر في التخلف فلا عذر للعرب والمسلمين مادام الدستور الأزلي ثابتاً واضح الأهداف والغايات . ثم أقصر على ثلاثة أمور متشعبة عن هذا الجهل :

- النقطة الرئيسية : الجهل : إن الجهل بالمنهج القرآني تبرزه لنا صور كثيرة من

الممارسات الخاطئة أو المعبرة عن فهم خاطئ ، منها :

١- ما كرسه البعض من أن الإسلام دين عبادة فقط ، وعلاقة بين الخالق والمخلوق ،

أما السعي في الدنيا فيصرف عن العبادة لقوله تعالى : ﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾ آل عمران / ١٨٥ . وقد أوضحنا المقصود من مثل هذا القول في النداءين

(٣٧ و ٥٣)، وأن الأصل في طبيعة الحياة أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة، وأن يكون الطريق إلى صلاح الدنيا هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة .

٢- اتكاء البعض على قوله تعالى : ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بقصد تبرير التخاذل، وعدم سلوك السبيل السوي . وإني لأعجب أن أرى في عصر العلم والتقدم الفكري من يفسر الأمور على غير حقيقتها ، ويسلك الطريق الوعرة ويضل فيها ، ثم ينسب إلى الله عزّ شأنه ما يصيبه من أذى أو تخلف ، دون البحث عن السنن الكونية التي أرشدنا إليها تعالى . ناسياً أن الزرع مثلاً إذا سقي بالماء ينمو ، وإذا سقي بالزيت لا ينمو . وقد قال تعالى : ﴿فَمَنْ أَتَّبَعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه / ١٥٣ ، وهو القائل : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل / ٩٦ .

يقول الشيخ (محمد الغزالي) رحمه الله - في قوله تعالى ﴿فَإِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فاطر / ٨ : « نحن نجد أن إطلاق المشيئة في آية تقيده آية أخرى يذكر فيها الاختيار للإنسان صريحاً ، أي أن إضلال الله لشخص معناه ؛ أن هذا الشخص أثر الغي على الرشاد ، فأقره الله على مراده ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الصف / ٥ . . أنظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية في قول الحق وهو يتكلم عن إرادته : ﴿ قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴾ الرعد / ٢٧ فهو يهدي إليه من أناب ، ولا يهدي القوم الفاسقين . . . »^(١) .

ولو لم يخلق الله الناس مختارين لما بعث إليهم رسلاً ، ولا أنزل كتباً ، ولما حدد لهم يوماً يكافئ فيه الطائعين ويعذب المخالفين ، ولكان تعذيبه لهم ظلماً ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فصّلت / ٤٦ . وهكذا من تعلق بأسباب الخير والارتقاء من إيمان وعمل صالح وتقوى أكمل الله غايته ويسره للحسنى ، ومن تعلق بأسباب الانحلال وجعل من نفسه عبداً لأهوائه يسره للعسرى .

(١) عقيدة المسلم ، ص ١٢٨ .

٣- عدم فهم القصد الحقيقي لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ _ آل عمران/ ١٢٢ . وهذا الموضوع تعرضنا له في النداء (٣٢) مصححين ما ظنه البعض من أن الاعتماد على الله في الرزق وشؤون الحياة اتكالا وعدم أخذ بالأسباب ، وفرقنا بين التوكل على الله الذي هو قوة إيجابية تدفع إلى البناء ، وبين التواكل الذي هو الركون إلى الكسل ، كطلب النجاح من غير جد ، أو النصر من غير إعداد . فالتواكل يقتل طموح الإنسان ، بينما أوجب الإسلام في صدور المؤمنين جذوة الأمل وحب العمل وإتقانه ، والكسب الحلال المترافق مع ذكر الله وقدرته ونعمه .

- أمور متشعبة عن الجهل : ١- الخوف : وله عدة أسباب منها :

أ- سوء التربية والتوجيه ، منذ الطفولة الأولى ، لأن الطفل بفطرته لا يعرف إلا الصدق والبراءة ، وتحت تأثير الخوف من الضرب يضطر إلى الكذب ، أو يخاف ممن يتوهم أنه قادر على إيذائه . ومن هنا انتفت الصراحة ، وساء حال المجتمع . وكان هذا من عوامل اعتداء القوي على الضعيف ، والظالم على البريء .

ب- عدم تدبر آيات المنهج التي تحدثت عن الخوف وبعض أنواعه ، وأظهرت أن الخوف من عمل الشيطان ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . وقد أوضحنا المعنى في النداءين (٦ و ٥٧) ، وكيف يتمكن الشيطان من الذين يتوكلونه ، ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ _ النحل / ٩٩-١٠٠ . و أتينا على الخوف من الموت في النداء (١٦) ، وأنه أول خوف القاء إبليس في قلب آدم ، ثم اخترع لهم أنواعاً من الخوف من شأنها أن تحطم أعصابهم ، من ذلك خوف الناس الذي ساعد على وجوده _ كما ذكرنا في الفقرة السابقة _ عدم اتباع الأساليب التربوية السليمة . ثم خوف الفقر ، وتعرضنا له في النداء (٧) . فإذا كنت أيها القارئ الكريم ممن يريدون السعادة وراحة النفس فانزع خوف الموت من قلبك . وإذا كنت ممن يريد العزة فانزع خوف

الناس من قلبك ، فالمؤمن لا يخاف الفانين . و قل الحق ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وهذا ما أوضحناه في النداء الثامن .

وخير علاج يستأصل الخوف من جذوره ؛ هو الإيمان بحقيقة الخالق وصفاته وقدرته على نصر من ينصره . فالإنسان ضعيف في ذاته ، ولكنه قوي بالله الذي ملكه العقل ، ورفع به العلم إلى أعلى الدرجات . كل ذلك من شأنه أن يورث في القلب قوة معنوية تجعله لا يبالي بالجهاد دفاعاً عن العقيدة والوطن والأمة من عبث العابثين ، مثله الأعلى ؛ الشهادة أو النصر .

٢- معاداة الصهيونية و حلفائها للعرب و المسلمين : وقد اتخذت هذه المعاداة أسلوب الخداع و التضليل بداية ، ثم ازداد الأمر وضوحاً في ظل هجمة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني على فلسطين . ثم ظهرت على سطح الواقع العربي دعوات إقليمية و انقسامية ليست إلا جزءاً من مخططات الاستعمار و ألاميه . و كشفنا خلال ما عرضناه عن مخططات استعمارية تتخذ طرقاً مختلفة للدخول إلى المجتمعات الإسلامية و العربية ، تتخفى فيها عن هدفها من إعلان التبشير و التشكيك بالعقيدة . و ربما كان من أتعس حالات هذه الأمة ظهور فئات مخدوعة بأساليب التضليل الداعية إلى إلغاء ثبات الشريعة الإسلامية ، و اعتناق الفلسفة النسبية التي تقرر أن كل شيء يتغير و يتبدل بتغير المكان و الزمان .

و عودة خاطفة إلى بروتوكولات حكماء صهيون _ التي عرضنا نماذج منها _ ترينا نصوصاً واضحة من أهدافها نشر الإباحية و خراب النظام العائلي و الاجتماعي و غيره في العالم . و ما الدعوة إلى (العولة) إلا أسلوب جديد من أساليب التآمر على المستضعفين في الأرض عامة ، و على العرب و المسلمين خاصة ، و قد أشرنا في النداءين الأول و الثاني عشر إلى أن التوجه نحو العولة أحد أساليب محاربة العرب و التاريخ العربي ، و محاربة الإسلام و التاريخ الإسلامي . و لا أقصد بهذا أن ننحصر في التاريخ أو في تعداد المآثر و التغني بالأمجاد ، _ مع أنها غذاء متصل للوعي العربي و الإسلامي _ ، إنما القصد تفهم جذور

الوعي العربي الإسلامي ، ومقوماته التي يتصل تأثيرها عبر الأجيال . فإن الأجيال القادمة عليها أن تفهم كيف كانت الجزيرة العربية قبل الإسلام مهددة بقوتين كبيرتين ؛ الفرس في الشرق ، والروم في الغرب ، وكل واحدة منهما تحاول السيطرة على أطراف الجزيرة العربية « وجاء الإسلام فكان فيض الروح العربية ، وقمة الوعي في هذا الدور ، وبذا أكسبت الحركة الإسلامية الوعي العربي وضوحاً في المعنى والاتجاه . . . وحقق العرب بالإسلام معنى لوعيهم وتوثرهم ، أمة واحدة ، ولغة واحدة ، ورسالة تاريخية ، ووجهة واحدة . ولأول مرة خرج العرب إلى مسرح التاريخ من خلال الصراع بين الشرق الساساني والغرب البيزنطي ومن خلال الفرقة والفوضى تحت راية واحدة .»^(١)

وما أريد الوصول إليه هنا ضرورة إدراكنا لمجمل ألعيب الاستعمار . فهذا الإدراك يوضح لنا سرّاً كبيراً من أسرار شقائنا . ويحفزنا نحو سلوك السبل المساعدة على مجابهة هذه الظاهرة . والسييل الأول هو تدبير معاني النداء التاسع والأربعين وغيره .

٣- التجزئة التي فرضها الاستعمار على العرب والمسلمين : وهذا ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما سبق ذكره . فواقع التجزئة يدركه كل مواطن ، ولكن قد يجهل البعض أسبابه . وربما سعى بعضهم إلى تكريس هذه التجزئة ، وآخرون يحاولون الخروج من هذه التجزئة بأساليب مختلفة . ولكن ما يجب أن يعرفه الجميع أن الخلاص من ذلك لا يكون إلاً بوحدتنا . وقد أعطانا النداء (٤٩) درساً واضحاً ، وأبان كيف دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إقامة وحدة إسلامية بدءاً من وحدة العقيدة والعبادة ، إلى وحدة اللغة والأخلاق ، والثقافة والسياسة العامة والدفاع المشترك . وحث على البر بالأمم غير الإسلامية إذا لم يقاتلوا المسلمين الموجودين في بلادهم ، ولم يحملوهم على الهجرة من بينهم . وقد أتينا على توضيح ذلك في النداء (٢٣) الذي دعا إلى أخذ الحذر من مكر اليهود وحلفائهم .

(١) الجذور التاريخية للقومية العربية ، عبد العزيز الدوري ، ص ١٢ و ١٤ .

فلا بد أن نطلق من الأسس التربوية التي أتينا على جوانب كثيرة منها في مناسباتها ، وفي مقدمتها : تربية الفرد المسلم القوي ، لأن في الفرد الصالح صلاح للمجتمع . وإذا كانت الأقطار العربية مجزأة فما الذي يمنع من أن يرى الفرد العربي على حب أخيه العربي ، وأن يسعى كل قطر لما فيه صلاحه وصلاح شعبه وأمته العربية . فكل مسعى إيجابي على المستوى المحلي يساهم في العمل الوحدوي ، وكل عمل على مستوى الوحدة العربية يقرب من التلاقي مع البلاد الإسلامية ، لأن الأمة العربية لم تكن في أية مرحلة من مراحل تاريخها تعادي الإسلام . كما أن الإسلام لم يمنع العرب من إعداد العدة ضد المستعمرين وهو القائل ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ، ولم يمنع العرب والمسلمين من إقامة التعددية ضمن دار الإسلام ، ولم يمنع العرب والمسلمين من التوحد في وجه أعدائهم وهو القائل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ . ولئن اعتبر القرآن الكريم جميع شعوب المسلمين أمة واحدة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فإن سعي كل شعب من أجل النهوض والتوحيد هو خطوات على طريق الوحدة العامة .

« إن العروبة لم تكن في الماضي ولا في الحاضر مقصورة على طائفة من الطوائف أو دين من الأديان ، وإن التعاون بين المواطنين العرب على تفاوت أديانهم كان قوياً في الماضي ، ولم يفرق اختلاف الأديان بين العرب إلا في العصور التي سادها الحكم الأجنبي . . »^(١) . فالتجزئة من أخطر عوامل الضعف العربي والإسلامي ، وتكريسها يوجد صداماً ق ط ر ياً ، أو حصاراً ق ط ر ياً . .

بإدراكنا الحقيقي لهذه الأمور نكون قد عرفنا سر شقائنا ، وعرفنا الخطوات التي يجب أن نخطوها نحو معالجة ظاهرة التخلف في مجتمعاتنا العربية والإسلامية . ونكون قد توجهنا نحو طريق السعادة والفلاح . لأنه لا يمكن لأمة أن تحصل على السعادة وتشعر

(١) التربية والقومية العربية ، محمد محمود رضوان ، ص ١٠١ .

بلذتها إلا إذا قهرت أعداءها الذين يتربصون بها الدوائر وملكت أمر نفسها ، ونالت حريتها في الفكر والعقيدة والاتجاه .

ولئن اختلف الفلاسفة في بيان السعادة وحقيقتها وبيان المراد منها ، فإن أمتنا لا ترى السعادة بكثرة المال ، ولا بإشباع الشهوات ، وإنما بالإيمان بالله وتأييده لها في التغلب على أعدائها المحيطين بها من كل جانب ، بل والمتسللين إلى داخلها ينخرون بالمفاهيم الإسلامية حتى أصبح لهم أتباع يوهمون الناس بأن القرآن نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة ، ولا يصلح لمواجهة الحياة الحاضرة . وأشارت بداية إلى أن هذا الادعاء هو أحد أساليب الداعين إلى (العولة) الذين لا يرون في تمجيد (شكسبير) ومؤلفاته ومن على شاكلته أية غضاضة ، وإنما في العودة إلى القرآن والسنة والتراث الإسلامي عشرة في سبيل دخول القرن الحادي والعشرين باتجاهات تقديمية حضارية . ولئن ذكرتهم بالقواعد الدينية قالوا : إن الدين يجب أن يتلاءم مع تنوع الوسائل البشرية ، وبعضهم يلوي النص القرآني لمصلحة فكرته ، هذا إن اعترفوا برسالة الإسلام السماوية . إنها الدعوة للاستسلام لأعداء الأمة العربية والإسلامية ولخططهم ولمؤامراتهم .

فسعادة أمتنا تكمن في فهمنا للمنهج ، وأنه يلبي حاجات الخلق في كل وقت وكل مجال . وبالطاعة والفهم السليم ندرك مدى شمولية الإسلام للحياة البشرية ، وعدم اقتصره على عبادات في المساجد ، وأقوال وأفعال في أوقات محددة . إنما هو حقيقة ضخمة لا بد أن يتملأها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله القائل : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ _النور/ ٥٥_ . أما إذا خالفنا المنهج وطلبنا الولاية والنصرة من غير الله فكل مجهود باطل . ونحن مؤمنون بأن وعد الله يظل يتحقق للمؤمنين في كل زمان ومكان ما تحققت فيهم الشروط ، وما استجابوا للنداءات التي أتينا على ذكرها في هذا الكتاب ، ويكفي أن أعيد إلى الذهن النداء قبل الأخير ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ . لإدراك كيف توجه

الإسلام إلى الفرد أولاً لأنه الخلية الأولى في تكوين المجتمع ، فإذا صلح الفرد صلح المجتمع . ففي الاستجابة للنداءات ؛ تربية للضمير الخلقي والوازع الديني نتيجة الإحساس بمراقبة الله تعالى . وفيها ما يزود المؤمن بما يجعله أقدر على مواجهة الخطوب والشدائد . وفيها تبصير للعقل يدفعه نحو معرفة الله حق المعرفة ، وإبعاد عن الخرافة والخضوع للتيارات السيئة أو المعادية . وقد مر معنا في ثنايا السطور كيف أثر الإسلام على الفرد والمجتمع ، إذ أزاح العلاقات الاجتماعية القائمة على الأنانية والظلم والتعصب ، وأحل محلها فضائل اجتماعية وكمالات نفسية منها : الوحدة ، والأخوة ، والتعاون ، والأمانة ، والإحسان ، والشعور بالمسؤولية الدينية والفكرية والاجتماعية وغيرها تجاه النفس والأسرة والمجتمع والبشرية جمعاء .

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَأَلْهِمْنَا الْعَمَلَ بِمَنْهَجِكَ الْقَوِيمِ ، إِنَّكَ عَلَى مَا
تَشَاءُ قَدِيرٌ ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ ، وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

منيب الطحان

فهرس الأحاديث الشريفة

الصفحة	الحديث أو أطراف الحديث
٦	الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله...
٧	اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرأه.
١٥	من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه...
٢١	... أعني على ذلك بكثرة السجود.
٢٢	كان(ص) إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقال: "أرحنا بها يا بلال".
٢٣	جعلت قرّة عيني في الصلاة.
٢٤	...عند يديه إلى السماء يارب...وقد غذي بالحرام فأني يستجاب له.
٢٤	هيو _ البحر _ الطهور ماؤه، الحل ميتته.
٢٤	الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه...
٢٥	.. نهي رسول الله (ص) عن أكل كل ذي ناب من السباع.
٤٠ و ٢٨	أيها الناس إن أباكم واحد... لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى...
٢٩	المسلمون تكافأ دماؤهم، و يسعى بذمتهم أدناهم...
٣٩	" من آذى ذمياً فقد آذاني".
٤١	لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا...
٥١ و ٤٢	إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة...
٤٢	خلقان يحبهما الله: حسن الخلق، و السخاء...
٤٦	ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك...
٤٨	ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، و المدمن الخمر، و المنان...
٥٣	أولادكم من طيب أكسابكم، فكلوا من أموال أولادكم هنيئاً.
٥٥	الذهب بالذهب، والفضة بالفضة...فمن زاد أو استزاد فقد أربى...

- ٥٥ ...قال بلال: كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع لمطعم النسي (ص)، فقال رسول الله: " أوَاه، عين الربا، لا تفعل"...
- ٦٢ من أخذ أموال الناس يريد سدادها، سدّد الله عنه دينه...
- ٦٤ من أسلف فليسلف في كيل معلوم، و وزن معلوم...
- ٦٩ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم و قد ضلّوا...
- ٧٥ إن الله يرضى لكم ثلاثاً، و يسخط لكم ثلاثاً...
- ٧٥ مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم و تعاطفهم كمثل الجسد الواحد... ما بعث الله من نبي و لا استخلف من خليفة إلّا كانت له بطانتان...
- ٨١ احتنبوا السبع الموبقات ... الشرك بالله، والسحر، و قتل النفس ...
- ٨٣ ... لعن رسول الله (ص) أكل الربا، و موكله، و كاتبه، و شاهديه...
- ٩٢ خط النبي (ص) خطاً مربعاً و خطاً في الوسط فقال: هذا الإنسان و هذا أجله...
- ٩٥ إنما الصبر عند الصدمة الأولى.
- ٩٦ صلّوا كما رأيتموني أصلي.
- ٩٦ خذوا عني مناسككم.
- ٩٧ رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا و ما عليها...
- ٩٨ ألا أدلكم على ما يحجو الله به الخطايا، و يرفع به الدرجات؟..
- ٩٩ عينا لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية الله، و عين باتت تعرس ...
- ٩٩ رباط يوم و ليلة خير من صيام شهر و قيامه...
- ١٠٣ لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر.
- ١٠٥ أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا...
- ١٠٦ كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه، و ماله، و عرضه.
- ١٠٦ لا يخل مال امرئ مسلم إلّا بطيب نفسه.

- ١٠٧ من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة...
- ١٠٩ إذا نعس أحدكم و هو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم...
- ١١٤ على المرء المسلم السمع و الطاعة فيما أحب و كره، إلا أن يؤمر بمعصية...
- ١١٤ من خرج من الطاعة و فارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية...
- ١١٥ اسمعوا و أطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي...
- ١١٥ ... اسمعوا و أطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلوا و عليكم ما حُمِّلتم.
- ١١٨ المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.
- ١٢١ أقال لا إله إلا الله و قتلته؟.. أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً أم لا...
- ١٢٢ إذا شرع أحدكم الرمح إلى الرجل، فإن كان سنانة عند نقرة نحره فقال: لا إله إلا الله، فليرفع عنه الرمح.
- ١٢٢ إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً فلا تقتلوا أحداً.
- ١٣١ آية المنافق ثلاث؛ إذا حدّث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا اتّمن خان.
- ١٤٢ الطهور شطر الإيمان، و الحمد لله تملأ الميزان...
- ١٤٤ "ويل للأعقاب من النار". أو "ويل للعراقيب من النار".
- ١٤٦ كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع و مسؤول عن رعيته...
- ١٤٧ اللهم من ولي من أمر أمّتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه...
- ١٥٢ لو أنكم توكلتهم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير...
- ١٥٥ إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ...
- ١٥٦ انطلق ثلاثة رهط ممن كانوا قبلكم حتى أووا إلى غار فدخلوه...
- ١٧٠ إذا سمعتم الأذان فأمسكوا و كفّوا...
- ١٧٣ ...من رغب عن سنّي فليس مني.
- ١٧٤ "...إن الله لم يعنني بالرهبانية". "إن الرهبانية لم تكتب علينا..."

- ١٧٧ كل مسكر خمر، و كل خمر حرام.
- ١٧٧ عن عمر: إنه نزل تحريم الخمر و هي من خمسة؛ من العنب والتمر والعسل...
- ١٨٤ خمس فواسق لا جناح على المحرم أن يقتلهن في الحل و الحرم...
- ١٨٦ إن الله تعالى فرض فرائض لا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها..
- ١٨٨ دعوني ما تركتكم، إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤالهم...
- ١٨٨ إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم...
- ١٩٠ إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه.
- ٢٠١ ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني... إن ما حرم رسول الله كما حرم الله.
- ٢٠٨ يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.
- ٢١٠ اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع...
- ٢١٢ من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذه بعد ذلك فهو غلول.
- ٢١٦ اللهم منزل الكتاب و مجري السحاب وهازم الأحزاب؛ اهزمهم و انصرنا...
- ٢١٦ يا أيها الناس؛ لا تتمنوا لقاء العدو، و اسألوا الله العافية...
- ٢٢٧ لتركبن سنن الذين من قبلكم حذو القذة بالقذة...
- ٢٢٨ ألا أخيركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة .
- ٢٢٨ يا ابن آدم إنك إن تبدل الفضل خيراً لك، و إن تمسكه شراً لك...
- ٢٣٢ ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فليتنظرم ترجع...
- ٢٣٥ عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، و البر يهدي إلى الجنة...
- ٢٣٦ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة و الكذب رية.
- ٢٣٧ ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس و يقول خيراً أو ينمي خيراً.
- ٢٤٤ للمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه...
- ٢٤٤ من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب...

- ٢٤٤ الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله...
- ٢٤٤ " يا نساء المسلمين ! لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة".
- ٢٤٦ عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة...
- ٢٥٧ مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، و اضربوهم عليها لعشر ...
- ٢٦٠ " نُصرت بالصَّبَا، و أهلكتُ عادٌ بالذَّبُور " .
- ٢٦٤ سأل رجل رسول الله: أي المجاهدين أعظم أجراً؟ قال: " أكثرهم ذكراً لله...
- ٢٦٦ من سبَّح دُبْر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، و حمد ثلاثاً وثلاثين ...
- ٢٦٦ كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن ...
- ٢٦٦ لن أقول سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر أحب إليّ ...
- ٢٧٣ " لو دُعيتُ إلى ذراع لأجبت، و لو أُهْدِي إليّ كراع لقبلت " .
- ٢٧٥ ... ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم.
- ٢٧٦ ... يرحم الله موسى فقد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر.
- ٢٨٦ ... من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله.
- ٢٨٩ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا...
- ٢٩٢ ... من ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك في شيء.
- ٢٩٢ " من صام في اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم " .
- ٢٩٣ ... الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله.
- ٢٩٦ لما احتبس (ثابت بن قيس) نفسه وقال: أنا من أهل النار... قال الرسول (ص) :
- " بل هو من أهل الجنة " .
- ٢٩٦ إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يَكْتَب له بها الجنة...
- ٣٠٠ " التأني من الله، و العجلة من الشيطان " .
- ٣٠٢ " رب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره " .

- ٣٠٤ " كل ابن آدم خطاء، و خير الخطائين التوابون "
- ٣٠٧ إياكم و الظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تحسسوا ...
- ٣٠٨ يا معشر من آمن بلسانه و لم يقصد الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين ...
- ٣٠٨ أترون ما الغيبة؟ ... ذكرك أخاك بما يكره في غيبته ...
- ٣٠٨ لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .
- ٣١١ ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنيه و آمن بي ...
- ٣١٢ مثل المسلمين و اليهود و النصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له ...
- ٣١٤ " اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .
- ٣١٥ إذا كنتم ثلاثة فلا يتناحى اثنان دون الآخر، من أجل أن ذلك يعزله.
- ٣١٥ إن الله يدين المؤمن فيضع عليه كفه و يستره من الناس ...
- ٣١٨ لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه و لكن تفسحوا أو توسعوا ...
- ٣١٨ ... إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذورا الفضل .
- ٣١٩ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.
- ٣١٩ من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع .
- ٣١٩ لئن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها.
- ٣٢٠ " اطلبوا العلم ولو في الصين " .
- ٣٢٠ اللهم فقهه في الدين ، و علّمه التأويل .
- ٣٢١ من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، و إنما أنا قاسم و الله يعطي.
- ٣٢٩ ... لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.
- ٣٣٤ لا هجرة بعد الفتح، و لكن جهاد و نية، و إذا استنفرتم فانفروا.
- ٣٤٤ ... اذهب فالتمس ولو خائفاً من حديد ...
- ٣٤٦ ... كنت أمر بالمعروف و لا آتية، و أنهى عن المنكر و آتية .

- سئل رسول الله (ص) أي الأعمال أفضل؟ قال: "إيمان بالله ورسوله ... " ٣٤٩
- إن لكل نبي حوارٍ، و حوارِيّ الزبير . ٣٥٣
- إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة و عليكم السكينة و الوقار، ولا تسرعوا... ٣٥٧
- خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدم، و فيه أُدخِل الجنة ... ٣٥٧
- من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع و أنصت عُفِرَ له ما بينه وبين... ٣٥٨
- ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته... ٣٦٢
- ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك و إن قتلَكَ دخلت الجنة ... ٣٦٦
- ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء . ٣٦٦
- ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك ... ٣٧١
- حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا . ٣٧١
- تنكح المرأة لأربع؛ لما لها وجمالها ولحسبها ولدينها، فاطفر بذات الدين . ٣٧٢
- اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ٣٧٢
- "يا غلام ! سمَّ الله و كل يمينك، و كل مِمَّا يليك ."
- لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترَب ... ٣٧٨
- اتق الله حيثما كنت، و أتبع السيئة الحسنة تمحها، و خالق الناس يخْلُق حسن . ٣٨٢
- إياك و الغضب فإن الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . ٣٨٣
- "والذي نفس محمد بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني— ٣٨٤
- ثم يموت و لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار."

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم .
- إحياء علوم الدين ، للإمام أبي حامد الغزالي ، بلا تاريخ .
- أسمى الرسائل ، عبد الحميد الخطيب ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٥٤ م .
- إعلام الساجد في أحكام المساجد ، محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق المراغي ، القاهرة ١٣٩٧ هـ .
- الأحوال الشخصية ، د. مصطفى السباعي ، و عبد الرحمن الصابوني ، ط ٣ جامعة دمشق : ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م .
- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ، روجيه غارودي ، ترجمة الجمالي والجهيم ط ٣ ، دار عطية/ بيروت ١٩٩٧ م .
- الإدارات الأميركية . وإسرائيل ، هشام الدجاني ، وزارة الثقافة العربية السورية ، ١٩٩٤ م .
- الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، ط ٢ ، دار العلم للملايين/ بيروت ، ١٩٥١ م .
- الإسلام وأصول الحكم ، علي عبد الرازق ، تحقيق : محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ١٩٧٢ م .
- الإسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب ، دون مصدر أو تاريخ .
- الإعجاز في القرآن طريق إلى الإيمان ، منيب الطحان ، دار سعد الدين ، ١٤٠٢ هـ = ١٩٩٩ م .

- التربة والقومية العربية ، محمد محمود رضوان ، مطبعة رويال/ الإسكندرية ، ١٩٥٨ م .
- التعبير الفني في القرآن ، د. بكري شيخ أمين ، دار الشروق ، ط٣ ، ١٩٧٩ م .
- التفسير المنير في العقيدة والشرعة والمنهج ، د. وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر/ دمشق ١٤١٦هـ = ١٩٩١ م .
- الجذور التاريخية للقومية العربية ، عبد العزيز الدوري ، دمشق ١٩٧٨ م .
- الحب بين العبد والرب ، أحمد نصيب المحاميد ، دار الفكر/ دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥ م .
- السلفية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر/ سورية ، ١٩٨٨ .
- الطب والإيمان ، د. ناجي ، وشعال ، ج٢ ، دار أفنان/ دمشق ١٩٩٨ م .
- الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد . د. وهبة الزحيلي ، دار الكتاب ١٩٦٧ .
- القرآن الكريم والطب الحديث ، د. إدريس بنيوسف ، ط٣ ، مطبعة الكاتب العربي/ دمشق ١٤١٥هـ = ١٩٩٤ م .
- القرآن/ محاولة لفهم عصري ، د. مصطفى محمود ، دار المعارف بمصر : ١٩٧٦ م .
- المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، أنور الجندي ، ط٢ ، دار بو سلامة ، تونس ، عام ١٩٨٤ م .
- المدخل إلى القانون الدولي العام وقت السلم ، د. محمد عزيز شكري ، دار الكتاب ، ١٩٦٨ م .
- المسلمون في يوغوسلافيا ، محمد محمد قاروط ، الدار المتحدة/ الرسالة ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤ م .
- الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة ، طبعة ثانية ، الرياض ١٩٨٩ م .

- الوصايا ، محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي ، مكتبة القصبياتي ، دمشق
١٣٧٦هـ=١٩٥٦م .
- تربية الأولاد في الإسلام ، عبد الله ناصح علوان ، دار السلام ،
بيروت/ حلب ، ١٩٨١م .
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ، المكتبة التجارية/ القاهرة .
- تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) للإمام علاء الدين البغدادي
المعروف بالخازن ، دار الفكر ، عن طبعة مصر ، ١٣٢١هـ .
- تفسير الخطيب ، سيد عبد الحميد الخطيب ، ط ٢ ، دار الفكر الإسلامي بدمشق ،
١٣٧٧هـ=١٩٥٧م .
- تفسير القرطبي .
- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للإمام عبد الله أحمد ابن
محمود النسفي ، على هامش تفسير الخازن ، عن طبعة مصر ١٣٢١هـ .
- تفسير آيات الأحكام ، الشيخ محمد علي السائس ، مطبعة صبيح بمصر ،
١٣٧٢هـ=١٩٥٣م .
- رياض الصالحين ، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ، دار الكتاب العربي/
بيروت ، بلا تاريخ .
- شرح قانون الأحوال الشخصية ، د. مصطفى السباعي ، الجزء الأول ، الطبعة
الخامسة ، جامعة دمشق : ١٣٨١هـ=١٩٦٢ .
- صحيح البخاري ، ضبط وتخريج الدكتور مصطفى البغا ، دار العلم/ بيروت
١٤٠١هـ=١٩٨١م .
- صحيح مسلم ، تقديم محمد فؤاد عبد الباقي .
- صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم/ بيروت ، الطبعة
الرابعة ، ١٤٠٢هـ=١٩٨١م .

- عقيدة المسلم، محمد الغزالي، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٥م.
- علم النفس الإسلامي، معروف زريق، مطبعة الصباح بدمشق، طبعة أولى ١٩٨٩م.
- فقه السيرة (دراسات منهجية علمية لسيرة المصطفى عليه السلام)، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر بدمشق، ط ٢، ١٩٦٨م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، ط ٦، ١٣٩٨هـ=١٩٧٨م.
- قيام الدولة العربية الإسلامية، د. محمد جمال الدين سرور، القاهرة: ١٩٥٢م.
- كبرى اليقينيّات الكونية (وجود الخالق ووظيفة المخلوق) د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر بدمشق ١٣٨٩هـ=١٩٦٩م.
- مختصر مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق عبد البديع صقر، ط ١، دار العربية/ بيروت، ١٣٨٨هـ.
- مدخل إلى نظرية الأمن والإيمان، م. عبد الوهاب المصري، الدار المتحدة بدمشق، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.
- من الفكر والقلب، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ط ٢، مكتبة الغزالي بدمشق، ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م.
- منهج سورة النور (في إصلاح النفس والمجتمع) د. كامل سلامة الدقس، ط ٤، دار الشروق/ جدة، ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م.
- موعظة المؤمنين، من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، تقديم وتحقيق عاصم بهجة البيطار، دار النفائس/ بيروت، ط ٧، ١٩٩٠م.
- نزاعات البلقان والتطهير العرقي، محمد قاروط، دار الفتح ١٤١٨هـ.
- هدي النبي (ص) في الصلوات الخاصة، د. نور الدين عتر، دار الفكر، ١٣٩١هـ=١٩٧١م.

فهرس الكتاب

المضمون	رقم النداء	رقم الصفحة
تمهيد	٥	
يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم.	١	١٢
يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين.	٢	١٨
يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون.	٣	٢٣
يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم.	٤	٢٧
يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون.	٥	٣٢
يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين.	٦	٣٦
يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل	٧	٤٢

أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

٤٦ ————— ٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

٥٠ ————— ٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

٥٤ ————— ١٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

٥٩ ————— ١١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ، وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَئَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكَُمْ

أَفَسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَ
كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا
اللَّهَ ، وَیُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

يا أيها الذين آمنوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . ٦٥ ————— ١٢

يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . ٧٤ ————— ١٣

يا أيها الذين آمنوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا
يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ
الْآيَاتِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . ٧٨ ————— ١٤

يا أيها الذين آمنوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . ٨٢ ————— ١٥

يا أيها الذين آمنوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . ٨٦ ————— ١٦

يا أيها الذين آمنوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ
كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي
قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . ٩١ ————— ١٧

يا أيها الذين آمنوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . ٩٥ ————— ١٨

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ ۖ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَا مَسْتَمُ النَّسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ

مَنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا .

١٢٤ ————— ٢٥

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ
غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ
تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَظَرْتُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَانُوا يَمُورُونَ
خَبِيرًا .

١٢٧ ————— ٢٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ
الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ،
وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .

١٣٠ ————— ٢٧

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا
مُبِينًا .

١٣٦ ————— ٢٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ
بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ
وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

١٣٩ ————— ٢٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ
الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ
فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرُنْكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ،
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ

شديد العقاب .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا ١٤٢ ————— ٣٠

وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ
كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ
أَوْ لَا مُسْتَمْتِ النَّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ ١٤٦ ————— ٣١

بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ،
اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ ١٥٠ ————— ٣٢

قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ١٥٤ ————— ٣٣

وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ١٥٨ ————— ٣٤

أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ
مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ١٦٤ ————— ٣٥

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ
لَوْمَةً لَائِمَةً، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ.

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا

١٦٨ _____ ٣٦

دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم
والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين .

يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله

١٧٢ _____ ٣٧

لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين .

يا أيها الذين آمنوا إنما الحمر والميسر والأنصاب

١٧٦ _____ ٣٨

والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم
تفلحون .

يا أيها الذين آمنوا ليبلوكنكم الله بشيء من الصيد

١٨٠ _____ ٣٩

تناه أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب،
فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم .

يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم،

١٨٣ _____ ٤٠

ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم
يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة
طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليدوق وبال أمره،
عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله
عزيز ذو انتقام .

يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد

١٨٦ _____ ٤١

لكم تسؤلكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد
لكم عفا الله عنها، والله غفورٌ حلیم .

١٨٩ ————— ٤٢ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، لا يضركم

مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

١٩٣ ————— ٤٣ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر

أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ
آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ
مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، تَحْسِنُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ
إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ
شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ .

١٩٦ ————— ٤٤ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً

فَلَا تُولُّوهُمْ الْاَدْبَارَ .

١٩٩ ————— ٤٥ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا

عنه وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ .

٢٠٥ ————— ٤٦ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

٢٠٩ ————— ٤٧ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول

وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

٢١٣ ————— ٤٨ يا أيها الذين آمنوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً

وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ .

٢١٦ ————— ٤٩ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا

اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

٢٢١ ————— ٥٠ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون .

٢٢٤ ————— ٥١ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم .

٢٢٧ ————— ٥٢ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحرار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .

٢٣١ ————— ٥٣ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أنأقلتم إلى الأرض ، أَرْضَيْتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .

٢٣٥ ————— ٥٤ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين .

٢٣٩ ————— ٥٥ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين .

٢٤٣ ————— ٥٦ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون .

٢٤٧ ————— ٥٧ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، فإنه يأمُر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من

يشاء، والله سميعٌ عليمٌ .

يا أيُّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتِكُمْ
حتى تَسْتَأْذِنُوا وتُسَلِّمُوا على أهلِها، ذلكم خيرٌ لكم
لعلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

٢٥١ ————— ٥٨

يا أيُّها الذين آمنوا لَيْسْتَأْذَنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، مِنْ
قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ
بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ
عَلَى بَعْضٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ عليمٌ
حكيمٌ .

٢٥٥ ————— ٥٩

يا أيُّها الذين آمنوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا،
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصيراً .

٢٥٩ ————— ٦٠

يا أيُّها الذين آمنوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثيراً .

٢٦٣ ————— ٦١

يا أيُّها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ
طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ
عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً .

٢٦٧ ————— ٦٢

يا أيُّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ
يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشَرُوا وَلَا مُسْتَأْذِنِينَ لِحَدِيثٍ،
إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ، وَاللَّهُ لَا
يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ

٢٧١ ————— ٦٣

وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذلكم كان عند الله عظيماً.

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ٢٧٥ _____ ٦٤

فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً.

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً. ٢٧٨ _____ ٦٥

يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ٢٨٢ _____ ٦٦

ويثبت أقدامكم.

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ٢٨٧ _____ ٦٧

ولا تبطلوا أعمالكم.

يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ٢٩١ _____ ٦٨

ورسوله، واتقوا الله، إن الله سميع عليم.

يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق ٢٩٥ _____ ٦٩

صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.

يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن ٢٩٨ _____ ٧٠

تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ٣٠٢ _____ ٧١

أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون.

يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن ٣٠٩ _____ ٧٢

بعضَ الظَّنِّ إِنْهُمْ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا، أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ .

٣١٠ ————— ٧٣

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٣١٣ ————— ٧٤

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

٣١٦ ————— ٧٥

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ، وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

٣٢٢ ————— ٧٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٣٢٥ ————— ٧٧

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

٣٢٨ ————— ٧٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ،

وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ
فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ
مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا
تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا
أَنْفَقُوا ، ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ .

٣٣٢ ————— ٧٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ قَدْ يَتَّبِعُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ مِنَ
أَصْحَابِ الْقُبُورِ .

٣٣٦ ————— ٨٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ
تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ،
وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَمُ
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

٣٤١ ————— ٨١

٣٤٧ ————— ٨٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ
عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَاْمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى
عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

٣٥٢ ————— ٨٣

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ

٣٥٦ ————— ٨٤

الْجُمُعَةَ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا
أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُتِلُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا
وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا
يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا
عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا غُطُوفَنَا وَتَوْبَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ .

خلاصة و نتائج

فهرس الأحاديث الشريفة

المصادر و المراجع

فهرس الكتاب

